

أندرياس برنارد
عصر نهاية الخصوصية
ترجمة: د. سمر منير

عصر نهاية الخصوصية

انكشاف الذات في الثقافة الرقمية

د. سمر منير/ مدرس بقسم اللغة الألمانية بكلية الألسن جامعة عين شمس، مواليد القاهرة 1985.. مترجمة وأكاديمية.. ترجمت عدة أعمال من الألمانية إلى العربية ومنها "حلم الأوليمبياد"، "الشاي: ثقافات طقوس حكايات"، "مريم"، "جاسوس ستالين"، "جيورج فورستر بين الحرية وقوة الطبيعة" و"عصر نهاية الخصوصية".

....

عصر نهاية الخصوصية

طبعة 2020

رقم الإيـــداع: 2020/4091

الترقيم الدولي: 978-977-821-145-0

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

Originally published as: "Komplizen des Erkennungsdienstes Das Selbst in der digitalen Kultur" © S. Fischer Verlag GmbH, Frankfurt am Main, 2017

"The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, Which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de"







دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

أندريـاس برنارد

Andreas Bernard

عصر نهاية الخصوصية

انكشاف الذات في الثقافة الرقمية

ترجمة

د. سمر منير



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

برنارد، أندرياس، ١٩٦٩ -

عصر نهاية الخصوصية: انكشاف الذات في الثقافة الرقمية/ أندرياس برنارد، ترجمة: د. سمر منير

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠

٣١٦ ص، ٢٠ سم

تدمك ٠-١٤٥-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- الثقافة - تطبيقات الحاسب الآلي

٢- الخصوصية

أ- منير، سمر (مترجم)

ب- العنوان

٣٠١,٤١٢

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/٤٠٩١

المحتويـــــــات

1

الملف الشخصي... مسيرة تطور ذلك الشكل

عندما اهتزت الولايات المتحدة الأمريكية في غضون أشهرٍ قليلة من عام 2012 بفعل حادثي إطلاق نار بشكلٍ عشوائي في إحدى دور السينما في مدينة "دنفر" وفي مدرسة ابتدائية في ولاية "كونيتيكت"، تجدد نقاش سياسي قديم. كان هذا النقاش يدور حول السؤال: هل من الممكن في المستقبل وضع حدود بصورة أفضل لمجموعة ممن يحتمل ارتكابهم لجرائم والحيلولة في وقتٍ مبكر دون وقوع جريمة من هذا النوع؟ فبالإضافة إلى المؤشرات المعروفة والمثيرة للارتياب -أي الانطواء المعهود للجناة والذين يكونون بشكلٍ شبه دائم من الذكور بالإضافة إلى عزلتهم الاجتماعية والعلاجات النفسية التي تلقوها في الماضي- هناك معيار آخر؛ ألا وهو إحجام القتلة بالإجماع عن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي. حيث كشف المراسلون عن أن "جيمس إيجان هولمز"[1] و"آدم لانزا"[2] لم يكن لديهما

1- جيمس إيجان هولمز: مشتبه بإطلاقه للنار في إحدى دور السينما في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2012. (المترجمة)

2- آدم لانزا: مرتكب حادث إطلاق النار في مدرسة ابتدائية بالولايات المتحدة الأمريكية عام 2012. (المترجمة)

"ملـف شـخصي" علـى موقـع "فيـس بـوك" "Facebook" أو موقـع "تويتـر" "Twitter " أو موقـع "لينكـد إن" ."LinkedIn" فقـد رفضـا -شـأنهما فـي ذلـك شـأن النرويجـي "أنـدرس بريفيـك"[3] أيضًـا، الـذي سـبقهما فـي ارتكاب جرائمهمـا بعـام- العـروض المتاحـة والموجـودة بكثـرة فـي شـبكة الإنترنت لعـرض صـورة للـذات والتواصـل مـع الآخريـن. وقـد اكتسـب هـذا العـزوف عـن شـبكة الإنترنـت طابـع الإشـارة إلـى وجـود خطـر. يتذكـر مديرو شـؤون العامليـن فـي شـركات كبرى قائليـن إن إلقاء نظـرة على الملفات الشـخصية علـى شـبكة الإنترنت للمتقدميـن للعمل أصبحت تندرج فـي الوقت الحاضر ضمـن معاييـر اختيـار المرشـحين اللائقيـن للعمـل وأن التغيـب التـام عـن التواجـد علـى شـبكات التواصـل الاجتماعـي يثيـر الشـعور بالاندهـاش. كمـا أكدت دراسـة أجراها الطبيب النفسـي الكندي "ريتشـارد بيلونجيه" ونشـرها عـام 2011 هـذا الـرأي مـن الناحيـة الطبيـة؛ حيـث إن هـذه الدراسـة أثبتت وجـود صلـة وثيقـة بيـن النشـاط علـى شـبكة الإنترنـت والصحـة النفسـية لـدى الشـباب. فوفقًـا للنتيجـة النهائيـة التـي توصـل لهـا "بيلونجيـه" فـإن "الناشـئة، الذيـن لا يتواجـدون علـى الإطـلاق علـى شـبكة الإنترنـت وأولئـك الذيـن يفعلـون ذلـك لسـاعاتٍ عديـدة فـي اليـوم" يبعثـون "الأطبـاء وعلماء

3- أندرس بريفيك: مرتكب هجمات إرهابية في النرويج عام 2011. (المترجمة)

النفـس علـى الشـعور بالانزعـاج"[4]. وقـد أظهـر هـذا النقـاش بوضـوح أن الثقافـة الرقميـة فـي الوقـت الحاضـر تشـهد ما يضاهـي لحظة من التشـوش والبلبلـة. يحـدث ذلـك عندمـا لا يخلق الناس فـي عمر معين صـورة لذواتهم معلنـة عبـر شـبكة الإنترنت؛ أي على هيئة ملفات شـخصية ومنشـورات تعبر عـن حالتهـم وتعليقـات يكتبونهـا. وعلـى مـا يبـدو، فـإن هـذا العـزوف يعد فـي العالـم الغربـي اليوم إشـارة أولى علـى وجود أمـرٍ يلفت الأنظار بشـكلٍ غريـب مـن الناحيـة النفسـية؛ ربما يكـون مرضًا وربمـا غريزة مرضيـة كامنة، قـد تتفجَّـر ذات يـوم لتصبـح نوبـةً مرضيـة مهلكـة. ومـن الناحية العكسـية، فـإن الاسـتخدام المنتظـم لوسـائل التواصـل الاجتماعـي يعـد إثباتًـا للتمتـع بالصحـة والحالـة الطبيعية.

إن الأفـكار والتأمـلات التالـي ذكرهـا -والتـي تدور حول وضـع الذات في الثقافـة الرقميـة- تتعلـق بالإجـراءات والخدمات والأجهزة التـي أصبحت في الوقـت الحاضـر بديهية وتبـدو كأنها أمر طبيعي في ظل اسـتخدامها المتوفر فـي كل مـكان بصـورةٍ متزايدة. ومع ذلك فإنها تمثل فـي تاريخ أنماط تمثيل الفرد لذاته تطورًا حديثًا بشـكلٍ مدهش. فمن التحق قبل ربع قرن بالمدرسـة أو الجامعـة، سـيتذكر مدى محدوديـة الخيارات المتاحة آنـذاك ليعرض الفرد

4- Bëlanger u.a. (2011), S. 334; Anonym (2012) und Piorkowski (2012).

شخصيته وميوله وقناعاته على الملأ. ومن ضمنها ملصق على ياقة السترة وبضعة أسطر أسفل صورة في صحيفة المدرسة الثانوية وإعلان طلب تعارف باهظ التكاليف ويكون متاحًا ليومٍ واحد فقط في الصحيفة اليومية. وفي مطلع التسعينيات، كان هذا الحد الأدنى من مجال التأثير عن طريق ما يتم نشره على الملأ يعد بالنسبة لجميع هؤلاء -الذين لم يكن متاحًا لهم الوصول بشكلٍ مستمر إلى وسائل الإعلام- بمثابة واقع غير قابل للتغيير. أما اليوم فتبدو هذه الفترة كأنها عهد سحيق، صار حقبة زمنية غريبة.

وبسرعة البرق صار موقع "فيس بوك" "Facebook" منذ خريف عام 2006 شبكةً تفتح أبوابها أمام الجميع وأصبحت الهواتف الذكية متوافرة منذ عام 2007 وأصبحت متاجر التطبيقات الإلكترونية متوافرة منذ عام 2008. وبذلك تكوَّنت ثقافة رقمية واسعة النطاق، تبحث مقالات صحفية وأكاديمية باستمرار أساليب ظهورها وتحتفي بها أو تشيطنها. غير أنه نادرًا ما يتم التطرق لأصل تاريخها المعرفي. (وإن حدث ذلك فإنه يكون من منظور تاريخ الكمبيوتر) ولذا يحاول هذا الكتاب بحث تأصيل مثل ذلك التاريخ المعرفي واندماج تقنيات الوسائط الرقمية في تاريخ العلوم الإنسانية. هناك شيء ما يلفت الأنظار في أساليب تمثيل الذات ومعرفة الذات في أيامنا هذه – سواء في "الملفات الشخصية" في وسائل التواصل الاجتماعي وكذلك

أيضًا في وظائف تحديد الموقع الموجودة في الهواتف الذكية، والتي يتم استخدامها بشكلٍ متنوع، وقياسات الجسم وفقًا لحركة "القياس الكمي للذات"- وهو ما يتمثل في حقيقة أنها جميعًا ترجع إلى طرق تم ابتكارها في علم البحث الجنائي وعلم النفس والطب النفسي منذ نهاية القرن التاسع عشر. فاليوم أصبحت تقنيات تسجيل البيانات -التي كانت مقتصرة لوقتٍ طويل على السلطات الشرطية والعلمية من أجل ضمان الوصول إلى مجموعة من الأشخاص يثيرون الانتباه- تخص أي مستخدم للهواتف الذكية وشبكات التواصل الاجتماعي. ومع ذلك لم تعد الأوصاف الشخصية المتعلقة بوصف المظهر الخارجي للأشخاص والمرتبطة ببيانات سيرهم الذاتية وأجهزة نظام التموضع العالمي عبر الأقمار الصناعية "جي بي إِس" "GPS" وأجهزة القياس، التي يتم تثبيتها على الجسم بصفةٍ دائمة، بمثابة أدوات لاستقصاء الشبهات الجنائية؛ بل إنها تُستخدم اليوم بمفهوم اللهو أو بمفهوم تواصلي أو يتم استلهامها اقتصاديًّا أو عاطفيًّا.

تاريخ المفهوم "ملف شخصي" في القرن العشرين:

تعد فئة ما يعرف بالـ"ملف شخصي" ذات أهمية بالغة في هذا الصدد بصفةٍ خاصة. فمن المعروف أن هذا العنصر يلعب الدور المحوري في التواصل بين الأفراد داخل نطاق شبكات التواصل الاجتماعي. حيث إن الملفات الشخصية لأعضاء موقع

"لينكـد إن" "LinkedIn" أو موقـع "إنسـتجرام" "Instagram" أو موقـع "فيـس بـوك" "Facebook" -أي المـكان الـذي يؤلفـون فيـه وصفهـم لذواتهـم والـذي تتجمَّـع فيـه البيانـات الشـخصية والنصـوص والصـور ومقاطـع الفيديـو- يعـد بمثابـة مركـز للتفاعـل فـي مـا بينهـم. ولذلـك فإنـه حتـى أوائـل الأبحـاث، التـي أجريـت حـول وسـائل التواصـل الاجتماعـي، قـد وضعـت "الملـف الشـخصي" فـي بـؤرة مـا قامـت بـه مـن تحليـل. فلطالمـا انطلقـت علـى سـبيل المثـال "دانـا بويـد" مـن هـذا العنصـر فـي مقالاتهـا ذات التأثيـر الكبيـر والتـي أخـذت تنشـرها بـدءًا مـن العـام 2002 حـول موقـع "فرينـدسـتير" "Friendster" (وهـو أول شـبكة تواصـل اجتماعـي يسـتمر نجاحهـا لوقـتٍ طويـل). فقـد جـاءت الجملـة الأولـى مـن مقالهـا المنشـور عـام 2006 كمـا يلـي: "لقـد أصبحـت الملفـات الشـخصية بمثابـة الشـكل السـائد لعـرض الهويـة الشـخصية علـى شـبكة الإنترنـت"[(5)]. ووصفـت "بويـد" مـن ينشـئون الملفـات الشـخصية -والتي يـدور موضوعها حولهـم فـي الوقـت نفسـه- بأنهـم يتمتعـون بقـدرٍ كبيـر مـن الاسـتقلالية؛ فلديهـم اسـتقلالية تامـة فـي عـرض ذواتهـم علـى المـلأ وكلمـا زاد الابتـكار

5- Boyd /Heer (2006), S. 1. Vgl. auch: Boyd (2004), S. 1 und Boyd / Donath (2004), S. 72.

وفي ما يتعلق بالإشارة إلى مقالات "دانا بويد" عن الملف الشخصي وكذلك في بعض من الإشارات الأخرى لتاريخ هذا الشكل التقني، فإنني أدين بالفضل إلى أبحاث المؤرخ في مجال الإعلام "أندرياس فايش" والذي ينحدر أصله من مدينة "براونشفايج" (انظر فايش [2017]) وسوف تصدر رسالة الدكتوراة الخاصة به عما قريب وموضوعها يدور عن تاريخ مفهوم الملف الشخصي.

والغلو في بناء شكل "الملف الشخصي"، زادت قوة ردود أفعال المستخدمين الآخرين لشبكة التواصل الاجتماعي على ذلك. كما تحدثت "دانا بويد" و"جوديث دوناث" في عام 2004 عن موقع "فريندستير" "Friendster" قائلتين إن: "من يحمل على عاتقه عبء أن يخلق ملفًّا شخصيًّا مثيرًا للاهتمام فسوف ينشئ علاقات تواصل أكثر"[6]. وكثيرًا ما تصف "بويد" في مقالاتها الممارسة العملية لعملية تشكيل الذات بأنها "عملية لتمثيل الهوية" وتشدِّد على أن هذا التأثير المثمر الخلّاق "قد حوَّل الملف الشخصي من طريقة استاتيكية لتمثيل الذات إلى أداة للتواصل"[7]. أي أن هذا الشكل التواصلي يعد مستخدميه بالتمتع بفضاءٍ حر، يحدده الفرد بنفسه ويستطيع فيه منشئو الملفات الشخصية أن يقدموا دورًا صادقًا بشكلٍ أو آخر ويُجملونه بشكلٍ أو آخر ويرغبون في أداء هذا الدور على الملأ وذلك على هيئة مشاهد تمثيلية.

ولكن لا ينبغي أن ننسى بالرغم من هذا كله أنه حتى عشرين أو خمسة وعشرين عامًا مضت كان مرتكبو جرائم القتل المتسلسل والمختلون عقليًّا وحدهم موضوعًا تتناوله "الملفات الشخصية". لقد شهد هذا الشكل المعرفي وهذه الخطوط المتشابكة من الأوصاف الخاصة بالبشر في ربع القرن الأخير تحولًا سريعًا وجذريًّا أيضًا. ولهذا السبب، فإنه انطلاقًا من خلفية استخدام

6- Boyd /Donath (2004), S. 74.

7- Boyd /Heer (2006).

المفهـوم فـي يومنـا هـذا يصبـح الانشـغال بالدلالـة التاريخيـة للمفهـوم أمرًا ذا أهميـة بالغـة. فـي أي سـياقات وفـي أي توقيـت ظهر "الملف الشـخصي" الكتابـي؟ مـن يؤلفـه ومـا موضوعـه ولمـاذا تـم إنشـاؤه؟ يُوصَـف المفهـوم "Profil" فـي التعريـف الـذي ورد فـي قامـوس "ويبسـتر" بـدءًا مـن طبعـة عـام 1968 أنـه "سـيرة ذاتيـة قصيـرة وواضحـة تحـدد أهـم ملامـح شـخصية أحـد الأفـراد"[8]. أي أن تاريـخ هـذا الوصـف يعـد حديثًا نسـبيًّا (فقد أدرجت الموسـوعات الصـادرة بالألمانيـة هـذا التعريف فـي وقتٍ لاحـق). وبدءًا من مطلـع العصـر الحديـث كانـت كلمـة "Profil" تُسـتخدم فـي أول الأمـر فـي سـياقٍ معمـاري وجيولوجـي ويقصـد بـه المعالـم المميـزة للمباني وسلاسـل الجبـال. وبعـد ذلك ترَّسـخ -أيضًا- في القرن الثامن عشـر معنـى تلك الكلمة بوصفهـا المنظـر الجانبـي للوجه. ويبدو أن اسـتخدام كلمـة "Profil" بمعنى كونهـا "ملخصًـا مرتبًـا علـى شـكل جـدول أو علـى هيئـة رسـم بيانـي ويدور حـول أحـد الأشـخاص" كان غيـر معلـوم حتـى مطلـع القرن العشـرين.

إن لـم يكـن هـذا الانطبـاع مضلـلًا، فـإن هـذه الكلمـة وردت فـي العلـوم الإنسـانية لأول مـرة بوصفهـا مفهومًـا متخصصًـا فـي مجـال علـم النفـس التقنـي وذلـك فـي دراسـات الطبيـب النفسـي الروسـي "جريجـوري روسـوليمو"، الـذي نشـر فـي عـام 1910 مقـالًا تحـت عنـوان "الملـف النفسـي". صمَّـم "روسـوليمو" فـي هـذه الدراسـة –

8- Webster Universal Dictionary (1968), S. 1163.

التـي صـدرت بعد نهاية الحـرب العالمية الأولى أيضًا باللغـة الألمانية وأيدها فـي العشـرينيات زمـلاء لـ"روسـوليمو" متخصصـون فـي الطب النفسـي مثل "كارل بارتـش" و"فريتـس جيـزه"- إجراءات القيـام باختبار للأطفـال بدءًا من عمر سـبع سـنوات مـن أجل قيـاس المواهب المختلفـة ومـدى التركيز وأداء الذاكـرة وقـوة تداعـي الأفـكار وذلـك وفقًـا لمقيـاس متـدرج مـن واحـد إلى عشـرة. يـرى "روسـوليمو" أنـه في نهاية إجـراءات الاختبار هـذه يمكن "ربط كل نقـاط الجـدول بعضهـا مـع بعض والحصـول من خلال ذلـك على منحنى مسـتويات التطـور لـكل عمليـة علـى حـدة، أي *ملـف نفسـي مفصـل*"[9]. تُسـتخدَم هذه القيم القياسـية في روسـيا في المقام الأول من أجل تخصيص نمـط المدرسـة المناسـب للأطفـال ذوي السـلوك غيـر المنضبـط. ووفقًـا لما يقولـه "كارل بارتـش" فـي مواءمتـه لتلـك الطريقـة المنهجيـة فـإن "الملـف النفسـي يتيـح تحليـل الوظائـف النفسـية للأطفـال وتوضيحها ويعرض سـبل المعالجـات التربويـة العلاجيـة للاضطرابات الموجـودة"[10].

أي أن الاهتمـــام المعرفـــي بـ"الملـــف" يكمـــن منـــذ البدايـــة فـــي تقديـــم إيضـــاح عـــن هويـــة وســـلوك الأفـــراد المنحرفيـــن لمرجعيـــة تقـوم بفحصهـم وتقييمهـم. كتـب "كارل بارتـش" -الـذي بلـغ بتأويـلات "روســوليمو" للإجــراءات القياســية درجــةً قصــوى وأطلــق علــى

9- Rossolimo (1910 /1926), S. 8.

10- Bartsch (1922 /1926), S.3.

دائـرة الشـباب الخاضعيـن لفحصـه اسـم "المصابـون بأمـراض نفسـية"– عن طالـب يعانـي مـن صعوبـات تربويـة بالغة وسـيرته الذاتيـة حافلة بمشـاكل كثيـرة قائـلًا: "مـن بإمكانـه أن يفهمـه دون معرفـه ملفـه النفسـي؟" كمـا أقـام هـذا العالـم المتخصـص في مجـال التربيـة العلاجية والمنتمـي لمدينة "لايبـزج" –أيضًـا- علاقـة يمكـن حسـابها بيـن "منحنـى الملـف" ورد الفعـل المؤسسـي عليـه. ووفقًـا لمـا أوصـى بـه "بارتـش" فإنـه "يتأتـي إرسـال كل الأطفـال، الذيـن تتـراوح أعمارهـم بين سـبعة وثمانية أعوام، ممـن لم يبلغوا فـي ملفهـم النفسـي درجة مقدارهـا أربع درجـات إلى مدرسـة دعم خاص". وطبقًـا لمـا ذكـره العالـم المتخصص فـي مجال علـم النفس التقنـي "فريتس جيـزه" عـام 1923 فإنـه حيثمـا يتـم إنشـاء ملـف نفسـي، وحيثما يتـم النظر "بشـكلٍ عرضـي للإنسـان مـن منظور علـم النفـس"[11] فـإن الحالـة الطبيعية وصحـة الأشـخاص الخاضعيـن للتجربـة والتحليـل تصبحـان علـى المحك.

قرابـة عـام 1930، فقـد "الملـف النفسـي" أثـره فـي البدايـة بمفهومـه الـوارد فـي علـم النفـس التقنـي. بيـد أن المفهـوم سـرعان مـا ظهـر بعـد ذلـك فـي سـياقٍ معرفـي جديـد، أكسـبه فـي أواخـر القـرن العشـرين شـعبيةً واسـعة. فبعـد انتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة ازدادت حـالات التعـاون بيـن الخبـراء الجنائييـن والمحلليـن النفسـيين فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة مـن أجـل دفـع عمليـة الكشـف عـن

11- Bartsch (1922 /1926), S. 60 und S. 73; Giese (1923), S. 40.

ملابسـات القضايـا الجنائيـة نحـو الأمـام؛ لا سـيّما مثـل تلـك القضايـا التـي يُرجَـح أن مـن يقـف خلفهـا جـانٍ سـبق لـه ارتـكاب جرائـم. ومثلمـا يُخضِـع العمـل الشـرطي المتعـارف عليه الآثـار المادية الموجودة فـي موقع ارتكاب الجريمـة للتقييـم –مـن أجـل الاقتراب مـن هوية الجاني عـن طريق بصمات أصابـع اليـد أو المقذوفـات المتناثـرة– فقد بدأ منظور علـم النفس الجنائي يُركِّـز علـى الآثـار الانفعاليـة وغيـر الماديـة، التـي يُخلِّفهـا الجانـي وكذلـك علـى سـؤال: كيـف ترتسـم فـي مسـرح الجريمـة مشـاعر الكراهيـة والخوف والغضـب والاحتيـاج إلـى الحـب أو الانفعالات الأخرى التـي تختلج في نفس الجانـي؟ كان لوضـع بصمـة للشـخصية وللبحث -وفقًا لعلـم النفس الجنائي- عـن الآثـار النفسـية عنـد ارتـكاب الجرائم نصيب في الكشـف عن ملابسـات الجرائـم المتسلسـلة والمثيـرة للضجـة في الخمسـينيات (على سـبيل المثال فـي حالـة جـورج ميتيسـكي "زارع القنابـل المختـل عقليًّـا" والـذي يرجـع أصلـه لمدينـة نيويـورك). إلا أن تلـك الطريقة المنهجية لـم توصف –على ما يبـدو– لأول مـرة بأنها "ملف ينشـئه الطب النفسـي" سـوى فـي العام 1962 وذلـك فـي مقـال كتبه المحلل النفسـي "لويـس جولد" عن مشـعلي الحرائق ذائعـي الصيت[12].

12- Gold (1962).

وللاطلاع على موضوع "القتلة المختلون عقليًّا" وإسهام المحلل النفسي "جيمس بروسل" في الكشف عن سلسلة الانفجارات انظر: 1971/ 1968) Brussel).

وبالمقارنـة مـع الاسـتخدام السـابق للمفهوم فـي علم النفـس التطبيقي، فـإن "ملـف الطـب النفسـي" المسـتخدم في علـم البحث الجنائـي كان على درجـة كبيـرة مـن الاختـلاف؛ فأصبـح مـن المفتـرض الاسـتعانة بهـذا الشـكل المعرفـي لتحديـد هوية أشـخاص غيـر معروفين؛ حيث حلَّـت عملية البحث عـن المطلوبيـن جنائيًّـا محـل الاختبار المعرفـي وحلَّ وضـع الفرضيات محل المقـولات العلميـة القابلـة للقيـاس الكمـي. لقـد اعتمـدت تقنيـة التحقيـق الجديـدة فـي مرحلتهـا المبكـرة علـى المؤسسـات، التـي تمتعـت بالشـهرة والتـي كانـت تتجـه إلـى اسـتخدام أسـاليب الشـعوذة، والتابعـة لعلمـاء نفسـيين منفرديـن فـي مجـال البحـث الجنائـي مثـل "جيمـس بروسـل". ولـم يتطـور إنشـاء "ملفـات للجنـاة" –حسـبما تسـمى الآن– بدقـة منهجيـة إلا مـع نهايـة السـبعينيات وذلـك فـي نطـاق قسـم تـم تأسيسـه مؤخـرًا فـي مكتـب التحقيقـات الفيدرالـي الأمريكـي "FBI" وحمـل اسـم "وحـدة العلوم السـلوكية". اختبـر علمـاء النفـس والخبـراء الجنائيـون فـي ذلك القسـم طرقًا منهجيـة جديـدة مـن أجـل اتخـاذ رد فعـل علـى معـدل الجريمـة المرتفـع فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. ووفقًـا لمكتـب التحقيقـات الفيدرالـي الأمريكـي فمنـذ السـتينيات لـم يتنـامَ عـدد جرائـم القتـل الغامضـة بشـدة فحسـب، بـل ارتفعـت بشـدة –أيضًـا- نسـبة الجرائـم، التـي لـم يكـن يعـرف فيهـا الضحيـة الجانـي. حيـث ارتفعـت نسـبتها مـن عشـرة إلـى ثلاثيـن بالمئـة، وذلـك طبقًـا لمـا أثبتتـه إحصائيـة تـم إجراؤهـا عـن القتلـة الذيـن ثبـت ارتكابهـم للجرائـم. وقـد كتـب "ريتشـارد أولـت" و"جيمـس

ريــس" فــي مقالهمــا الأساســي الصــادر فــي المجلــة الشــهرية "نشــرة تطبيــق القانــون التابعــة لمكتــب التحقيقــات الفيدرالــي الأمريكــي" ("FBI Law Enforcement Bulletin") أنـه "إذا كان المجرمـون يتصرفـون دائمًـا علـى نحـوٍ أكثـر مكـرًا، فـإن الأمـر ذاتـه لا بـدَّ أن ينطبـق علـى أدوات التحقيـق التـي يسـتخدمها موظفـو الشـرطة. وينـدرج ضمـن تلـك الأدوات التحليـل النفسـي للمجرميـن؛ أي التنميـط النفسـي للمجرميـن"[13].

أي أنـه طبقًـا لـ"ريتشـارد أولـت" و"جيمس ريـس" فإن المهمـة المعرفية للـ"ملـف" تكمـن فـي فهـم أنمـاط سـلوكية ودوافـع محـددة لمرتكبـي جرائـم القتـل الجنسـية أو جرائـم إشـعال الحرائـق عمـدًا، والتـي لـم يتـم كشـف غموضهـا، وذلـك فـي الأماكـن المنكوبـة التـي وقعـت فيهـا تلـك الجرائـم. وفـي موضـع آخـر، وصـف أحـد رؤسـاء "وحـدة العلـوم السـلوكية" هـذه الاسـتراتيجية بأنهـا محاولـة "للعثـور علـى الجانـي عبـر تحديـد سـبب الجريمـة"[14]. حيـث يسـتنتج المحققـون مـن وضـع مـكان ارتـكاب الجريمة هـل ارتكـب المجـرم الجريمـة بطريقـةٍ أقـرب لأن تكـون منظمـة أو غيـر منظمـة؟ ومـن هـذا الاختـلاف الرئيـس يحاولـون حصـر هويـة الجانـي المجهـول أكثـر فأكثـر وذلـك انطلاقًـا مـن: هـل كان مرتكـب الجريمـة يعيش علـى مقربـة مباشـرة للضحيـة؟ وهـل كانـت شـقته في حالـةٍ مترديـة؟ وهل

13- Ault /Reese (1980), S. 2223-.

14- Vorpagel (1982), S. 156.

الجانـي طلـق اللسـان أم منبـوذ اجتماعيًّـا وهـل كان فاتـح البشـرة أم داكـن البشـرة وهـل كان بدينًـا أم نحيفًـا هزيـلًا؟ (فوفقًـا لقناعـات علمـاء نفـس الجريمـة هنـاك أمـراض نفسـية محـددة تظهـر فـي عـادات تقشـفية عنـد تنـاول الطعـام). لقد اسـتهل موظفـا مكتب التحقيقـات الفيدرالـي الأمريكي مقالهمـا الرائـد بإعـلان خبـر النجـاح فـي التمكن من الكشـف عن ملابسـات سلسـلة مـن سـبع جرائـم اغتصـاب، تأتـي فيهـا اكتشـاف "طريقـة ارتـكاب الجريمـة" ذاتهـا وذلك في غضون أسـبوع من إنشـاء الملـف الجنائي. تتعلَّق عناصـر التخميـن، التـي يتضمنهـا هـذا الملـف بمـا يلي:

1) الأصل العرقي للجاني.

2) جنسه.

3) العمر بالتقريب.

4) الحالة الاجتماعية.

5) الوظيفة.

6) السلوك المتبع عند الاتصال بالشرطة.

7) درجة النضج الجنسي.

8) السؤال عما إذا كان من الممكن أن يرتكب الجاني جرائم أخرى.

9) إمكانيـــة أن يكـــون/ تكـــون قـــد اقتـــرف/ ت بالفعـــل جرائـــم

مشابهة في الماضي.

10) وجود سوابق محتملة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن التقاط صور فوتوغرافية لمسرح الجريمة ومحاضر التشريح والفحوصات المعملية والتقارير الشرطية تعد من وسائل المساعدة التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل إنشاء ملف للجاني(15).

لقد أصبحت مجلة "نشرة تطبيق القانون التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي"

("FBI Law Enforcement Bulletin") تصدر في عام 1980 بصورةٍ كلية في ظل هذا الشكل الجديد لإجراء التحقيقات. وتبع صدور المقال الرئيس لـ"ريتشارد أولت" و"جيمس ريس" مقالات عديدة، تم فيها تطبيق التصور المعرفي المبدئي لملف الجاني بشكلٍ اختص بالجرائم الجنسية وجرائم إشعال الحرائق عمدًا. وعلاوةً على ذلك بدأ موظفو "وحدة العلوم السلوكية" في إجراء سلسلة من المقابلات النفسية -والتي خُصِّص لها وقت تجاوز سنوات- مع مرتكبي جرائم قتل جماعية ممن تمت إدانتهم. وبالرغم من هذا كله فقد كان السعي لوضع آثار نفسية فردية عند ارتكاب سلسلة من الجرائم يرتبط ارتباطًا ضروريًّا بالمرض

15- Ault /Reese (1980), S. 24;

ويمكن الاطلاع على القائمة الكاملة لدى Vorpgel (1982), S. 159

النفسـي الـذي يعانـي منـه الجانـي. كمـا كتـب "لويـس جولـد" بالفعـل عام 1962 قائلًا: "يسـود بصفةٍ عامة الاعتقاد بأن الشـخص، الذي يشـعل الحرائق مضمـرًا النيـة الكاملـة لذلـك، يرتكـب جريمـة شـاذة. [...] تكمـن جـذور هـذا السـلوك المنافـي للطبيعـة بعمـق فـي شـخصية الجانـي وترجـع إلـى اضطرابـاتٍ جنسـية". كمـا أكـد "أولت" و"ريـس" في مقالهما أنـه "من المهم لأقصـى درجـة أن تقتصـر هـذه التقنية فـي التحقيق علـى الجرائـم العظمى التـي تفتقـر فـي بادئ الأمـر لأي دافع معـروف لارتكابها وأن تثبت الإشـارات بشـكلٍ كافٍ أننـا بصـدد جرائم ارتكبها شـخص مريـض نفسـيًّا"[16]. أي ألا يتم إنشـاء "ملفـات" إلا عندمـا يكـون مغـزى الجريمـة غيـر واضـح؛ فيصبـح مـن شـأن "الملفـات" أن تُظهِـر الأمـور المنطقيـة والقابلـة للقيـاس الموجودة في أماكـن ارتـكاب الجريمـة التي يسـودها الفوضـى؛ حيث يكـون الغضب الذي أذهـب بعقـل الجانـي قـد بدَّل هـذه الأمـور المنطقيـة والقابلـة للقياس في بـادئ الأمـر. "لا يتعين أن تنشـأ الملفات الشـخصية النفسـية (حسـبما يُطلق عليهـا بشـكلٍ لا لبـس فيـه فـي سـياق مرتكبـي الجرائم المتسلسـلة لإشـعال الحرائـق عمـدًا) سـوى فـي الحـالات التـي يثبـت فيهـا أن الجانـي المجهـول لديـه شـكل مـن أشـكال الاضطـراب الذهنـي أو العاطفـي أو السـلوكي. أمـا إذا لـم يتـأتَّ اكتشـاف وجـود خلفيـة إصابـة مرتكـب الجريمـة بمـرض

16- Gold (1962), S. 404 und 416, Ault /Reese /1980). S. 25.

نفسي، فإنه لا يتم إنشاء ملف للجاني"[17].

إن الخلـل العقلـي للمجرميـن يُمثِّـل الشـرط الوحيـد الـذي يتيـح لـدى مكتـب التحقيقـات الفيدرالـي الأمريكـي إنشـاء ملـف للجانـي. لقـد ارتفـع سـريعًا عـدد الأعمـال الإجرامية التـي طُبقِّت عليها طريقـة التحقيق الجديدة فـي الولايـات المتحدة الأمريكية (ففي عام 1979 كان عددها خمس وسـتون حالـة فقـط وفي عـام 1980 تجـاوز عددها مئتي حالـة). أما فـي ألمانيا فقد صـدر التكليـف بإنشـاء أول ملف لأحـد الجناة للمرة الأولى عـام 1984 وذلك بعـد طلـب تـم تقديمـه إلى مكتـب التحقيقـات الفيدرالـي الأمريكـي.[18] إلا أن هـذا الإجـراء لـم يحـظَ باهتمـامٍ عريـض مـن الـرأي العـام إلا مـع مطلـع التسـعينيات وذلك في سـياق عرض الفيلم الأمريكي "صمت الحملان" والذي حقـق نجاحًـا كبيـرًا. في هذا الفيلـم تثبت إحدى عميـلات مكتب التحقيقات الفيدرالـي الأمريكـي –والتي تلقت تدريبًا نفسـيًّا– إدانة أحـد مرتكبي جرائم القتل المتسلسل. ونتيجةً لذلك الفيلم أصبح العمل الذي يؤديه "المُنمِّطون" بمثابة ظاهرة من ظواهر الثقافة الشـعبوية. لقد نشـر بعض من أفراد الرعيل

17- Rider (1980), Juli, S.7.

18- للاطلاع على عدد الجرائم التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية انظر:
Vorpagel (1982), S. 159.
وكذلك للاطلاع على أول ملف شخصي يتم إنشائؤه لأحد المجرمين في ألمانيا انظر:
.Musolff (2006), S.12

الأول لـ"وحدة العلوم السلوكية" التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي؛ ومنهم على سبيل المثال "روبرت ريسلر" و"جون دوجلاس" مذكراتٍ كانت محط الأنظار. وفضلًا عن ذلك، فإن هذه المهنة تحتل مكانًا محوريًّا منذ أواخر التسعينيات في الكثير من المسلسلات البوليسية المذاعة تلفزيونيًّا مثل "عقول إجرامية" و"الألفية" و"مطلق الألعاب النارية" و"المُنمِّط".

تتضح من العرض السريع لتاريخ المفهوم "Profil" على الفور حقيقة أن هذا الشكل قد وصف طوال فترة تقل عن القرن الأفراد المتواجدين في موقف اختبار أو بحث جنائي. ولو تتبعنا النتيجة الجوهرية التي توصل لها "ميشيل فوكو" -ومفادها بأن معرفة الناس عن الأفراد المهمشين تطورت إلى حدٍّ بعيد منذ أواخر القرن الثامن عشر؛ حيث دفع سعي الطب النفسي لفهم المرضى وكذلك التعامل الجنائي مع المجرمين بقوة الأسئلة عن كيفية الكشف عن هويتهم وإجراء قياس أجسامهم- فإن هذا التأثير يزداد تركيزًا في الشكل المعرفي "للملف". حيث يدور موضوع الملف حول شخص يخضع للتقييم أو شخص يتعرَّض للتعقب ومن ينشئ الملف هم ممثلون لسلطة الدولة أو الشرطة أو السلطة العلمية. وفي "الملفات"، التي تم إعدادها في القرن العشرين، أصبحت علاقات السلطة المؤسسية متحققة بدرجةٍ مميزة من الوضوح. ويمكن بوضوح سرد تاريخ نجاح الطب النفسي والبحث الجنائي بهذا المعنى وذلك على مدار نشأة

وتكوين تقنيات تسجيلهما وتدوينهما[19].

وقـد ترسَّـخ هـذه الحالة –أيضًـا- في السـياقات الدلالية الأقـدم للمفهوم. حيـث كان معنـى مفهـوم "Profil" الـوارد فـي تاريـخ الفـن، بوصفـه يعنـي منظـرًا جانبيًّـا للوجـه، دائمًـا مـا يُسـتخدم منـذ النصـف الثاني للقـرن الثامن عشـر، عندمـا تكـون بعـض التأثيـرات المعرفيـة المنهجيـة والتصنيفيـة المحـددة مرتبطـة بعـرض الوجـه. فقـد حـوَّل "يوهـان كاسـبر لافاتـر" صورة خيـال الظـل أي خيـال الظـل فـي المنظـر الجانبـي للوجـه مـن عمـل فنـي، يـؤدى بعنايـة، إلـى شـفرةٍ كتابيـة، تُمكِّـن مـن يقرأهـا مـن الولـوج إلـى مكنـون نفـس كل إنسـان. لـم يـدع "لافاتـر" فـي بحثـه الموجـز والصـادر عـام 1772 تحـت عنـوان "عـن علـم الفراسـة" مجـالًا للشـك فـي أن الصـور الموضوعـة علـى اللوحـات المعدنيـة أو الرسـومات الخاصـة بالأشـخاص الذيـن يتـم تأملهـم يجـب أن تُظهِـر المنظـر الجانبـي للوجـه. وللبرهنـة علـى هـذه النظريـة قـارن "لافاتـر" بيـن رسـمٍ يتمتـع بأهميـة فـي سـياق علـم الفراسـة ويظهـر بـه جانـب وجـه الفيلسـوف "مونتسـكيو" وبورتريـه

19- للاطلاع على تاريخ جمع المعلومات عن المرضى النفسيين وعن الانتقال من مرحلة التوثيق المرتبط بتواجد المريض في غرفة الكشف إلى هذا الشكل المعرفي الذي يتمركز حول المريض وذلك على مدار القرن التاسع عشر انظر: Ipektschi (1985) وللاطلاع على معلومات عن المستشفى العام في هامبورج انظر: Bernet (2009) وللاطلاع على مستشفى زيورخ انظر: Burghölzli وكذلك Hess 2010), S. 310) و Ledebur 2011), S. 103) الذي يتحدث عن مستشفى شاريتيه برلين.

للفيلسوف له مدلول أقل قوة، واكتشف "لافاتر" أن في البورتريه "تقدم لنا نظرة الرسام وبالتالي نشاط العضلات [...] في أغلبها شيئًا متكلفًا ومتصلبًا ومتوترًا بدلًا من أن تعرض لنا الوضع الطبيعي". يرى "لافاتر" أن عرض المقطع الجانبي للوجه يتغلب على هذا العيب في تصوير الوجه من الأمام؛ لأن كل من يسمح بتصويره على هذا النحو "يهدف إلى حدٍّ كبير في ألا تتحكم فيه عين الرسام وإنما يهدف إلى أن ينظر بشكلٍ أكثر طبيعية وحرية"[20]. أي أن الصورة المأخوذة للمقطع الجانبي للوجه تتيح وجود موضوعية أكبر وبالتالي إمكانية أفضل للتأويل. وبعد ذلك بنحو مئة عام برهن العالم المتخصص في مجال البحث الجنائي والمنتمي لمدينة باريس "ألفونس بيرتيون" على أمرٍ مشابه تمامًا؛ عندما قدَّم نظامه الجديد لتحديد هوية الجناة المعتادين على الإجرام تحت اسم "الأنثروبومترية" وهو عبارة عن سلسلة من قياسات الجسم يتم إكمالها بصورة فوتوغرافية ملتقطة لجانب وجوه المذنبين. حيث كتب "بيرتيون" قائلًا: "إن المنظر الجانبي للوجه يعد بما فيه من خطوطٍ دقيقة مناسبًا لعرض السمات الفردية المحددة لكل وجه على درجةٍ أكبر من الصورة الملتقطة للوجه من الأمام"[21]. ربما يعزي سبب هذا في المقام الأول إلى إمكانية تحديد الهوية بشكلٍ ممتاز عن طريق

20-Lavater (1772 /1991), S. 50.

21- Bertillon (1985), S.14.

الأذن التـي يختلـف شـكلها عنـد كل إنسـان ولا يمكـن تغييـر شـكلها أثنـاء التقـاط الصـورة الفوتوغرافيـة عـن طريق التلاعـب بتعبيرات الوجـه على أي نحـوٍ يريده الشـخص. توضح شـروحات "لافاتر" و"بيرتيـون" أنه من المفترض أن يكـون "للصـورة الملتقطة لجانـب الوجه" -بوصفها مقطعًـا جانبيًّا للوجه- تأثيـرات معرفيـة عـن الأفـراد الخاضعيـن للتحليـل والتصنيـف وتشـبه بذلـك الوثيقـة المكتوبـة علـى هيئـة جـدول وتحمل الاسـم ذاته.[22]

الانتصارات المتواصلة للملفات الشخصية التي يُنشئها الأفراد لأنفسهم :

تواكــب مــع تأســس الثقافــة الرقميــة فــي ربــع القــرن الأخيــر إعــادة تعريــف وتوســيع نطــاق اســتخدام شــكل "الملــف الشــخصي" بصــورةٍ هائلــة. فبينمــا كان الأمــر يتعلــق -بــدءًا مــن اختبــار قيــاس مســتويات الــذكاء الــذي وضعــه "روســوليمو" وحتــى الطــرق المنهجيــة للبحــث الجنائــي التــي يتبعهــا مكتــب التحقيقــات الفيدرالــي الأمريكــي-

22- ربما يكون من الممكن هنا حتى إضافة مستوى ثالث لمعنى المفهوم وهو المستوى الذي ظهر لأول مرة قرابة عام 1880 في إطار الدراجات الجانبي والذي حصلت شركتا "دونلوب" أو "بالمر" على براءة اختراعه. يمكن في قصة "مغامرة مدرسة الدير" للكاتب "دونان دويل" والتي كتبها في إطار سلسلة قصص "شرلوك هولمز" أن نرى آثار الدراجة في محيط مسرح الجريمة وهي الآثار التي قادت المحقق السري إلى معرفة الطرق الصحيحة عند البحث عن الجاني؛ حيث قال "شرلوك هولمز" في بداية التحقيق: "لقد رأيت اثنين وأربعين أثرًا مختلفًا لإطارات الدراجة" (Doyle [1904L1985], S. 142).

بـإدراك سـلوك منحـرف، فـإن مهمة الملفـات الشـخصية في يومنا هـذا غالبًا ما تكمـن فـي إبـراز أن صاحـب الملـف الشـخصي يتمتـع بجاذبيـةٍ خاصـة وكفـاءة ويقـدم مشـاركة اجتماعية. فحسـبما أوضـح النقاش، الـذي دار على وسـائل التواصـل حـول سـلوك مرتكبـي جرائـم إطـلاق النار بشـكلٍ عشـوائي عـام 2012 ، فـإن "الملـف الشـخصي" يعنـي فـي الوقـت الحاضـر أن صاحبه يتمتـع بوضـع طبيعـي أكثـر ممـا يعبـر عـن ذوي الحـالات المرضيـة. كيـف وصـل الأمـر إلـى هـذا التحـول؟ فـي أي سـياقاتٍ تحـوَّل وصـف الملامـح الظاهريـة للشـخص بطريقـة إلزامية إلـى وصف ملامح الشـخص يتم إعداده عـن طيـب خاطر؟

لقـد تغيَّـرت الشـروط التقنيـة لتشـكيل الـرأي العـام بشـكلٍ أساسـي فـي منتصـف التسـعينيات، أي عندمـا تحـوَّل الربط بيـن أجهـزة الكمبيوتر وعملية التفاعـل بينهـا –والـذي ظـل طـوال ربـع قـرن مقصـورًا علـى دائـرة محـدودة مـن الأفـراد التابعيـن للجيـش الأمريكـي وقراصنـة الكمبيوتـر– إلى شـكل من أشـكال التواصـل يشـمل العالـم بأسـره ويحمـل اسـم شـبكة الإنترنـت. حيـث أتـاح النمـو المتسـارع جـدًّا للشـبكة العنكبوتيـة العالميـة وكذلـك متصفحات الإنترنـت ذات الطابـع التجـاري مثـل متصفـح "نتسـكيب" "Netscape" لـكل مسـتخدم إمكانيـة الإعـلان عـن شـخصه دون حاجـة لوجـود وسـائل الإنتـاج باهظـة التكاليـف والخاصـة بوسـائل الإعـلام أيضًـا. أي أن "التواصـل" علـى شـبكة الإنترنـت لا يعنـي منـذ البدايـة إسـراع عمليـة التواصـل بيـن

فئة من المتلقين يعرفون بعضهم بعضًا بالفعل (التحول من إرسال خطاب أو فاكس إلى إرسال رسالة بريد إلكتروني) فحسب، بل وأيضًا الإمكانية الجديدة لأن يتراسل أشخاص معًا، لم يسبق لهم معرفة بعضهم ببعض، وذلك على هيئة التواصل عبر المنتديات والمنصات الإلكترونية في شبكة الإنترنت.

لقد ظهرت في هذا المجال الجديد للرأي العام الرقمي –أيضًا- الآثار الأولى للملفات الشخصية التي ينشئها الأفراد لأنفسهم. ففي مستهل عام 1995 شرعت صفحة match.com –والتي يستخدمها في الوقت الحاضر ما يقل قليلًا عن ثلاثين مليون عضوًا مسجلًا فيها– نشاطها وذلك بوصفها أول منصة على الإطلاق للبحث عن شريك على شبكة الإنترنت. ووردت في النسخة الأقدم من الموقع الإلكتروني الدعوة التالية: "فلتصبح عضوًا بإنشاء ملف شخصي خاص بك". كما ورد في أحد إعلانات الشركة عام 1996: "إن match.com تمتلئ بملفات أخاذة للأعضاء"[23]. لقد

23- انظر أيضًا صورة أول صفحة لـ match.com والصادرة عام 1995وذلك على موقع:

dailymail.co.uk /sciencetech /article-3324447 /I-trying-right-person-marry-Match-com-founder-reveals-inspirationonline-dating-site-goes-public.htmil

وكذلك الإعلان الترويجي السابق للشركة على:

Kremen.com /wp-content /uploads /files /019_WEBSIGHT_0996_MATCH_AD-PDF.

انظر أيضًا أحد أوائل تقارير الخبرة عن الصفحة والذي كتبه(Crawford 1996)؛ حيث ورد في التقرير: "يمكن للإنسان أن ينشئ ملفه الشخصي ببساطة وينتظر من ثمَّ خطابات حب إلكترونية".

بحثت عالمة الاجتماع "إيفا إيلوز" طريقة البحث عن شريك عن طريق شبكة الإنترنت تطبيقًا على match.com وعلى منصات أخرى مشابهة في السنوات الماضية وشملت تحليلاتها، التي حظيت بمعدلات قراءة مرتفعة، أيضًا "الملف الشخصي" بوصفه شكلًا لتقديم صورة للذات. إن كل مستخدم ومستخدمة لهذه المنصات يجب عليه عند قيامه بالتسجيل الإجابة على عشرات الأسئلة المتعلقة بمظهره الخارجي واهتماماته ونمط معيشته والقيم التي يؤمن بها وذلك في سبيل إمداد الأعضاء الآخرين بقدرٍ كافٍ من المعلومات وكذلك إمداد علماء النفس التابعين لـ match.com بمادة بحثية قابلة للتنميط. فالأمل في إيجاد نتائج البحث "الرئيسة" لمجموعة كبيرة من الشركاء المحتملين يضاهي في أهميته وجود توافق بين ملفين شخصيين. أولت "إيفا إيلوز" في دراساتها اهتمامًا في المقام الأول للتناقض الذي يحدث في المنصات بين الشعور بالألفة وعلانية السوق وبين تعرية الأفراد والإطراء عليهم على نحوٍ يماثل ما يحدث عند ترويج السلع[24]. ولذلك فإن أبحاثها الاستقصائية، التي ترجع إلى نهاية الألفية، تتمتع بأهمية في تأصيل مفهوم "ملف شخصي" ويرجع سبب هذا فقط إلى أنها جعلت من الممكن إدراك كيف تأسس هذا الشكل في البحث عن شريك على شبكة الإنترنت بالفعل بوصفه شكلًا محوريًا من أشكال تمثيل الذات. فقبل ذلك بسنواتٍ قليلة،

24- Illouz (2006), S. 115-159 und Illouz (2011), S. 357-416.

لـم يكـن "الملـف الشـخصي" معروفًـا سـوى بوصفـه أداة للسـيطرة علـى المذنبيـن. غيـر أن "الملـف الشـخصي" أظهـر فـي مواقع البحث عن شـريك عبـر الإنترنـت جانبـه المثمـر التـام بوصفـه مجـالًا لوصـف الـذات.

وفـي ينايـر عـام 1997، أي بعد أقل من عامين مـن دخول منصة match.com إلـى السـوق، قـدم رجـل القانـون "أنـدرو وينريتـش" فـي "مانهاتـن" فكرتـه لإنشـاء موقـع إلكترونـي تحـت عنـوان six degrees.com. لـم يكـن هـذا الموقـع يهـدف إلـى التوفيق بين عشـاق محتمليـن، بل إلى بناء شـبكة مـن الأصدقـاء والمعارف. وكان موقـع "يوتيوب" يتضمن مقطـع فيديو خاص بذلـك العـرض التقديمـي. كان صـورة مقطـع الفيديو هـذا غيـر واضحة، كما تخللتـه مشـاكل فـي الصـوت. وقـد حقـق مقطـع الفيديـو هـذا حتـى ربيـع عـام 2017 عـددًا متواضعًـا للمشـاهدات بلغ إحدى وثلاثين مشـاهدة. وذلك بصـرف النظـر عـن أنـه يمكـن أن يكون هنـاك بعض الحق فـي وصف خطبة "أندرو وينريتش" –والتي اسـتغرقت خمس عشـرة دقيقة– بأنها لحظة مولد مواقـع التواصـل الاجتماعـي بمفهومها المسـتخدم اليوم. كان موقع "سـيكس ديجريـز" "Sixdegrees" –والـذي امتـد نشـاطه مـن عـام 1997 وحتـى عـام 2001– عبـارة عـن شـبكة علـى الإنترنـت، سـجَّلت بيـن الحين والآخـر وجود مئـة موظـف وثلاثـة مليـون ونصـف مسـتخدم. لكـن هـذه الشـبكة لـم تُثِـر اهتمامًـا هائـلًا بسـبب الاتصـال البطيء وغيـر المتحرك بشـبكة الإنترنت في

نهاية التسعينيات واقتصار البيانات المتوافرة على النصوص وذلك على نحوٍ مختلف لمنصتي "فريندستير" "Friendster" و"ماي سبيس" "MySpace" اللتين تم تأسيسهما عامي 2002 و2003؛ حيث أتيح لمستخدميهما بشكلٍ متزايد الاتصال بالإنترنت ذي النطاق العريض وكذلك الكاميرات الرقمية والتي بدأ بها تاريخ نجاح وسائل التواصل الاجتماعي، الذي شمل العالم بأسره.

لقد أثبت "أندرو وينريتش" في بداية خطبته أن "إمكانيات الترابط والتواصل ظلت في الأعوام العشرة أو الخمسين أو المئة عام الأخيرة كما هي. وهذا ما نسعى اليوم إلى تغييره. نريد أن نكتب التاريخ وأن نعرض لكم ماذا يعني منذ الآن فصاعدًا إنشاء شبكة للتواصل"[25]. تلا هذا الإعلان الواثق عرض لموقع "سيكس ديجريز" "Sixdegrees" والذي ضم في حقيقة الأمر جميع العناصر الأساسية لوسائل التواصل الاجتماعية التي ظهرت لاحقًا والتي غيرت مجرى التاريخ. كان في بؤرة هذه العناصر "الملف الشخصي" للمستخدمين. ولو أثار التفكير في هذا الشكل اليوم تتداعى أفكار عن مليارات الأوصاف الشخصية الموجودة على حسابات "فيس بوك" "Facebook" و"لينكد إن" "LinkedIn" و"إنستجرام" "Instagram"، فإن فكرة

25- Youtube.com /watch?v=MzE2cOqUFWM (2.20 بدءًا من الدقيقة)

موقع "سيكس ديجريز" "Sixdegrees" تعد بمثابة نموذج أولي في هذا الصدد.[26] لقد تمت تهيئة هذا النموذج بدقة في مذكرة براءة الاختراع التي حملت عنوان "طريقة وتجهيزات إنشاء قاعدة البيانات والنظام الخاصين بالشبكة". وقد قدمها "أندرو وينريتش" وموظفوه بالتزامن مع إطلاق موقع "سيكس ديجريز" "Sixdegrees". يتأتى معرفة الأهمية، التي حظيت بها فئة "ملف شخصي" هنا من أن برنامج الكمبيوتر الحاصل على براءة الاختراع جعل قيام أي مستخدم جديد بالتسجيل -حسبما يًقال- متوقفًا على ملء "بعض العناصر المنصوص عليها" في الملف الشخصي. تشمل هذه العناصر نقاطًا عديدة من بينها "محل السكن والوظيفة والجنس". ولا يمكن تشغيل وظائف الشبكة وإضافة "أصدقاء" أو البحث عن أشخاص ذوي صفات محددة دون إكمال ملء هذه العناصر. وفي موضع آخر من مذكرة براءة الاختراع، أي في فقرة "تعديل الملف الشخصي"، يتم التأكيد مرةً أخرى على أن أي عضوٍ جديد في الشبكة "عليه أن يودع معلومات مختلفة في الملف الشخصي ومنها على

26- لم تكن التجمعات الموجودة على شبكة الإنترنت والتي اقتصر عدد المشتركين فيها على مئات قليلة قد عرفت شكل الملف الشخصي بعد. ومن هذه التجمعات "Whole Earth ‘Lectronic Link" (WELL) الموجود منذ عام 1985 والذي تم تأسيسه في كاليفورنيا. كان المشتركون في هذا التجمع يختارون لأنفسهم أسماء تعريفية وكلمات سر ويستطيعون أن يتصفحوا الصفحات المرتبة وفقًا للموضوعات وأن يضعوا تعليقات (انظر: Rheingold [1993 /2000] و 174-Turner [2006], S. 141 للاطلاع على طريقة عمل WELL).

سـبيل المثال عنوان (عناوين) البريد الإلكتروني واسـم العائلة والاسـم الأول والاسـم المسـتعار والوظيفـة ومحـل السـكن والهوايـات والقـدرات المميـزة والكفـاءات التخصصيـة وخلافـه". ترتبط وفـرة المعلومات عن كل مسـتخدم بوجـود صلـة بنمـوذج العمـل المرغـوب فيـه والخـاص بموقـع sixdegrees.com. يتمثـل هـذا النمـوذج فـي "تقديـم خدمـة بريـد إلكترونـي مجانيـة للأعضـاء فـي مقابـل إنشـائهم لملـف شـخصي يصـف ميولهـم الشـخصية". وتعيـن أن يـرى كل مسـتخدم لموقـع sixdegrees.com علـى صفحتـه إعلانـات مشـخصنة ومصممـة بشـكل فـردي.[27]

إن مـا كان يُطلـق عليـه في هذا البرنامج -الذي تأسـس عـام 1997 ويعد أساسًـا تعـود إليـه وسـائل التواصـل الاجتماعـي- اسـم "الملـف الشـخصي" كان يعـد بمثابـة عملـة نقديـة. تتيـح لمـن يديـر الملـف الشـخصي فـي المسـتقبل أن يمـارس تجـارة تُـدر ربحًـا. ولـذا لـم يكـن مـن الممكـن تقديم الخدمـة مجانيًّـا سـوى؛ لأن كل مسـتخدم يدفـع مقابـل تلـك الخدمـة عـن طريـق نبـذة يؤلفهـا بنفسـه وتحمـل طابع السـيرة الذاتيـة وتتيـح للمعلنين المحتمليـن أن يعرفـوا مـا لـم يكـن معلومًـا لهـم حتـى ذلـك الوقـت عـن الظـروف المعيشـية لمـن يرسـلون إليهـم إعلاناتهـم. ولذلـك تعـد "الملفـات الشـخصية" فـي تاريـخ وسـائل التواصل الاجتماعـي منذ البداية ذات شـقين: فهـي تعـد بالنسـبة لأعضـاء وسـائل التواصـل الاجتماعـي شـكلًا مـن أشـكال

27- Weinreich (1997), الفقرة العاشرة والفقرة الثامنة عشرة والفقرة الأولى

عـرض صـورة للـذات قابـلًا للتسـجيل وبالنسـبة للشـركة صاحبـة موقـع التواصـل الاجتماعـي مسـتودعًا يضـم وفـرةً مـن البيانـات عـن أشـخاص حقيقيـن ومسـتهلكين حقيقيـن ويدر ربحًـا. لقد ظهر مدى ارتفـاع التوقعات الاقتصاديـة المعلقـة علـى ذلـك المسـتودع بوضـوح عندمـا عـرض المالكون الجـدد للشـركة مذكـرة بـراءة الاختـراع -التـي باعهـا "أنـدرو وينريتـش" مـع حصتـه فـي الشـركة عـام -1999 للبيـع وذلـك بعـد انتهـاء فترة نشـاط موقع "سـيكس ديجريـز" "Sixdegrees" . وفـي المـزاد العلنـي المقام في سـبتمبر عـام 2003 تقـدم بعض الـرواد في مجال وسـائل التواصـل الاجتماعي وبعض الشـركات القابضـة لشـراء البرنامـج. وعندما اشـتراه "ريد هوفمان" المشـارك فـي ملكيـة إحـدى الشـبكات –التـي كانـت قـد تأسسـت قبـل ذلـك بأشـهرٍ قليلـة وحملـت اسـم "لينكـد إن" "LinkedIn" فـي مقابـل سـبعمئة ألـف دولار– وصـف مذكـرة بـراءة الاختـراع بأنهـا "صيغـة غيـرت مجـرى الأمـور فـي مجـال شـبكات التواصـل الاجتماعـي"[28] وأنهـا زودت شـركته الخاصـة بالخطـوط العريضـة لتقويتهـا مـن الناحيـة الاقتصاديـة والمعلوماتيـة.

لقـــد أطلـــق "أنـــدرو وينريتـــش" اســـم "ســـيكس ديجريـــز" "Sixdegrees" علـــى المنصـــة التـــي رأي أنهـــا ســـتحدث ثـــورة فـــي إمكانيـات الترابـط والتواصـل الاجتماعـي علـى شـبكة الإنترنـت والتـي

28- اقتباس لدى (Riordan 2003). لم يسبق أن تنازل "ريد هوفمان" –وهو ما زال اليوم رئيس شركة "لينكد إن"– أبدًا عن هذه الصيغة بما فيها من تحليل جوهري لـ"الملف الشخصي".

أقر متنبئًا لها أنها سيكون لها المقدرة على "استيعاب مئات الآلاف، إن لم يكن ملايين الأفراد"[29]. وفي عام 1997 أصبح لهذا المفهوم وقعٌ مألوف؛ لأنه ربط تجربة الفكرة مع الممارسة العملية حديثة العهد لشبكات التواصل الاجتماعي. وهي التجربة التي حظيت في السنوات السابقة على ذلك بشعبية كبيرة للغاية في وسائل الإعلام القديمة والمتمثلة في المسرح والسينما. ففي عام 1990 عُرِضت للمرة الأولى مسرحية تحمل اسم "ست درجات من الانفصال" وذلك على أحد مسارح القبو في شارع "برودواي". حققت هذه المسرحية في السنوات التالية نجاحًا، ثبت أنه أحد النجاحات المسرحية الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أصبحت النسخة السينمائية والتي حملت الاسم ذاته محط الأنظار في عام 1993 وشمل ذلك -أيضًا- اهتمام مانحي جائزة الأوسكار بها. أي أن "أندرو وينريتش" أشار بذلك المفهوم إلى الفرضية، التي كانت موجودة في منتصف التسعينيات، ومفادها أن أي شخصين على سطح الأرض لا يفصل بين معرفة بعضهما لبعض سوى ست مسافات على الأكثر تربط بينهما[30]. أجريت هذه التجربة في المسرحية وكذلك في سيناريو الفيلم، اللذين ألفهما "جون جويير"، حتى

29- Weinrich (1997) الفقرة الخامسة

30- تمت صياغة هذا التصور للمرة الأولى في حكاية "حلقات السلسلة" الصادرة عام 1929 والتي ألفها الأديب المجري "فريجي كارينثي".

نهايتها ودونما توقف تطبيقًا على اثنين من الأزواج من نيويورك. حيث أصبح هؤلاء الأزواج ضحايا لشخص محتال. كان المحتال شابًّا، انتحل صفة ابن الممثل "سيدني بواتييه" وادعى أنه زميل لأبنائهم في جامعة هارفارد. ومنذ تلك النقطة، يدور العمل "ست درجات من الانفصال" حول محاولة هؤلاء الأزواج للتحري حول هوية هذا الشخص المجهول وعلاقته الغامضة بأبنائهم الذين لم يسبق لهم أن سمعوا عنه قط. تبدو المسرحية من منظور حياتنا اليوم في المقام الأول بمثابة دراسة تسعى لإنتاج المعرفة في ظل ظروف ما قبل العصر الرقمي؛ فقد اضطرت مجموعة أفراد الأسرتين المخدوعتين إلى أن تلجأ طويلًا وبشكلٍ متعب إلى وسائل الإعلام الاعتيادية لكي تستكشف ما كانت محركات البحث ووسائل التواصل الاجتماعي في الوقت الحاضر ستقدمه بعد نقرات قليلة عليها (هل لدى سيدني بواتييه ابن؟ أي دوائر من الأصدقاء تحيط بزملاء الأبناء؟). حيث استعانت الأسرتان بالسيرة الذاتية لـ"سيدني بواتييه" - والتي حصلتا عليها من مكتبة لبيع الكتب المستعملة- وبالكتب السنوية لطلاب هارفارد وختامًا بجريدة "نيويورك تايمز" التي وضع فيها صحفي صديق لهما مقالًا عن سلوك الشخص المحتال.

أي أن "وينريتش" كان دقيقًا في اختياره لمفهوم "سيكس ديجريز" ليطلقه على أول موقع لإقامة علاقات صداقة على شبكات التواصل. فمن الممكن تطويع حالة عدم التوقع التي

تمـر بهـا العلاقـات الاجتماعية غير الملموسـة بصورة متزايـدة -والتي تحكي عنهـا المسـرحية التـي تحمـل هـذا الاسـم- وجعلهـا علـى الأقـل تصـل إلـى الدرجـة الثانيـة مـن درجـات التواصـل واسـتخدامها بذلـك علـى نحـوٍ مثمـر وذلـك عبـر تقنيـة التواصـل الحديثـة. ويعتبـر الملف الشـخصي هو الشـكل الـذي ينظـم هـذا الترويـض لعلاقـات التعـارف المتشـابكة والمشوشـة هذه؛ فهـو يعـد بمثابـة وصـف تفصيلـي، يجعـل مـن الممكـن بسـرعة وبصـورة موثـوق فيهـا تحديـد هويـة كل فـرد بمـن فيهـم الأفـراد المنتميـن لدائـرة المعـارف. وفـي عصـر التواصـل الاجتماعـي -وهـذه هـي الرسـالة الضمنيـة لهـذا الاسـم- ربمـا كانـت سـتثبت إدانة أحـد المحتاليـن مثل الابـن المزعوم لـ"سـيدني بواتييـه" فـي أقـل مـن الثانيـة. وهكـذا فـإن الملفـات الشـخصية تحتفـظ بوظيفتهـا المفيـدة مـن الناحية الشـرطية وذلـك -أيضًا- فـي أوقات وصـف الـذات بصـورة إيجابية. لقد بدأت "سـت درجات مـن الانفصال" بين أي شـخصين عشـوائيين -قبـل مرحلـة تحـول العلاقـات الاجتماعيـة للصـورة الرقميـة والتـي أصبحـت دافعًـا لتاريـخ مظلـم مـن الخـداع- تصبـح شـفافة وقابلة للاسـتيعاب.

الملف الشخصي في ثقافة التقدم للوظائف:

بينمـا ظهـر الملـف الشـخصي، الـذي ينشـئه الفـرد بنفسـه، فـي مواقـع البحـث عـن شـريك علـى شـبكة الإنترنـت ومواقـع التواصـل الاجتماعـي للمـرة الأولـى فـي النصـف الثانـي مـن التسـعينيات، فـإن

هـذا الشـكل قـد ظهـر بعـد ذلـك بوقـتٍ قصيـر فـي سـياق لـم يكـن مرتبطًا بالوسـيط الإعلامـي الجديد المعروف باسـم شـبكة الإنترنـت. فقد حظي هذا المفهـوم فـي غضـون سـنين قليلـة بشـعبية ضخمـة فـي المراجـع الخاصـة بالتقـدم للوظائـف، والتي حققـت نجاحًا منذ بروز "ثقافـة التقدم للوظائف" المميـزة وذلـك عن طريق متطلبـات معيارية وعمليات ووثائـق. ففي ألمانيا تبـوأت كتيبـات "كريسـتيان بوتييـر" و"أوفـه شـنيردا" مكانـة ضخمـة فـي الأدب الخـاص بكتيبـات التقـدم للوظائـف منـذ ربـع قرن. وقد دشـن الفريق المكـون مـن هذيـن المؤلفيـن حتـى اليـوم إمبراطوريـة، تضـم مـا يزيد على سـتين مرجعًـا مـن نوعيـة تلـك الكتـب. ومـن عناويـن تلـك الكتـب "التمتع بالثقـة فـي مقابـلات التوظيـف" و"النجـاح فـي مراكـز تقييـم الأداء" وكذلـك "المرجـع الكبيـر للتقـدم للوظائف" وهو عنـوان أهم مؤلفاتهمـا والذي أعيد نشـره عـدة مرات.

لقـد لعـب مفهـوم "الملف الشـخصي" في نهايـة التسـعينيات دورًا هامًّا فـي هـذه الكتيبـات الدعائيـة والكتـب. فقـد شـدَّد الكتـاب الاسترشـادي، الـذي ظهـر فـي وقتٍ مبكـر وحمل عنـوان "كتابـة الخطابات والسـير الذاتية لخريجـي الجامعـات"، علـى أن "عدم إنشـاء ملف شـخصي" يعـد أكبر عامل مـن عوامـل رفض طلبـات التوظيـف. وفـي إحـدى فقـرات هـذا الكتـاب، والتـي كان عنوانهـا "قواعـد الإقنـاع"، احتلـت ملحوظـة "ضرورة إنشـاء ملف

شـخصي"[31] محـل الصـدارة. غيـر أن هـذا المفهـوم لـم يكـن بمثابـة كلمـة محوريـة فـي هـذه المطبوعـات الأولـى أو أسـاس لعمليـة التدريـب علـى التقـدم بطلبـات التوظيـف. لقـد تغيـر هـذا الأمـر بعـد التحـول للألفيـة الثالثـة، عندمـا سـاند "كريسـتيان بوتييـر" و"أوفـه شـنيردا" مـا يعـرف باسـم "طريقـة إعـداد الملـف الشـخصي" باعتبارهـا علامـة تجاريـة مسـجلة وأصبحـت جميـع العناويـن الرئيسـة أو الفرعيـة لكتبهمـا الصـادرة منـذ ذلك الحيـن تقريبًـا تتضمـن هـذا المفهـوم.[32] ووفقًـا لـرأي "كريسـتيان بوتييـر" فـإن السـبب فـي التركيـز علـى الملـف الشـخصي يرجـع فـي المقـام الأول إلـى حـدوث تغيـر تقنـي فـي سـوق العمـل فـي مـا يتعلـق بمجـال وسـائل الإعـلام وترسـخ فكـرة تقديـم طلبـات التوظيـف عبـر شـبكة الإنترنـت قرابـة عـام 2000 والتـي ارتبطـت بتنفيـذ معاييـر شـكلية صارمـة وقللـت مسـاحة وضـع عناصـر سـردية فـي خطابـات التوظيـف.[33] ولذلـك فقـد ورد فـي مسـتهل "المرجـع الكبيـر للتقـدم للوظائـف": "لا يتأتـى السـيطرة

31- Püttjer / Schnierda (1999).

32- على سبيل المثال صدرت حتى اليوم العناوين التالية في طبعات مختلفة: "حافظة التقدم للوظائف مصحوبة بملف شخصي من أجل ذوي المناصب القيادية" و"حافظة التقدم للوظائف مصحوبة بملف شخصي من أجل خريجي الجامعات (مصحوبة بتعليقات داخلية)" و"المرجع الكبير للتقدم للوظائف" (به طريقة "بوتيير" و"شنيردا" لإعداد ملف شخصي)" و"عشرون طلب توظيف مثالي مصحوبًا بملف شخصي" و"حافظة التقدم للوظائف مصحوبة بملف شخصي من أجل من يتقدمون للترقية ومن يغيرون مجال عملهم" و"مقابلة التوظيف: الاستعداد لها –الإقناع فيها – تحقيق النجاح فيها (به طريقة "بوتيير" و"شنيردا" لإعداد ملف شخصي)".

33- حوار هاتفي مع "كريستيان بوتيير" في 26 يناير 2017.

علـى المتطلبـات الحديثـة للتوظيـف إلا بإعـداد ملف شـخصي". يتـم ترتيب جميـع مراحـل البحـث عن فرصة عمـل وفقًا لهـذا التصنيف الرئيـس: "عليك أن تعـرض ملفـك الشـخصي بالفعـل عنـد التواصـل مـع أشـخاص آخرين وأن تجعـل الملـف الشـخصي واضحًـا في حافظـة التقـدم للوظائـف وأن تعرضه فـي مكالمـات هاتفيـة مـع الشـركة، التـي ترغـب بالعمـل لديهـا، وأن تبـرزه بصـورة مضبوطـة فـي مقابلـة التوظيـف. حتـى وإن تلقيـت دعـوة للذهـاب إلـى أحـد مراكـز التقييـم، فإنك لن تحقـق نجاحًا إلا إذا كان ملفك الشـخصي الفـردي واضحًـا"[34]. لقـد ظهـر مفهـوم "الملـف الشـخصي" بتنويعـات لا حصـر لهـا فـي "المرجع الكبيـر للتقدم للوظائـف"، الذي يبلغ عـدد صفحاته 550 صفحـة؛ حيـث ظهـر بوصفـه "ملف شـخصي تأهيلي" و"ملف شـخصي للتوظيـف" و"ملـف شـخصي للمتقدميـن لوظائـف" وفـي تركيبـات اسـمية مشابهة.

لكـن كيـف يجب أن يبـدو "الملف الشـخصي للأفـراد والغنـي بالعبارات ذات المدلـول القـوي" والـذي يـرى "بوتييـر" و"شـنيردا" أنـه يقـود الشـخص الباحـث عـن عمـل "إلـى تحقيـق هدفـه وبالتالـي إلى شـغل المنصـب الذي يسـعى إليـه"؟ هنـاك تناقضـات محـددة تلفـت الأنظـار فـي "نقـاط الارتكاز الرئيسـة" الثلاثـة، التـي تتألـف منهـا طريقـة إعـداد الملف الشـخصي، والتي كان فريق عمل المؤلفين يتطرق إليها في مسـتهل كل عمل مطبوع يؤلفانه.

34- Püttjer / Schnierda (2006), S. 18.

فالنقطـة الثالثـة وهـي نقطـة "المصداقيـة" تحـذر المتقـدم لشـغل وظيفـة كالآتـي: "لا تنحـنِ، إن شـخصيتك مرغـوب بهـا!" غيـر أن هـذه المطالبـة بتقديـم صـورة للـذات بطريقـة صحيحـة قـدر الإمـكان تتعـارض مـع النقطة الأولـى والتـي تطالـب بـ"دقة" خطابـات التقـدم للوظيفة وهـي النقطة التي ورد فيهـا مـا يلـي: "كلمـا تعاطيت فـي طلب التقـدم للوظيفة بصـورة أفضل مـع متطلبـات الوظيفـة، زادت نسـبة نجاحـك. عليـك أن تنحـاز إلـى رؤيـة مسـؤولي قسـم شـؤون العامليـن"[35]. فـي هـذا التحـدي المـزدوج وفي هذا التضـارب بيـن النظـرة الذاتيـة الداخليـة الصحيحـة وبيـن التواؤم مـع منظور رب العمـل يكمـن ربما طابع أساسـي، يميز الملفات الشـخصية التي ينشـئها الأفـراد لأنفسـهم؛ لأن الملـف الشـخصي يعـد شـكلًا، يتعيـن عليـه أن ينتـج أكبـر قـدر ممكـن مـن الفرديـة وأكبر قـدر ممكن مـن التكيف مـع الآخرين.

أي أن الملفــات الشــخصية، التــي ينشــئها الأفــراد لأنفســهم فــي الوقــت الحاضــر، تتقــارب مــع الملفــات الشــخصية التــي يتــم إعدادهــا فــي إطــار علــم علــم النفــس التقنــي وعلــم الأدلــة الجنائيــة؛ وذلــك باعتبـار أن هـدف الوصـف الذاتـي يكمـن فـي التوافـق بطريقـة منسـجمة قــدر الإمــكان مــع الإطــار الــذي يرســمه ربُّ العمــل. إن نظــرة علمــاء علــم النفــس التقنــي وعلــم الأدلــة الجنائيــة، التــي تنصــب مــن الناحيــة

35- Püttjer / Schnierda (2001), S. 85, Püttjer / Schnierda (2006), S. 20.

الخارجيـة علـى التلاميـذ المصابيـن بأمـراضٍ نفسـية أو مرتكبـي الجرائـم المجهوليـن، تنتقـل فـي "الملفـات الشـخصية المعـدة مـن أجـل التوظيـف" لتنصـب علـى أصحـاب هـذه الملفـات الشـخصية. حيـث يجـب أن يكـون أصحـاب هـذه الملفـات الشـخصية قادرين علـى أن ينظروا لأنفسـهم بأعين منزهـة عـن أي غـرض للمؤسسـة التـي يـود العمـل لديهـا فـي المسـتقبل. وانطلاقًـا مـن هـذه الخلفيـة، يصبـح مـن المنطقـي أن يقـدم "بوتييـر" و"شـنيردا" لقرائهمـا النصيحـة التالية عند إعداد الملفات الشـخصية: "عليكم أن تصبحـوا محققيـن سـريين فـي مـا يخـص أموركم الشـخصية وأن تسـلطوا الضـوء علـى ماضيكـم المهنـي!"[36] أي أن كلا المتخصصين فـي مجال التقدم للوظائـف ينبـه إلـى أن التحقيـق الجنائـي قـد يعـد بمثابـة نمـوذج يُحتـذى بـه عنـد تقديـم صـورة للـذات فـي سـوق العمـل. إن الملفـات الشـخصية، التـي يتـم إعدادهـا فـي الوقت الراهـن وتصطبـغ بالطابع الفردي المسـتقل، تندمـج فـي شـكلٍ ملائـم لهـا ومحـدد مسـبقًا. ومـن المحتمل أن يكـون هذا بالضبـط هـو الصـراع الـذي يـؤدي إلـى أن تحتـوى المراجع الخاصـة بطلبات التوظيـف علـى جانـبٍ مجـازي متناقـض بصـورة تلفـت الأنظـار. فـ"بوتييـر" و"شـنيردا" لا يكفـان عـن كتابـة أن الملفـات الشـخصية يجـب أن تكـون "خاضعـة للتدقيـق" أو أن تكون بها "ملامح محددة". غير أن المراجع تشـمل كذلـك توصيـات، مفادهـا أنـه ينبغـي علـى المتقدميـن للوظائف "اسـتكمال

36- Püttjer / Schnierda (2006), S. 25.

ملفاتهـم الشـخصية" أو "إبرازهـا بصـورة مضبوطـة"[37]. وتظهـر فـي فوضـى الصـور اللغويـة تلك المتطلبات المتناقضة لشـكل "الملف الشـخصي". حيث ينبغـي أن يكون الملف الشـخصي غنيًّـا بالملامح المحـددة وأن يكون متأدبًا فـي الوقـت نفسـه وأن يمثـل فـردًا ذا طباع مميـزة ويقدم مواءمـات كاملة.

ثوابت التحكم في الآخرين:

اليـوم، بعـد عشـرين عامًـا مـن ظهـور وسـائل التواصـل الاجتماعـي وتوطيـد دعائـم الأدب الخـاص بكتـب التقـدم للوظائـف بشـكل نهائـي، يعـد الملـف الشـخصي بمثابـة صـورة مـن صـور التعبيـر عـن الـذات التـي لا يختلـف عليهـا أحـد والمنتشـرة فـي كل مـكان. ففـي سـوق العمـل، أدت بعـض شـبكات التواصـل الاجتماعـي مثـل شـبكة "لينكـد إن" وشـبكة "زينـج" "Xing" بمشـتركيها الذيـن يبلـغ عددهـم مئـات الملاييـن إلـى أن يكتمـل حتمًـا تقديـم صـورة للـذات فـي الحيـاة المهنيـة عـن طريـق الملفـات الشـخصية لمسـتخدميها علـى شـبكة الإنترنـت. ففـي أحـد بيئـات العمـل مثـل الجامعـة، على سـبيل المثـال، أصبـح كل موقـع إلكتروني خاص بالموظفيـن وكل طلـب بحثـي وكل وصـف لمشـروع بحثـي متوافـرًا في ظل "الملفـات الشـخصية للباحثيـن" أو "الملفـات الشـخصية لمقدمـي الطلبات"

37- اطلع على سبيل المثال على Püttjer / Schnierda ,(1999) S. 79 وكذلك(2006) Püttjer / Schnierda ,(2006) S. 220 و Püttjer / Schnierda (2006), S. 18.

ذات التأثير القوي قدر الإمكان. وفي النهاية، فإن إنشاء ملفات شخصية في مواقع التواصل الاجتماعي والاعتناء بها أصبح يعد -كما وصفنا- بمثابة مؤشر على التمتع بصحة نفسية. أي أن شكل "الملف الشخصي" يظهر في جميع المجالات المهنية والخاصة بوصفه ممثلًا صادقًا للذات ويمكن استخدامه بصورة مستقلة. كما أصبح الحديث عن "الملفات الشخصية" الخاصة ينطلق على ألسنة الناس دونما ثمَّة تلعثم.

وبالطبع فإن قصة النجاح هذه تحجب حقيقة أن شكل الملف الشخصي لم يتطوَّر ليصبح أداة لوضع معايير محددة ووضع نظام ما في مجال العلوم الإنسانية فحسب وإنما يعد بلا شك حتى يومنا هذا فعالًا -أيضًا- وبصورة متزايدة في إطار وصف الآخرين والتحكم فيهم؛ وذلك بالتوازي مع مسيرة الانتصارات التي حققتها الملفات الشخصية التي ينشئها الأفراد لأنفسهم. هناك اتجاه متعدد الأشكال في الثقافة الرقمية يعارض التأثيرات الجديدة لإضفاء صفة الذاتية على الأشخاص. وهو ذلك الاتجاه الذي يجعل الأفراد بمثابة موضوع لعملية تسجيل البيانات والتي يمكن وضع معايير محددة لها ويمكن جعلها عملية متشابكة. إن مفاهيم مثل "الملف الشخصي للمستخدم" و"ملف الشخصية" و"الملف الشخصي للعميل" لا تعني بيانات المستخدم المتوافرة بصورة نشطة وطواعية فحسب وإنما -أيضًا- بيانات الشركات والمؤسسات أو الوكالات وهي البيانات التي يتم إنشاؤها بصورة

غيـر ملحوظـة إلـى حـدٍّ بعيد **عن طريـق** المسـتخدم. أي أنها ممارسـة لعملية حصـر البيانـات والتـي تعـد أقـدم بكثيـر مـن التاريـخ الحديـث للملفـات الشـخصية التـي ينشـئها الأفـراد لأنفسـهم. [38]

وقـد أصبـح مجـال التسـويق مجـالًا محوريًّـا للقيـام بهـذا الإجـراء فـي السـنوات الخمـس عشـرة الأخيرة. فقبل إنشـاء وسـائل التواصـل الاجتماعي، كان اسـتهداف العمـلاء المحتمليـن معتمـدًا علـى القنـوات أحاديـة الاتجـاه فـي وسـائل الإعـلام. وبذلـك كانـت الإعلانـات والدعايـة التجاريـة فـي الصحـف والإذاعـة والتلفزيـون لهـا الشـكل نفسـه لـدى كل القـراء والمسـتمعين والمشـاهدين. وكان التأثيـر الفعـال لشـعارٍ جديـد أو لحملـة دعائيـة جديـدة يرتبـط بأمـل الشـركات فـي أن العبقريـة الإبداعيـة لوكالـة الإعلانـات سـتثير إعجـاب أكبـر دائـرة ممكنة من المسـتهلكين. لقـد تحولت هـذه الكتلـة المجهولـة لتصبـح عـددًا كبيـرًا مـن الأشـخاص، الذيـن يمكـن الوصـول إليهـم علـى نحـوٍ فـردي، وذلـك بفعـل تجـزؤ نظـام وسـائل الإعـلام فـي الثقافـة الرقميـة التـي يعـد كل مسـتخدم فيهـا بمثابـة مسـتهلك ومنتج فـي الوقـت نفسـه. يعنـي "التسـويق" فـي ظـل الظـروف التقنيـة الجديـدة تحديـد الفئـات المسـتهدفة الأكثـر تميـزًا بصفـة دائمـة وحتـى مخاطبـة العمـلاء علـى حـدة بمعلومـاتٍ أعـدت خصيصًـا لهـم وذلـك هـو الوضع

38- ظهرت كلمة "الملف الشخصي للمستخدم" في سياق التحليل الديمغرافي لمجموعة من السكان بصورة متفرقة وذلك ابتداءً من مطلع السبعينيات. انظر (Kob 1973).

المثالـي للتسـويق. إن الملـف الشـخصي فـي هـذا الموقـف التواصلـي يعـد بمثابـة المـكان الـذي يتمكـن فيـه مـن يرسـلون رسـائل دعائيـة مـن إنشـاء ومعرفـة بيانـات عـن مـن يتلقـون تلـك الرسـائل.

لقـد لاحـظ المتخصصـون فـي مجـال التسـويق وأبـرزوا -أيضًـا- بصـورة محـددة أنـه بذلـك تتقـارب العلاقة بيـن الشـركات والمسـتهلكين، الذين يتم تحديـد هويتهـم لتحقيـق هـدفٍ مـا، مـع العلاقـة بيـن علـم نفـس الجريمة ومرتكبـي الجرائـم. حيـث يقـدم المستشـار الإداري الألمانـي "أندريـاس فينتسـلاو" منـذ العـام 2003 تقريبًـا عرضًـا اسـمه "تنميـط العمـلاء" وهـي الكلمـة المشـتقة مـن مفهـوم "consumer profiling" [39] الـذي شـاع اسـتخدمه فـي الولايـات المتحدة الأمريكية منذ وقت طويـل بالفعل. ونتيجة لذلـك كان شـعار الموقـع الإلكتروني وصـورة غلاف الكتاب المنشـور في دار النشـر المملوكـة للمؤلـف عبـارة عـن بصمـة مُكبَّـرة لإصبـع من أصابـع اليد. وطبقًـا لمـا ورد فـي مقدمـة الكتـاب، فـإن "فينتسـلاو" قـارن بيـن "البنيـات الهيكليـة لأعمـال التنميـط في مجـال علم الأدلـة الجنائية والبنيـات الهيكلية لأعمـال المبيعـات فـي الوقـت الراهـن" واكتشـف وجـود "تشـابهات مثيـرة جـدًّا للاهتمـام". حيـث إنـه "فـي خضـم الانشـغال بقضايـا العمـلاء وتطويـر الأعمـال والتسـويق تبلـورت فكـرة أن الإنسـان ربمـا يكـون بحاجة إلى سـبل وإمكانيـات جديـدة لفهـم دوافع تصرفـات العملاء. *ربما يجب على الإنسـان*

39- انظر (Burnett /Bush 1986).

أن يتمكـن مـن التنـزه داخل عقـول العمـلاء!"[40] غير أن الكلمة المسـتحدثة "تنميـط العمـلاء" تعبـر بوضوح فقـط عما أصبـح نموذجًا تجاريًّا أساسـيًّا في عصـر الثقافـة الرقميـة وذلـك مع ظهـور محـركات البحث وشـبكات التواصل الاجتماعـي ومقدمـي الخدمـات عبـر شـبكة الإنترنـت. فمـن المعـروف أن الشـركات العالميـة مثـل شـركة "جوجـل" وشـركة "فيـس بـوك" أسسـت إمبراطورياتهـا بالفعـل علـى أسـاس الوعـد الـذي صاغـه "أنـدرو وينريتـش" ومفـاده أنـه بإمـكان مقدمـي الإعلانـات أن يجعلـوا شـكل إعلاناتهـم ومعدل تكرارهـا متوائمـة مـع المسـتخدمين علـى حـدة وذلـك بتنويعـات لا يمكـن تصورهـا. وفـي العـام 2007 تقريبًـا، أدت إحـدى الطـرق المنهجيـة، التـي كانـت شـركة "جوجـل" تتمتـع ببـراءة اختراعهـا، لحـدوث نقاشـات عامـة طويلـة. وقـد مكنـت هـذه النقاشـات الشـركة أن تحظـى بـ"ملـف شـخصي موثـوق بـه للمسـتخدم" وذلـك انطلاقًـا مـن سـلوكيات مـن يلعبـون ألعـاب الكمبيوتـر. فمـن شـأن المكوث لفتـراتٍ طويلـة على منصات ألعاب الشـركة والخطـط الفرديـة للاعبيـن أن يوضحا الميول الاسـتهلاكية للمسـتخدم ويتيحا بذلـك إعلانـات فعالـة قـدر الإمكان ويتـم وضع تلـك الإعلانات فـي توقيتات

40- Wenzlau u.a. (2003), S. 17 /18 .

(كانت الكلمات مكتوبة بحروف مائلة هكذا في النص الأصلي)

مميزة.[41]

كما أثارت هذه المعرفة، والتي تجمعت في الملفات الشخصية، للشركات على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية تساؤلات محددة بشأن حماية البيانات. ففي بلد مثل ألمانيا، والتي طورت منذ مطلع الثمانينيات أحكامًا دستورية معقدة بشأن "حق الفرد في تقرير مصير معلوماته"، صاحبت نشأة شكل الملف الشخصي منذ وقتٍ مبكر تعليقات ناقدة. وقد صاغت عالمة القانون "بيترا فيتيج" في العام 2000 بالفعل في مقال عن *الملفات الشخصية لأغراض تسويقية* "تحفظات قانونية" شديدة تجاه هذا الشكل الخاص بمعالجة البيانات وشدَّدت على قناعتها القانونية أن حتى قبول العملاء بذلك لن تغير في هذا الإشكالية شيئًا. فوفقًا لـ"فيتيج" يفقد حق الفرد في تقرير مصيره مفعوله الساري "أينما تصبح السلامة الشخصية تحت تصرف الشخص المهتم بتلك البيانات بصورة غير محدودة". وتضيف "فيتيج" أنه لذلك يجب من حيث المبدأ حظر إنشاء "ملفات شخصية للمستخدمين" في مجال التسويق وذلك نظرًا لحق الفرد الأساسي في تقرير مصيره المعلوماتي.[42] وعلى الرغم من هذا الانتقاد المبكر

41- انظر US-PatentWO 2007041371, Using Information from User Video Game Interactions to Target Advertisments. Martin-Jung (2007)انظر مناقشة براءة الاختراع لدى

42- Wittig (2000), S. 62.

تستشهد "فيتيج" في هذه الفقرة من جانبها بعالم قانون آخر بشكلٍ جزئي.

للملفـات الشـخصية فـإن التحديـد القانونـي الأكثـر دقـة لهـذا الشـكل لـم يحـدث فـي السـنوات التاليـة لذلـك النقـد. فحسـبما كتـب "كريسـتوف شـنابل" فـي مقالـه الشـامل عـن مفهـوم "الملـف الشـخصي" فـي موقـع "حمايـة البيانـات" عـام 2009، فإنـه لـم يكـن هنـاك حتـى تلـك اللحظـة "قضيـة واحـدة فـي القضـاء تـم التعاطـي فيهـا مـع إنشـاء ملـف شـخصي باعتبـاره أمـرًا مخالفًـا للقانـون". ويقـول "شـنابل" إن شـكل الملـف الشـخصي لـم يكـن يمثـل حتـى العـام 2009 "مفهومًـا قانونيًـا"[43] . إنهـا ثغـرة لـم يتـم سـدها إلا مؤخـرًا. وفـي أبريـل عـام 2016 دخلـت *اللائحـة العامـة لحمايـة البيانـات* فـي الاتحـاد الأوربـي -التـي تمـت مناقشـتها لوقـتٍ طويـل وتمـت صياغتهـا بإحـداث تـوازن بيـن حريـة التصـرف وبيـن الاسـتقرار القانونـي- حيـز التنفيـذ. وتـم للمـرة الأولـى فـي هـذه اللائحـة -التـي كان مـن شـأنها أن توحـد النظـام القانونـي غيـر المتجانـس آنـذاك للـدول الأعضـاء فـي الاتحـاد الأوربـي علـى حـدة- صياغـة تعريفـات لمفهومـي "الملـف الشـخصي" و"التنميـط" مـن منظـور حمايـة البيانـات. فأصبحـت تشـير الآن إلـى "كل نـوع مـن أنـواع المعالجـة الآليـة للبيانـات الشـخصية" والتـي يتـم اسـتخدامها "فـي سـبيل تقييـم جوانـب شـخصية محـددة، تخـص شـخصًا طبيعيًـا؛ لا سـيما مـن أجـل تحليـل الجوانـب التـي تخـص أداء العمـل والوضـع الاقتصـادي والصحـة والميـول والاهتمامـات الشـخصية والأمانـة والسـلوك ومحـل الإقامـة أو تغييـر محـل الإقامـة

43- Schnabel (2009), S. 172, S. 171.

لهـذا الشـخص الطبيعـي وأيضًا التنبـؤ بتلك الجوانـب". يندرج –وفقًـا لقانون الاتحـاد الأوربـي- ضمـن "مبـادئ المعالجـة العادلـة والشـفافة" للبيانـات الشـخصية "أن يتـم إعـلام الشـخص المعني بوجـود عملية لمعالجـة البيانات وبأغـراض تلـك العمليـة". ويجـب علـى شـركات أو وكالات جمـع البيانات أن تنبـه الشـخص المعنـي إلـى أن هنـاك عمليـة تنميط تجـرى وإلـى نتائج تلك العملية"[44].

إلا أنـه كان معلومًـا لمؤلفـي *اللائحـة العامـة لحمايـة البيانـات* –أيضًـا- أن جمـع معلومـات عـن الملفـات الشـخصية لـم يعـد مقتصـرًا في تلـك الأثنـاء علـى الشـركات فحسـب وإنمـا أصبـح المسـتخدمون الفرديـون أنفسـهم ينشـئون ملفـات شـخصية فـي المقـام الأول أيضًـا. ولذلـك فقـد ورد فـي المقدمـة: "لا تسـري اللائحـة علـى معالجـة البيانـات الشـخصية التـي يجريهـا شـخص طبيعـي مـن أجـل ممارسـة أنشـطة شـخصية وعائليـة فقـط وبالتالـي دون أن يكـون لهـذا أي علاقـة بأنشـطة مهنيـة أو اقتصادية". ويتعيـن اعتبـار أن "اسـتخدام شـبكات التواصـل الاجتماعـي" تعـد مـن قبيل مثـل هـذا النشـاط.[45] وبغـض النظـر أنـه تـم هنـا الإبقـاء علـى ذلـك الحـد الهـش الفاصـل بيـن الأنشـطة "الشـخصية" و"المهنيـة" فـي شـبكة الإنترنـت وهـي الحـدود التـي أسـفر اختراقهـا عـن نشـأة طـرق اقتصاديـة متنوعـة

44- Datenschutz-Grundverordnung (2016), Kapitel 1, Art 4: Begriffsbestimmungen und Vorbemerkung 60.

45- Ebd. Vorbemerkung 18.

تخـص الأفـراد فـي الثقافـة الرقميـة، فـإن هـذه الفقرة توضـح التناقـض التام فـي مفهـوم "الملـف الشـخصي" فـي الوقت الراهـن. حيث تعـد العلاقة بين الملـف الشـخصي وأسـاس شـخصية الفـرد المحمـي بموجـب الدسـتور غيـر منسـجمة مطلقًـا مـع صـورة الإنسـان لـدى المكلفيـن بحمايـة البيانـات. إن "التنميـط" يعـد فعـلًا خارجيًّـا لعملية وصف الشـخص بصفات محـددة وهو مـا جعـل "كريسـتوف شـنابل" علـى اقتناع فـي العـام 2009 أنه "مـن منظور الاقتصـاد، يعـد حـق العمـلاء فـي تقريـر مصيرهـم فـي مـا يتعلـق بالملفات الشـخصية متناقضًـا تناقضًـا تامًّـا مـع مصالح الشـركات"[46].

لقـد تغيـر هـذا الوضـع العـام تمامًـا. فعلـى النقيـض، أصبـح مسـتخدمو وسـائل التواصـل الاجتماعـي يجتهدون فـي تصوير شـخصياتهم يومًا بعد يوم بصورة ملائمة عبر ملفاتهم الشـخصية. وبذلك العمل، الذي قرروه بأنفسـهم، فإنهـم يـزودون الشـركات وعملاءهـا مـن المعلنيـن بوفـرة مـن المعلومـات علـى نحـوٍ عابـر. وينتـج عـن الوصـول بصـورة نشـطة أو صـورة سـلبية إلـى شـكل "الملـف الشـخصي" علاقـة ترابـط غريبـة، لـم يعـد مـن الممكـن أن تفهمهـا فئـات القائميـن بصـورة معتادة علـى حماية البيانـات. حيث تختلط

46- Schnabel (2009), S. 177.

إحدى أولى الدراسات المكتوبة عن قانون حماية البيانات والتي تناولت موضوع هذا الازدواج الجديد بين الملفات الشخصية التي يتم إنشاؤها بصورة غير ملحوظة وتلك التي يتم إنشاؤها طواعية هي دراسة "لويزه شبيشت" الصادرة عام 2012. انظر (Specht 2012)

فـي الملفـات الشـخصية الموجـودة فـي الوقـت الحاضـر على مواقـع "فيس بـوك" و"لينكـد إن" أو "إنسـتجرام" عـرض صـورة الـذات مـع التحكـم فـي الآخريـن وإضفـاء طابـع الذاتيـة والتشـيؤ بطريقـة تجعـل مـن غيـر الممكن الفصـل بيـن هـذه العناصـر. ويبـدأ شـيئًا فشـيئًا تتحـدد الأشـكال الجديـدة مـن أشـكال الـرأي العـام الاجتماعـي والسياسـي الناتجـة عـن هـذا التحالف. وبذلـك يبـدو اقتـراح مـن قبيـل مـا اقترحته "بيتـرا فيتيـج" بالحظـر القانوني لإنشـاء ملفـات شـخصية طواعيـة وكأنـه يرجع إلى عهد سـحيق؛ علـى الرغم مـن أنـه لا يرجـع إلا إلـى خمسـة عشـر عامًـا فقط.

تقـدم دراسـات عالـم النفـس الأمريكـي "ميشـال كوسينسـكي" مـادة علميـة كاشـفة عـن معلومـات كثيـرة، تكسـبنا انطباعًـا إلـى أي درجـة حدث تقـارب بيـن تشـكيل الشـخصية بصـورة مسـتقلة وبيـن تقييـم الآخريـن فـي الملفـات الشـخصية فـي الوقـت الراهـن. فمنـذ العـام 2011، نشـر "ميشـال كوسينسـكي" مـع موظفيـه العديـد مـن المقـالات التـي كانـت تـدور حـول تقديـم إفـادات موثـوق بهـا عـن بعـض الأشـخاص. وهـي الإفـادات التـي تؤكـد مـا ورد فـي منهجيـات معقـدة لعلـم نفـس الشـخصية وذلـك تطبيقًـا علـى ملفـات شـخصية علـى موقـع "تويتـر" أو موقـع "فيـس بـوك". اعتمـد "كوسينسـكي" فـي تحليلاتـه للملفـات الشـخصية علـى نظريـة "عناصـر الشـخصية الخمسـة" أو "نمـوذج عناصـر الشـخصية الخمسـة" والتـي أصبحـت منـذ ظهـور دراسـات "لويـس جولدبـرج" فـي نهايـة الثمانينيـات

بمثابـة أحـد إجـراءات الاختبـار الهامـة الخاصـة بعلـم نفـس الشـخصية التجريبـي. يقسـم نموذج عناصر الشـخصية الخمسـة الانفعـالات والعواطف الفردية وفقًا لخمس سـمات ويعتقد أنه يمكن بمسـاعدة خمسة استفسارات معياريـة تحديـد وضـع هـذه السـمات فـي سـلوك الأشـخاص الخاضعيـن للاختبـار وأنـه يمكـن بذلـك تأسـيس تصنيـف "للشـخصيات" الإنسـانية. إن نظريـة "كوسينسـكي" -التـي تمـت مناقشـتها كثيـرًا- تتمثل إذًا في اكتسـاب هـذه المعرفـة بطريقـة أسـرع بالأسـاس ولكنها –أيضًـا- طريقـة دقيقة وذلك عـن طريـق تحليـل الملفـات الشـخصية الموجـودة فـي شـبكات التواصـل الاجتماعـي. ففـي مقالـه الأول المنشـور عـام 2011، أثبـت "كوسينسـكي" –تطبيقًـا علـى شـريحة أصغـر تقـدر بمئـات قليلـة مـن المسـتخدمين- أن أهـم عناصـر الملـف الشـخصي علـى موقـع "تويتـر" –والمتمثلـة فـي عـدد المتابعيـن وعـدد مـن يتابعهـم المسـتخدم وعـدد التغريـدات- تعـد كافيـة مـن أجـل تحديد ملامح الشـخصية وفقًا لنموذج عناصر الشـخصية الخمسـة. وتتطابـق نتائـج هـذا التحديـد لملامـح الشـخصية مـع التحليـل الحقيقـي وذلـك بنسـبة احتمـال تزيـد علـى تسـعين بالمئـة. أي أن"كوسينسـكي" يرى أن الملـف الشـخصي علـى موقـع "تويتـر" يكفـي للتنبـؤ بصـورة موثـوق بها بنمـط شـخصية المسـتخدم وهـل يتعين تصنيفـه على أنه بالأحـرى "منفتح" أو "ذو ضميـر يقـظ" أو "اجتماعـي" أو "محـب للتعـاون" أو "مرهف الحس".

فـي السـنوات التاليـة، وسَّـع عالـم النفـس وموظفـوه من نطـاق الأبحاث أكثـر فأكثـر ودعـوا مئـات الآلاف من مسـتخدمي مواقع التواصـل الاجتماعي –عبـر صفحـة علـى موقـع "فيـس بـوك" أنشـؤوها بأنفسـهم وحملـت اسـم "شـخصيتي"- إلـى إعـداد تحليـل للشـخصيات مكـون مـن العناصر الخمسـة الكبـرى وقارنـوا فـي مـا بعـد النتائـج المتحققـة بالملفـات الشـخصية للمسـتخدمين. ونشـروا فـي العـام 2013 دراسـة، تجعـل أنمـاط شـخصيات الخاضعيـن للتجربـة -والذيـن أوشـك عددهـم أن يبلـغ سـتين ألفًـا- مقترنـة بتقييـم مـا يثيـر "إعجابهـم" علـى موقـع "فيـس بـوك"؛ أي مقترنـة بتصرفهم المستحسـن للتعليقـات أو المنتجات أو النصوص أو الصـور ومقاطع الفيديو المنشـورة. وورد فـي المقـال: "يمكننـا أن نعـرض أنـه أصبـح مـن الممكـن عـن طريـق هـذه المـادة البحثيـة التنبـؤ بصـورة آليـة ودقيقـة بمجموعـة مـن السـمات الشـخصية الحساسـة للغايـة، ومـن بينهـا التوجـه الجنسـي والأصـل العرقـي والـرؤى الدينيـة والسياسـية والعمـر والجنـس"[47]. يـرى المؤلفـون أنـه يتأتـى مـن سـلوك المسـتخدمين، والـذي يمكـن إدراكـه فـي ملفاتهـم الشـخصية، الكشـف بنسـبة احتمـال تقـارب التسـعين بالمئـة عمـا إذا كان الشـخص المعنـي لـه ميول جنسـية مغايرة أم مثلية وبنسـبة احتمال تعـادل خمسـة وثمانيـن بالمئـة تقريبًـا هـل يدلي هـذا الشـخص بصوته في

47- انظر Kosinski /Stilwell /Grapel (2013), S. 5802 : Kosinski u.a. (2011); انظر أيضًا mypersonality.org /wiki /doku.php.

الانتخابات لصالح الحزب الديمقراطي أم الجمهوري.

لقد شدَّد "ميشال كوسينسكي" منذ أول جملة من دراسته الصادرة عام 2013 بالفعل أن السبب في تمتع طريقته المنهجية بجاذبية كبيرة -بالمقارنة مع الإجراءات المعقدة لتحليل الشخصية في إطار علم النفس التربوي- يعزى في المقام الأول إلى "سهولة الوصول" إلى البيانات. فبفضل سهولة الحصول على البيانات عن طريق الملفات الشخصية، ربما تمنينا هذه الطريقة في عملية حصر البيانات أيضًا بـ"إمكانيات متنوعة للتطبيق في المستقبل"[48] وذلك في مجالات عديدة من بينها مجال التسويق. وقد تحقَّق هذا الطموح في نهاية عام 2016 بعد انتخاب "دونالد ترامب" رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية بطريقة واسعة النطاق وبطريقة ربما لم ينظر لها علم نفس الشخصية الأكاديمي بعين الاعتبار. فقد سعت شركة "كامبريدج أناليتيكا" وهي وكالة بريطانية معنية بأمور التواصل للفت الأنظار بافتراض أنها استطاعت إدارة معركة انتخابية محسوبة بدقة للرئيس "دونالد ترامب" وأثرت بهذا في النتيجة غير المتوقعة بصورة حاسمة وذلك استنادًا إلى تحليلات "كوسينسكي" للملفات الشخصية وعن طريق رسائل من موقع "فيس بوك" تم فصلها بصورة فردية. حيث قال "ألكسندر نيكس" الرئيس التنفيذي لشركة "كامبريدج

48- Kosinski /Stilwell /Graepel (2013), S. 5802, Kosinski u.a. (2011).

أناليتيـكا" فـي فعاليتـه التـي أقامهـا فـي صيف عـام 2016 بمناسـبة المعركة الانتخابيـة أنـه "لـو تعرفنـا على شـخصية كل ناخـب على حدة جيـدًا بصورة كافيـة، فإنـه يمكـن تفرقـة الرسـائل بصـورة دقيقـة وإثـارة صـدى أقـوى فـي المجموعـات المسـتهدفة الأكثـر أهميـة"[49]. وقـد دعـت الوكالـة الملاييـن ممـن يحـق لهـم الانتخـاب إلـى الخضـوع لاختبـارات شـخصية علـى موقـع "فيـس بـوك" وذلك اقتـداءً بمثال "كوسينسـكي" واسـتنبطت فـي النهاية من النتائـج اتجـاه المعلومـات التـي تم إرسـالها.

لقـد نشـأ فـي الأشـهر الماضيـة نقـاش جدلـي طويـل بيـن الصحفييـن وعلمـاء الإعـلام بشـأن التأثيـر الفعلـي لهـذا الإجـراء المعـروف باسـم "التنميـط المسـتهدف" علـى نتيجـة الانتخابـات الرئاسـية الأمريكيـة. ولكـن بغـض النظـر عـن مـدى عمـق ومصداقيـة تأثيـر التسـويق السياسـي لشـركة "كامبريـدج أناليتيـكا" والـوكالات المشـابهة لهـا علـى السـلوك الانتخابـي حقًّـا، فمـن المهـم بالنسـبة للقضايـا المطروحـة للبحـث هنـا حقيقـة أن التحليـلات، التـي أجراهـا "كوسينسـكي"، تبيـن بوضـوحٍ مميـز تذبـذب الملفـات الشـخصية بيـن التمتـع بالاسـتقلال والتحكـم فـي الآخريـن. فربمـا يمكـن –بمفـردات لغويـة عفا عليهـا الزمن بعض الشـيء من مفـردات النقد

49- انظر خطاب "نيكس" في youtube.com /results?search_query=alexander+nix+Concordia+summit (في الدقيقة 4.10) وانظر أيضًا (Grassegge /Krogerus 2016) والذي أعلن في الأوساط الألمانية عن طريقة عمل شركة "كامبريدج أناليتيكا" بعد انتخاب "ترامب".

السياسـي- وصف سـلوك مـن يقومون بعمليـة التنميط المسـتهدف على أنه "تلاعـب" بالناخبيـن. غيـر أنـه من السـمات المميزة لأشـكال التمتـع بالذاتية فـي الثقافـة الرقميـة أنـه يتـم تجسـيد أي تدخـلات عبـر شـكل "الملـف الشـخصي" بدقة. ويعتبر شـكل "الملف الشـخصي" بالنسـبة لفئـة كبيرة من النـاس منـذ قرابـة عشـر سـنوات بمثابة مـكان مسـتقل لتمثيـل الذات.

الفضاء الإلكتروني والملف الشخصي

من إزالة حدود الذات إلى تقييدها

يعـد الـدور المهيمـن للملـف الشـخصي فـي الثقافـة الرقميـة كاشـفًا لأسـباب عديـدة مـن بينهـا أنه رسـخ شـكلًا مـن أشـكال تمثيل الـذات، يمكن فهمـه باعتبـاره معارضًـا للأشـكال المبدئيـة، التـي تـم إعدادهـا لتقديـم صـورة للـذات فـي مطلـع ظهـور الإنترنـت. فقـد اقترنـت فـي منتصـف التسـعينيات أعـراض ظهـور عصـر إعلامـي جديـد فـي معظـم الأحيـان بالخطـاب الملـح للـذات وإمكانيـات تطـور الـذات فـي الحيـز الافتراضـي لشـبكة الإنترنـت. كمـا أفـرد الكتـاب والكاتبـات، الذيـن تمتعـوا بأهميـة فـي هـذا العصـر مثـل "هـاورد رينجولـد" و"شـيري تـوركل" و"جـون بـري بارلـو" و"نيكـولاس نيجروبونتـي"، مـكان الصـدارة لجوانـب إزالـة الحـدود والتخفـي والتعدديـة وذلـك بحديثهـم عـن طريـق إبـراز الذاتيـة فـي شـبكة

الإنترنـت. فعلـى سـبيل المثـال أكـدت "شـيري تـوركل" فـي دراسـاتها بصـورة متكـررة أن هويـة الأشـخاص علـى شـبكة الإنترنـت –علـى سـبيل المثـال فـي الأدوار المفضلـة التـي يؤدونهـا مثلمـا يحـدث فـي لعبـة "إم يـو دي"– لا تعـد "لامركزيـة فحسـب ولكنهـا أيضًـا متعـددة بصـورة لانهائيـة". وأضافـت أنـه يجـب فهـم ذوات المسـتخدمين عـن طريـق فئـات تصنيفيـة مثـل "الاختـلاف وعـدم التجانـس والتشـرذم". وأردفـت: "إننـا لدينـا إمكانيـات لامحـدودة عنـد تقديـم صـورة ذواتنـا إلكترونيًّـا وذلـك بـأن نـؤدي *أدوارًا كثيـرة*". كذلـك نـادى "هـاورد رينجولـد" -الـذي صـاغ فـي مطلـع التسـعينيات مفهـوم "المجتمـع الافتراضـي"- فـي كتابـه، الـذي حمل نفـس الاسـم والـذي حظـي بمعـدل قـراءة كبيـر، بوجـود "هويـة مسـتعارة" فـي شـبكة الإنترنـت. كمـا حكـى عـن نشـاطاته، التـي اسـتمرت لسـنوات طويلـة، فـي المجتمعـات الافتراضيـة القديمـة ومنهـا علـى سـبيل المثـال "Whole Earth ‘lectronic Link" والتـي تعـرف اختصـارًا بــ "WELL" والتـي كان أعضاؤهـا يسـجلون أنفسـهم –بالمقارنـة بـالأدوار التـي تتـم تأديتهـا وفقًـا لمـا وصفتـه "تـوركل"- بـ"أسـماء مسـتعارة" فقـط لكـي يصبح مـن الممكـن حجـب هوياتهـم أو جعلهـا هويات متعـددة. كان هـذا الطابع العابـر للـذات علـى شـبكة الإنترنـت يعتبـر أيضًـا برهانًـا محوريًّـا فـي البيان الشـهير المعلـن فـي مطلـع ظهـور شـبكة الإنترنـت والـذي أعلنـه "جـون بـري بارلـو" فـي فبرايـر عـام 1996 تحـت اسـم "بيـان اسـتقلال الفضـاء الإلكترونـي". حيـث ورد فـي هذا النص: "إن هوياتنا ليس لها جسـد ولذلك لا

يمكـن فـرض نظـام صـارم علينـا –خلافًـا لكـم- عـن طريـق العنـف الجسـدي"[50]. جـاء هـذا كـرد فعـل علـى التعديـل الـذي صـدَّق عليـه الرئيـس "بيـل كلينتـون" فـي اليـوم نفسـه فـي قانـون الاتصـالات السـلكية واللاسـلكية فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. كان هـذا القانـون ينـص على أمـور عديـدة مـن بينهـا تنظيـم أكثـر صرامـة ومراقبـة لمضمـون المواقـع الإلكترونيـة. وكانـت الـذات فـي سـنوات تأسـيس الثقافـة الرقميـة بمثابـة فئـة تصنيفيـة لا يمكـن إدراكهـا وغيـر محـددة الشـكل.

ينطبـق الأمـر ذاتـه علـى نحـوٍ مشـابه تمامًـا –أيضًـا- علـى اسـتعارات الفضـاء المكانـي لشـبكة الإنترنـت قديمًـا، لا سـيما تصـور "الفضـاء الإلكترونـي" الـذي صممـه "بارلـو" فـي تفسـيره الجديـد للمفهـوم الـوارد فـي روايـة "نيورومانسـر" لـ"ويليـام جيبسـون". وقـد ذكـر "فريـد تيرنـر" فـي كتابـه الهـام، الـذي تنـاول نشـأة الفضـاءات الرقميـة المثاليـة وصـدر فـي "كاليفورنيـا"، أن الفضـاء الإلكترونـي يعـد فضـاءً تسـوده المسـاواة وغيـر مـادي ولا يتأتـى ضبطـه مـن جانـب الشـرطة أو الدولـة وأنـه يقـع "خـارج نطـاق أي سـيطرة حكوميـة"[51]. لقـد ربـط "بارلـو" الـذي ترجـع جـذوره إلـى محيـط "الثقافـة المضـادة" فـي كاليفورنيـا -شـأنه فـي ذلـك

50- Turkle (1995), S. 185, Turkle (1994), S. 164, Rheingold (1993 /2000), S.149, Barlow (1996).

51- Turner (2006), S. 162.

شأن جميع الشخصيات الرائدة لهذه الحركة- بين هذه الخيالات الواهمة لإزالة حدود الهويات والفضاءات الافتراضية وخبرات تناول عقار "إل سي دي" المخدر في الستينيات والسبعينيات. وأضاف أن العالم على شبكة الإنترنت أيضًا -والذي لا تحده قيود- يتيح القيام برحلة تتخدر فيه الأحاسيس. وهو ما لم يعد يتحقق عبر تناول مخدرات مركبة وإنما عن طريق تكنولوجيا المعلومات. "إن أجهزة الكمبيوتر تعد الشكل الجديد لعقار "إل سي دي" المخدر"[52]. يرى "بارلو" أن الجودة الهامة للغاية والمحملة بأوهام مثالية لهذا المحيط ترجع إلى أنها يمكن تقييده أو التحكم فيه. إنها سمة، أدت لظهور استعارته المكانية الثانية ذات التأثير القوي لشبكة الإنترنت في هذه السنوات وهي "الحد الإلكتروني". ومثلما أخذ المهاجرون الأوربيون يزيحون على مدار القرن التاسع عشر الحدود نحو غرب الولايات المتحدة الأمريكية بصفة مستمرة، فقد وطأ أوائل مستخدمي شبكة الإنترنت –أيضًا- أرضًا جديدة غير مكتشفة بعد –حسبما كانت تسمى في "بيان استقلال الفضاء الإلكتروني"- وهي الأرض التي من شأنها أن تمنح قاطنيها "هويةً أصليةً"[53].

من الجلي أن هذه الأوهام الخيالية عن الذات المستعارة المتعددة والمتواجدة في فضاء مكاني، قد أزيلت حدوده -وهي

52- نفس المرجع السابق، ص 117.

53- Barlow (1996).

الأوهـام التـي أسـفرت عنهـا السـنوات الأولـى لظهـور الإنترنـت- قد تلاشـت فـي السـنوات العشـرين الماضية. وحلَّ محلَّهـا تصور مختلـف تمامًا وتأصيل مختلـف تمامًـا لشـبكة الإنترنـت ومـا تتجمـع فيهـا مـن ذوات. فقـد وضـع "الملـف الشـخصي" -الـذي شـاع ظهـوره عنـد البحـث عـن شـريك علـى شـبكة الإنترنـت وفـي ثقافـة التقـدم للوظائـف وفـي الوقـت نفسـه تقريبًـا فـي نظريـات "رينجولـد" و"تـوركل" و"بارلـو" ذات الأسـلوب اللغـوي البليغ- شـكلًا فـي مواجهـة هـذه التصـورات الواهمة المتعلقـة بذلك الوضـع العابر؛ وهـو الشـكل الموجـه تمامًـا نحـو البنيـة الهيكليـة والحاسـوبية والمعياريـة. تعتبـر الإجـراءات المحوريـة لتقديـم صـورة للـذات وللمعرفـة الذاتيـة، التـي نشـأت منـذ ذلـك الوقـت فـي الثقافـة الرقميـة، أن الـذات والفضـاء المكانـي قابـلان للقيـاس بصـورة دقيقـة. وفـي سـبيل إيضـاح الفجـوة بيـن هذيـن التصوريـن، كان مـن الممكـن فـي منتصـف التسـعينيات مقارنـة المطالبـات الحماسـية بتعـدد الـذات مـع شـروط وسياسـات أكبـر شـبكات التواصـل الاجتماعـي ومسـتخدميها النشـطين الذيـن أصبـح عددهـم فـي تلـك الأثنـاء مـا يربـو علـى مليـاري شـخص. حيـث تبـدأ خانـة "التسـجيل وتأميـن الحسـاب" بالطلـب: "اذكـر اسـمك الحقيقـي وبياناتـك الحقيقية أيها المسـتخدم لموقـع "فيـس بـوك"". وتضـم "التكليفـات الإلزاميـة" الأخـرى، التـي يتعهـد بهـا كل عضـو عنـد قيامـه بالتسـجيل علـى الموقـع، نقـاط: "عليـك أن تتعهـد بـألا تضـع معلومـات شـخصية خاطئـة علـى موقـع "فيس بـوك" " و"عليـك أن تتعهـد بإنشـاء حسـاب شـخصي واحـد" و"عليـك أن

تتعهـد بالحـرص علـى أن تكون معلومات جهة الاتصـال الخاصة بك مضبوطة دائمًـا وأن تكون موضوعة وفقًا لآخـر تحديث لها"[54].

لقـد أكـد "مارك زوكربيرج" مؤسـس موقـع "فيس بوك" نفسـه أن النجاح الباهـر لمؤسسـته والانتصـار علـى شـبكة "مـاي سـبيس" المنافسـة -التـي كانـت تتفـوق علـى مؤسسـته فـي بـادئ الأمـر مـن حيث القـوة- قـد ارتبطا ارتباطًـا وثيقًـا بالإصرار على أن تكون هوية المسـتخدمين المسـجلين واحدة ولا يمكـن أن يشـوبها الخـداع. كمـا اعتبر "مـارك زوكربيرج" فـي حواراته مع الصحفـي الاقتصـادي "ديفيـد كيركباتريـك" والمنشـورة عـام 2010 أن عـدم اكتـراث مشـغلي شـبكة "مـاي سـبيس" بعـدد "الملفـات الشـخصية" لعضـو الشـبكة ومـدى صحتهـا يعـد بمثابـة موضـع ضعـف وفرصـة تجعل الشـبكة عُرضـة للهجـوم: "إن شـركة "مـاي سـبيس" لا يعنيهـا مـن أنـت!" وأضـاف أنه فـي المقابـل حـددت شـبكته المزدهـرة منـذ البدايـة أن كل مسـتخدم لها لا يحـق لـه سـوى التسـجيل بملـف شـخصي واحـد وباسـمه الحقيقـي فقـط. وواصـل "زوكربيـرج" حديثـه المنشـور فـي كتـاب " كيركباتريك" قائـلًا: "لكل إنسـان هويـة *واحـدة*" وتحدث عـن "الافتقار إلـى النزاهة" والمرتبط بإنشـاء ملفـات شـخصية متعـددة وغيـر حقيقيـة علـى موقع "مـاي سـبيس". وينص مبـدؤه علـى أنـه "ليـس بإمكانـك أن تتواجـد علـى موقـع "فيس بوك" سـوى

54- Facebook.com /legal /terms.

بذاتـك الحقيقيـة!"[55] لا شـك أن صيغـة الأمـر الأصليـة هـذه ترجـع بالأحرى لأسـباب تجارية ملموسـة أكثر من كونها ترجع لأسـباب فلسـفية؛ لأن مؤسسة "فيـس بـوك" اسـتطاعت منـذ البداية أن تقـدم لعملائها من المعلنين حشـدًا كبيـرًا مـن الأسـماء والعناويـن الحقيقيـة ممـا يدر عليهـم ربحًا كبيـرًا. غير أن هـذه العبـارة السـحرية، التـي تتحـدث عـن "الـذات الحقيقية"، تعـد بمثابة عتبـة هامة بالنسـبة لصورة الإنسـان فـي الثقافة الرقمية ولاختفـاء الخطابات السـابقة عـن الـذات المتعـددة. فالأنـا مجهولـة الاسـم أو التي ترتـدي قناعًا، تتراجـع أمـام الأنـا ذات الهويـة المحـددة بصـورة موثـوق بها. وبعد سـنوات قليلـة مـن الإعـلان عـن "الهوية الأصليـة"، التي تحـدث عنها "بارلـو"، انتقلت تلـك الهويـة بسـرعة فـي الفضـاء الإلكترونـي مـن كونهـا فئـة تصنيفيـة يتـم التعامـل معهـا بصـورة مسـتعارة إلـى فئـة تصنيفيـة يتـم التعامـل معهـا من زاويـة جمـع المعلومات لأغـراض تحديـد الهوية.

لقـد حـدد "فريـد تيرنـر" فـي كتابـه "مـن الثقافـة المضـادة إلـى الثقافة الإلكترونيـة" العمليـة الانتقالية، التـي وصفها، بحدثيـن تاريخيين مهمين؛ ألا وهمـا الاحتجاجـات، التي وقعت في الحـرم الجامعي في "بيركلي" عام 1964 والتي حمل فيها الطلاب بطاقات "آي بي إم" مثقوبة حول أعناقهم لكي يرمزوا إلى شعورهم بالعجز تجاه ميكنة الجامعة، وكذلك ظهور بيانات في منتصف

55- Kirpatrick (2010), S. 100, S. 199, S. 210.

التسعينيات مثل بيان "نيجروبونتي" تحت عنوان "الرقمنة التامة" و"بيان استقلال الفضاء الإلكتروني" لـ"بارلو". يتمثل السؤال الرئيس لـ"تيرنر" في كيف تمكنت تكنولوجيا المعلومات في غضون ثلاثين عامًا أن تتطوَّر من قوة خطيرة تعوق الذات إلى حيز لليوتوبيا الاجتماعية والتحرر الفردي. إن الأفكار المطروحة هنا عن وضع الذات في الثقافة الرقمية تصف طريقة استكمال وعودة هذا التحول. وهي تطورات، لم يستطع "تيرنر" -الذي انتهى من تأليف كتابه قبل شيوع وسائل التواصل الاجتماعي- أن يأخذها بعين الاعتبار. فلعَّل أكثر خاصية، تثير البلبلة والتشوش في العلاقة الحالية بين بناء الذات وتكنولوجيا الوسائط الرقمية، تتمثل في أن الوعد بالتمتع بالحرية في السنوات الرائدة لتلك العلاقة يعد الأساس الأيديولوجي لكل الأجهزة والخدمات الجديدة (فكل عرض تقديمي لشركة "آبل" وكل اتساع لنطاق ثقافة المشاركة عبر وسائل التواصل الاجتماعي تعد صدى لـ"المجتمع الافتراضي") وتتمثل كذلك في أن إجراءات عملية التمتع بالفردية لم تعد تهدف –حسبما يتضح في مسيرة تطور مفهوم "الملف الشخصي- إلى تشتيت الذات وإنما إلى الإمساك بها.

2

الأماكن: نظام "جي بي إس"

"GPS" وجماليات الشك

لقد أصبحت الهواتف المحمولة، التي كانت حداثتها تكمن في بادئ الأمر في ارتباط استخدامها بتحديد مكان مستخدميها، تقدم نفسها في شكل الهواتف الذكية الحالي -أيضًا- عبر إمكانية تحديد موضعها. فلم يعد الجهاز الصغير المحمول في اليد يستخدم في إجراء مكالمات هاتفية وفي إرسال رسائل نصية وفي التنقل على شبكة الإنترنت فحسب وإنما في الكشف الدقيق عن المكان، الذي يتواجد فيه الشخص، وإعادة إرساله. أي أن تلك البراعة، التي منحت الهواتف المحمولة قبل قرابة العَقد إضافة جديدة، تصف في المقام الأول القدرة على تحديد موقع من يمتلك الهاتف المحمول. فاستخدام الهاتف الذكي يتجاوز الفضاء المكاني ويضع له خريطة في اللحظة ذاتها.

وبإلقاء نظرة أولى على مجموعة الأيقونات الملونة المتواجدة على الشاشة في لوحةٍ بديعة، يتضح إلى أي مدى تؤثر تكنولوجيات

تحديـد المـكان بقوة فـي العروض المتنوعـة للهواتف المحمولـة في الوقت الحاضـر. حيـث تنـدرج خدمات مثـل "الخرائط" أو "توقعـات الطقس" ضمن الرمـوز المُضمَّنـة في أجهـزة الهواتف المحمولة والتي لا يتأتى مسـحها منها. وهي الخدمات التي تذكر الموقع الجغرافي للمسـتخدم طوال مدة اسـتخدام الهاتـف المحمـول. ويمكـن إيجـاد تفعيل خاصيـة تحديد المـكان في علامة صغيـرة فـي الطـرف العلـوي للشاشـة، أي في ما يعـرف بالسـهم المتجه نحو الشـمال. بيـد أن اسـتدعاء المجموعة الكاملـة المختارة من هـذه "الخدمات المرتبطـة بتحديـد الموقع" والخيـارات المتاحة أمام المسـتخدم للتحكم في هـذا يسـتوجب الانتقـال إلـى الطبقـات الأعمق من نظـام التشـغيل والتي لا يـكاد أحـد يقتـرب منهـا في الاسـتخدام اليومي لجهـاز الهاتـف المحمول. أي أنـه مـن الضـروري التعرف على جهـاز الهاتف المحمول عن قربٍ شـديد من أجـل الكشـف عـن تلك الخدمات. ففي جهاز "أيفـون 5 إس" "I phone 5 S" علـى سـبيل المثـال –وهـو واحد من أكثـر أجهـزة الهواتف الذكية اسـتخدامًا فـي الوقـت الحاضـر- يـؤدي النقر علـى رمز "الإعـدادات" عبر حقـل "حماية البيانـات" إلـى الوصـول إلى حيز "خدمـات تحديد المكان" وهـو الحيز الذي يمكـن فيـه مـن ناحيـة اتخـاذ قـرار فتح أو غلـق هـذه الخاصية أساسًـا، ومن ناحيـة أخـرى تظهر فيه قائمـة بكل التطبيقـات المُضمَّنة وكذلـك التطبيقات التـي قـام المسـتخدم بتحميلهـا بنفسـه والتـي يمكنهـا تحديـد الموقـع. وفـي نهايـة هـذه القائمـة، يـؤدي أحـد الحقـول واسـمه "خدمـات النظـام"

إلـى مجموعـة أخـرى مختارة من خصائص تحديد الموقـع الداخلية في جهاز "الأيفـون". ومنهـا علـى سـبيل المثـال خدمـة "أماكـن شـائعة" والتـي تقـدم قائمـة مرتبـة لـكل المناطـق التـي قصدهـا المسـتخدم عـدة مـرات وترتبهـا تبعًـا للعنـوان والتاريـخ والسـاعة وتحددهـا فـي خرائط مدمجـة للمدينة. أي أن الجهـاز يقـدم هنـا فـي الطبقـة السادسـة مـن نظـام التشـغيل IOS 8.2 -وذلـك باحتسـابها مـن الرمـز الرئيـس "إعدادات"- سـجلًّا شـاملًا لمـا يحدث مـن حركـة، يرجـع تاريخـه إلـى سـتة أسـابيع تقريبًـا. أي أنـه نـوع مـن وضع سـيرة ذاتيـة جغرافيـة. تكتـب شـركة "آبـل" عن هـذه الخدمة فـي التنويهات المصاحبـة لـ"عـن خدمـات تحديـد الموقـع وحمايـة البيانـات": "إن جهـاز الأيفـون الخـاص بك يسـجل الأماكـن التي قمـت بزيارتها مؤخـرًا وكذلك متى زرتهـا وعـدد مـرات تـرددك عليها ليتعلم مـا هي الأماكن المهمة بالنسـبة لك [...] وبنـاءً علـى هـذه البيانات يمكن أن يتم تقديم خدمات تناسـبك بشـكلٍ فـردي، ومنهـا علـى سـبيل المثـال مقترحات للسـير فـي الطريق".

وفــي مــا يتعلــق بإجــراءات تحديــد الموقــع للأفــراد، يمكــن رصــد تأصيـل مشـابه لمـا تـم مـع تاريـخ مفهـوم "الملـف الشـخصي" وتاريـخ وظيفتـه. فقـد تحولـت تلـك الأداة المعرفيـة -التـي كانـت معروفـة قبـل قرابـة خمسـة عشـر عامًـا فـي السـياق الشـرطي والجنائـي فـي أغلـب الأحـوال- فـي الثقافـة الرقميـة إلـى تكنولوجيـا معرفيـة متواجـدة فـي كل مــكان وتســتخدم بصــورة عابــرة وكذلــك بصــورة تلقائيــة. مــا هــي

الشروط التي كان من اللازم توافرها في نهاية القرن العشرين من أجل الكشف الدقيق عن محل إقامة أحد الأشخاص عن بعد وتتبع هذا بصورة دائمة؟ إن الجهد التكنولوجي والتكاليف ومشكلة المشروعية القانونية لم تكن تسمح بالقيام بهذا الإجراء سوى بالنسبة للأشخاص الذين كان يحوم حولهم شك مصحوب بمبرر قوي في أنهم قد ارتكبوا جرائم نكراء أو كانوا يستعدون لهذا. (كانت هذه الصورة تعد في الأفلام البوليسية والمسلسلات التلفزيونية البوليسية قرابة عام 2000 من ضمن الموضوعات الشائعة: حيث كانت تظهر صورة المحققين –الذين كانوا قد وضعوا قبل ذلك جهاز إرسال في سيارة المشتبه به- وهم يجلسون في المكتب أو في السيارة المجهزة لعمليات الشرطة ويتتبعون الرمز المتحرك في خريطة المدينة ذات النمط الموحد).

أما في الوقت الحاضر، فتُستَخدم تقنية تحديد المكان هذه تحديدًا في الهواتف الذكية بصفة مستمرة وهذا سواءً في الخدمات الداخلية المُضمَّنة في أجهزة الهواتف الذكية مثل "الخرائط" و"أماكن شائعة" أو كذلك في مجموعة التطبيقات الكثيرة التي حمَّلها المستخدم بنفسه وهي التطبيقات المستخدمة لطلب سيارة تاكسي أو لطلب وجبة عشاء أو حجز أقرب سيارة لوقتٍ قصير عن طريق خدمة استئجار السيارات أو تقييم أحد المطاعم أو وضع إشارة لموقع حانة، زارها الإنسان لتوه، أو لمقابلة شخص آخر لليلة أو مدى الحياة. إن طريقة عمل

تطبيقـات "مـاي تاكسـي" و"أوبـر" و"ليفيرانـدو" و"درايـف نـاو" و"يلـب" و"فورسـكوير" "Foursquare" و"تينـدر" "Tinder" و"بوكيمون جو" وتطبيق تحديـد المواقـع علـى "فيس بوك" تشـترط موافقة مسـتخدمها علـى التعرف علـى موقعـه الدقيـق. وعندمـا يطلـب الشـخص علـى سـبيل المثـال سيارة "أوبـر" للمـرة الأولـى ويراقـب في غضون ذلك رمز سـيارة "ليموزين" سـوداء اللـون علـى شاشـة جهـاز الهاتـف الذكـي -ليـرى كيـف تتحـرك فـي التوقيت الحقيقـي مـن المـكان، الـذي اسـتقبل فيـه السـائق الطلـب، وتتوجـه تجـاه نقطـة الموضـع الـذي يتواجـد فيـه الشـخص- تتداعـى بصـورة حتميـة فكرة أعمـال المراقبـة الشـرطية. إن التعامـل مـع تطبيـق "أوبـر" يحـاط بمناخ من التكتم المثير للشـك؛ فالطريق الذي تسـلكه سـيارة "الليموزيـن" يُخلِّف أثرًا، يمكـن تعقبـه بـأدق صورة ولكنه أثـر دون وقوع جريمة. فصحيـح أنه يمكن قيـاس الواقـع وتصويـره بطرق تمـت تجربتها في مجـال علم الأدلـة الجنائية ولكـن ليـس من شـأن هـذا الواقـع أن يفتح مناطـق مجهولـة ومحجوبة حتى ذلـك الوقـت، مثلمـا يسـعى التحقيـق الذي يتم إجـراؤه بعد ارتـكاب جريمة مـا. وبينمـا كان تحديـد موقـع الشـخص يعنـي لوقـتٍ طويـل اكتشـاف سـر والكشـف عـن موضـع مظلـم فـي النسـيج المتشـابك للطـرق التـي يسـلكها ومقابلاتـه، فـإن هـذا الجانـب الخـاص بالتحقيـق الاسـتقصائي لا يلعـب دورًا بالنسـبة لمسـتخدم الهاتـف الذكـي في ظـل التطبيقات المتنوعـة الموجودة فـي الهاتـف الذكـي. لقـد تحولت أعمـال البحث الاسـتقصائية الرأسـية، التي

تجريها الشرطة أو المحققون السريون، لتصبح بمثابة أعمال تعقب يومية، تستخدم لأغراض اللعب أو يتم استلهامها اقتصاديًّا أو عاطفيًّا بصورة أفقية بحتة.

تاريخ الملاحة عبر الأقمار الصناعية:

تشترط إمكانية تحديد الشخص لموقعه عبر الهاتف المحمول بصورة متواصلة وجود تقنية لتحديد المكان، تتوافر بطريقة منتشرة على نطاق واسع وبطريقة دقيقة ومجانًا. تتمثل تقنية تحديد المكان هذه في خدمة الملاحة عبر الأقمار الصناعية المعروفة بـ"جي بي إس" "GPS" (نظام التموضع العالمي) والتي شيدتها وزارة دفاع الولايات المتحدة الأمريكية بين عامي 1973 و1995 وأصبحت تُستَخدم منذ عام 2000 دونما قيد لأغراض مدنية أيضًا. إن كل هاتف ذكي يلجأ في الوقت الحاضر إلى خدمة "جي بي إس" "GPS" في المقام الأول عند تحديد موضع المستخدم؛ حيث إن مدى الأنظمة المتنافسة مع نظام "جي بي إس" مثل نظام "جلوناس" الروسي ونظام "جاليليو" الممول من الاتحاد الأوربي يعد مدى محدودًا للغاية أو أن هذه الأنظمة ليست جاهزة للتشغيل بصورة كاملة.

لقد بدأ تاريخ الملاحة عبر الأقمار الصناعية بتشغيل القمر الصناعي السوفيتي "سبوتنيك 1" في أكتوبر عام 1957؛ ذلك

الحـدث الـذي نقـل الحـرب البـاردة نحو مجـال الفضـاء الخارجـي. وقد نجح العاملـون فـي "مختبـر الفيزيـاء التطبيقيـة" فـي جامعـة "بالتيمـور" -وهـو مركـز العلـوم الهندسـية التابـع للجيـش الأمريكـي- بعـد ذلـك بوقـتٍ قليـل فـي الكشـف عـن الموضـع الدقيـق لصـاروخ الأعـداء المنطلـق فـي الفضـاء وذلـك انطلاقًـا مـن محطاتهـم الثابتـة. وكتـب أحـد أوائـل المؤرخيـن لتاريخ نظـام "جـي بـي إِس""GPS" قائـلًا: "بعـد أن أثبتـت هـذه الطريقـة كونهـا طريقـة فعالـة للغايـة، أصبـح مـن المقتـرح العـودة لتطبيق هـذا الإجراء من أجـل تحديـد المواضـع على سـطح الأرض"[56]. أي أن مهمة الأقمـار الصناعية الأمريكيـة الأولـى -التـي تـم إطلاقهـا فـي الفضـاء في مطلـع السـتينيات- قد أصبحـت مـن ثـمَّ متمثلـة فـي تحديـد أماكـن السـفن لأغـراض عسـكرية في بـادئ الأمـر (ولأغـراض مدنيـة بـدءًا من عـام 1967 أيضًا). جلب هذا الشـكل فـي الملاحـة -بالمقارنـة بتحديـد المواقـع عبـر الموجـات اللاسـلكية الـذي تمتـع بمكانـة قويـة منـذ مطلـع العشـرينيات- منافـع عديـدة ومنهـا علـى سـبيل المثـال أن معـدل تعرضـه للأعطـال أقـل ونسـبة دقتـه أكبـر وتقييمـه للبيانـات أبسـط ولديـه مدى تشـغيل أكبـر.[57]

ونظـرًا لأن مـدار أول قمـر صناعـي أمريكـي "ترانزيـت" كان يقـع علـى ارتفـاع منخفـض إلـى حـد مـا -علـى ارتفـاع نحـو 1100 كيلومتـر

56- Sender (1978), S. 318.

57- Vgl. Krüger (1978), S. 105.

فـوق سـطح الأرض- فقـد ارتبـط بهـذا النـوع مـن الملاحـة بعـض العقبـات؛ ومنهـا أن تحديـد مواقـع السـفن كان لا يتـم سـوى لمـدة سـاعة ونصـف السـاعة تقريبًـا بسـبب أن الرؤيـة كانـت متقطعـة عبـر القمر الصناعـي. كما أنـه لـم يكـن مـن الممكن علـى الإطـلاق تحديد موقع وسـائل النقل الأسـرع مـن السـفن مثـل الطائـرات أو الصواريـخ وذلـك بسـبب تقنيـة نقـل الإشـارة المسـتخدمة. ولهذه الأسـباب عكفت وزارة الدفاع الأمريكية منذ وقتٍ مبكر بالفعـل علـى إجراء محاولات بأقمـار صناعية، يقع مدارها على مسـافة أعلى بالأسـاس، وعلـى الاسـتعانة بتقنيـة نقـل متغيرة. وبـدءًا من العـام 1973، بدأ برنامـج جديـد وكان اسـمه كامـلًا: "الملاحـة عبر الأقمـار الصناعيـة بالتوقيت والمـدى – نظـام التموضـع العالمي" (NAVSTAR GPS) وحـلَّ محل القمر الصناعـي "ترانزيـت". وبعـد فتـرة اختبـار، جـرت علـى أرض ولايـة "أريزونا"، تـم فـي فبرايـر 1978 إطـلاق أول قمـر صناعـي، بلـغ ارتفـاع مـداره مـا يربو علـى 20 ألـف كيلومتـر. وفـي عـام 1985 انطلقت عشـرة أقمـار صناعية من الجيـل الأول لنظـام "جـي بي إِس" إلـى الفضاء بالفعـل. وكان كل منها يحمل سـاعة ذرية مدمجة. كان كل قمر صناعي يرسـل باسـتمرار الموقع المتواجد فيـه والزمـن الدقيـق لرحلتـه بسـرعة الضـوء إلى الأرض. أي أن تحديد مكان المتلقي على سـطح الأرض كان يتم عن طريق التنسـيق عبر إشـارات زمنية. وكان جهـاز الاسـتقبال يحتـاج إلى قياس زمني عن طريـق ثلاثة أقمار صناعية فـي سـبيل تحديد خـط الطول ودائـرة العرض وارتفـاع الموقـع، بينما يصحح

القمـر الصناعـي الرابـع الفـرق بين وقت الإرسـال المتزامن ووقت الاسـتقبال المتزامـن. يعـد من الضروري وجود أربعة وعشـرين قمرًا صناعيًّا في مدارات مختلفـة فـي الفضـاء مـن أجـل القيـام بهـذه القياسـات الزمنيـة الأربعـة في الأرض فـي كل وقـت وفـي كل مـكان ومن أجـل الوصول إلى تحديـد للمكان بصـورة دقيقـة خلال متـرات قليلة. عندما بـدأت الولايات المتحـدة وبصحبة ثمانـي دول فـي حلـف شـمال الأطلسـي "الناتو" (كانـت من بينهـا جمهورية ألمانيـا الاتحاديـة) فـي مشـروعها العالمـي لتحديـد الأماكـن، افتـرض النـاس أن النظـام سـيكون صالحًـا للعمـل تمامًـا في النصـف الثاني مـن الثمانينيات علـى أقصـى تقديـر. بيـد أن كارثـة تحطـم مكـوك الفضـاء "تشـالنجر" فـي مسـتهل عـام 1986 أدت إلـى انقطـاع البرنامـج لمدة ثلاث سـنوات. ولم يتم إرسـال أقمـار صناعيـة مـن الجيل الثانـي إلى المـدارات بصـورة كافية إلا في عـام 1994 مـن أجـل ضمـان اسـتمرار وظيفة تحديـد الأماكن المنتشـرة على نطـاق واسـع. والآن يوجـد فـي الفضـاء الخارجي اثنـان وثلاثون قمـرًا صناعيًّا نشـطًا يعمـل بنظام "جي بـي إس".

تعـد حقيقـة أن "نظـام التموضـع العالمـي" قـد صمـم فـي بـادئ الأمــر لأغــراض اســتراتيجية عســكرية حقيقــة ذات أهميــة بالنســبة لتاريــخ خدمــات تحديــد المــكان والاســتخدام الحالــي لهــا. فالتحليــل التشــخيصي الشــهير، الــذي أجــراه "فريدريــش كيتلــر" ومفــاده أن الاســتخدام اليومــي للوســائط الإلكترونيــة يعــد فــي نهايــة المطــاف

"سوء استخدام لأجهزة الجيش"[58]، ينطبق أيضًا بحق على تقنية تحديد الأماكن. فقد كان التاريخ المعرفي لتحديد المواقع في القرن العشرين موجودًا بأكمله في بؤرة التقنية العسكرية وذلك بدءًا من الأشكال الأولى لاستخدام الرادار أثناء الحرب العالمية الأولى مرورًا بتحسين تحديد المواقع عبر الموجات اللاسلكية أثناء الحرب العالمية الثانية والوصول به لدرجة مثالية ووصولًا إلى الملاحة عبر الأقمار الصناعية في أوج الحرب الباردة. حيث كان من شأن أدوات تحديد الأماكن أن تحدد موضع سفن وطائرات وصواريخ الأعداء في وقتٍ مبكر وبصورة موثوق بها قدر الإمكان، وأن توجه الأسلحة في حالات الطوارئ نحو الهدف بصورة دقيقة قدر الإمكان. يحدد هذا المنطق في التنافس الشديد بين الكتلة الغربية والكتلة السوفيتية أسلوب العرض البلاغي في جميع الكتابات الأولى المؤلفة عن تقنية "جي بي إس" حديثة النشأة. حيث ورد في مقال منشور عام 1978 في الهيئة الألمانية المتخصصة المعروفة باسم "تحديد الأماكن والملاحة" أنه "من المهم ضمان عدم التعرض لمضايقات بسبب الأعمال العسكرية للأعداء" وأوضح كاتب المقال "أن عدد الأربعة وعشرين قمرًا صناعيًّا كان عددًا مرتفعًا" على نحوٍ يثير الاندهاش وذلك في ما يخص خدمة "جي بي إس" المزمعة "مع الأخذ في الاعتبار" أنه يجب القيام بـ"حماية أكيدة ضد الأسلحة

58- Kittler (1986), S. 149.

المضـادة للأقمـار الصناعيـة". وقد أكد أحد ممثلي الهيئـة الاتحادية للتقنيات العسـكرية فـي العـدد ذاتـه الصـادر مـن هـذه المجلـة أنـه من شـأن النظام الجديـد لتحديـد المواقـع –مقارنـة بالقمـر الصناعـي السـابق "ترانزيت"- أن يقضـي علـى "قابليـة التعـرض لمحـاولات الخـداع التـي يقـوم بهـا الأعـداء". كمـا أكـد عميـد فـي سـلاح البحريـة –في أحـد طبعـات المجلة الصـادرة في وقـتٍ لاحـق- علـى التطابـق بين التغطيـة الكاملة المنشـودة للكـرة الأرضية عـن طريـق الأقمـار الصناعيـة التـي تعمـل بنظـام "جـي بـي إس" وبيـن "التمتـع بدرجـة عاليـة مـن الحصانـة المنيعـة"[59]. إن الملاحـة عبـر الأقمـار الصناعيـة تعـد بالدرجـة الأولـى –وهـو أمـر لا يشـكك فيـه مطـورو "نظـام التموضـع العالمـي" ومـن تطرقـوا إليـه بالتعليـق فـي بـادئ الأمـر- بمثابـة إحـدى تقنيـات شـن الحـروب بصـورة مسـتترة وإن اقتضت الضـرورة –أيضًا- شـن الحـروب بصـورة نشـطة. وبالاتسـاق مـع ذلـك، اسـتخدمت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة نظامهـا الخـاص بتحديـد المواقـع -والـذي لـم يكـن صالحًـا للتشـغيل بصـورة تامـة بعـد- بطريقـة ممنهجـة أيضًـا للمـرة الأولـى فـي حـرب الخليـج الثانيـة عامـي 1990 و1991. كان تحديـد المواقـع موجهًا نحـو وسـائل النقـل والأسـلحة. ولـم يكـن ثمَّة تصـور بعـد –في تلـك الحقبة المبكـرة مـن اسـتخدام هـذا النظـام- أنـه ربمـا يكـون مـن الممكـن –أيضًـا-

59- Freiesleben (1978), S. 66, Ernst (1978), S. 409, Tjardts (1982), S. 150.

تحديد موقع الأفراد عن طريق إشارات نظام "جي بي إسٍ".

وبالإضافـة إلى الاسـتخدام العسـكري الرئيس لهذه الخدمـة، فقد وضعت وزارة الدفـاع الأمريكيـة منـذ البداية فـي اعتبارها –أيضًا- الاسـتخدام المدني المحـدود والاسـتخدام التجـاري لـ"نظـام التموضع العالمي" وذلـك على تردد إرسـال ثـانٍ، كان مـن المفتـرض أن يقـدم تحديـدًا للمواقـع بصـورة أقـل دقة بكثيـر. غيـر أن هذه الإشـارة قد أثبتـت عند تجربتها في مسـتهل الثمانينيات أنهـا دقيقـة للغايـة وكان مـن الواجب أن تتعـرض بطريقـة اصطناعية لعملية تشـويش مـن قبـل محطة التحكـم الأرضي للدفـاع الجوي والواقعـة في ولاية "كولـورادو". وبعـد التشـغيل التام للنظـام تعين توفير التـردد الثاني من أجل ملاحـة السـفن والملاحـة الجوية وذلك فـي إطار "خدمة التموضع القياسـية" وبدقـة لتحديـد المواقـع بلغـت قرابـة مئـة متـر. جاء هـذا علـى العكس من نظـام "خدمـة التموضع الدقيقة" المقتصر على الاسـتخدام العسـكري والذي كان يُمنِّـي بتحقيـق دقـة تبلـغ قرابـة عشـرة أمتـار. أي أن هـذا الازدواج كان محـددًا بالفعـل منـذ المرحلـة الأولى مـن التخطيـط لخدمة تحديـد المواقع (ويجـب اعتبـار أن الحكايـة التـي تظهـر بانتظـام فـي المنشـورات الأمريكية المتناولة لتاريخ نظام "جي بي إس" –ومفادها أن إسـقاط طائرة ركاب تابعة للطيـران الكـوري فـي المجـال الجـوي السـوفيتي عـام 1983 بعـد أن حادت عـن مسـار الرحلـة هو وحده مـا دفـع "الرئيس "ريجـان" المصـدوم والمتأثر

عاطفيًّا بصورة عميقة"[60] إلى أن يقترح يومًا بعد يوم استخدام تقنية "جي بي إس" لأغراضٍ مدنية أيضًا- بمثابة ضعف في ذاكرة المؤلفين له دوافع أيديولوجية).

عندما تمكن "نظام التموضع العالمي" في منتصف التسعينيات من ضمان توفير تحديد المواقع بصورة مستمرة ومنتشرة على نطاق واسع، أطلقت وزارة الدفاع الأمريكية "خدمة التموضع القياسية" الأقل دقة –في بادئ الأمر لمدة عشر سنوات- للاستخدام المجاني في أغراض مدنية. أدى هذا الإجراء لبذل أولى محاولات قياس مساحات الأراضي وإدارة النقل وملاحة المركبات في الحركة المرورية وذلك عن طريق تحديد المواقع بالاعتماد على خدمة "جي بي إس". غير أن نهاية التقييد الاصطناعي للإشارات المدنية وفرت مقومات الاستخدام الشامل للخدمة. فقد أعلن الرئيس "كلينتون" بالفعل عام 1996 –بتعليماتٍ مباشرة منه- عن رغبته في "دعم" استخدام "نظام التموضع العالمي" في المستقبل "في سياقاتٍ تجارية وعلمية في العالم بأسره". إلا أنه كان ما زال يتحدث عن إيقاف المدى المحدود للإشارات "في غضون عَقد من الزمن"[61]. غير أن الأبحاث المجراة في نظام الملاحة عبر الأقمار الصناعية "جاليليو" الممول من

60- يمكن ذكر Beukers (1995), S. 24 كمثال.

61- Presidential Decision Directive NSTC-6 (28.03.1996), fas.org /spp /military /docops /national /gps.html.

الاتحـاد الأوربـي –وهـي الأبحـاث التـي بدا أنهـا أصبحت على وشـك الانتهاء علـى أعتـاب الانتقـال إلـى القـرن الحـادي والعشـرين (وحتـى اليوم لـم يتم تشـغيل هـذا النظـام بصـورة كاملـة تمامًا)- قـد دفعـت الحكومـة الأمريكية فـي الأول مـن مايـو عـام 2000 بالفعـل إلـى إيقـاف عمليـة التشـويش الاصطناعـي علـى إشـارة "جـي بـي إس" فـي يـوم وليلـة -بالمعنـى الحرفـي للكلمـة- ودون أن تعلـن عـن هذا. لقد أعلن أحد المتحدثين باسـم الحكومة الأمريكيـة فـي مؤتمـر صحفي تـم تنظيمه في وقـتٍ قصير قائـلًا: "من النادر أن يتمكـن شـخص مـا مـن أن يضغـط علـى زر؛ فيصبـح فجـأة أحـد الأجهـزة التـي تمتلكونهـا أنتـم أكثـر قيمة مـن لحظة لأخـرى". لقد ارتبط السـبب في أن تطلـق الولايـات المتحـدة الأمريكيـة نظـام تحديـد المواقـع الخـاص بهـا للاسـتخدام لأغـراض مدنيـة تمامًـا -قبل أربع سـنوات مـن المهلـة المخططة لذلـك- بالتوقعـات الاقتصاديـة المأمولـة فـي التقنيـة الجديدة؛ فقـد ورد في البيـان الصحفـي أن "سـوق تطبيقـات وخدمـات نظـام "جي بـي إس" يتحرك اليـوم فـي نطـاق المليـارات ويتضاعـف كل عاميـن أو ثلاثـة أعـوام. أي أن الآفـاق التوسـعية ضخمـة ونحن نريد أن نضمن أن تسـتفيد الأعمال التجارية فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة مـن هـذا"[62]. لقـد أثبـت هـذا التنبـؤ

62- The White House, Office of the Press Secretary, Press Briefing, 1 May 2000, clinton6.nara.gov /2000 /05 /200001--05-press-briefing-on the-global-positioning-system.html.

صحته بدرجةٍ كبيرة على مدار السنوات الخمس عشرة الأخيرة. ونظرًا للحضور الطاغي لإجراءات تحديد الموقع في كل مكان، فقد أصبح طيّ النسيان أن كل نظرة يتم إلقاؤها على خريطة لإحدى المدن في جهاز هاتف ذكي وكل تفعيل لتطبيقات "أوبر" و"تيندر" وتطبيق تحديد المواقع على "فيس بوك" يتأسس على هذا القرار السياسي الذي تم اتخاذه عام 2000.

في طريق تحديد مواقع الأفراد:

يمكن التعرف على ثلاثة محاور متعاقبة لاستخدام تقنية تحديد المكان في تاريخ تلك التقنية منذ نهايات القرن العشرين: كوسيلة استراتيجية في أوقات الحروب (الباردة) وكأداة لمراقبة وملاحقة مرتكبي الجرائم وكأحد أشكال التواصل اليومي في الثقافة الرقمية. وبإلقاء نظرة على اتساع نطاق مجموعات المستخدمين لتقنية تحديد المكان، ربما يمكن -أيضًا- قول إن إجراءات تحديد المكان إلكترونيًّا كانت تُستخدَم في بادئ الأمر من قبل الجيش فحسب ومن ثمَّ من قبل الشرطة والقضاء في المقام الأول وأصبح يستخدمها في السنوات العشر الأخيرة كل شخص يمتلك هاتفًا ذكيًّا.

كان من الممكن في تلك الأثناء وفي وقتٍ مبكر بالفعل إدراك بوادر التحول الأول لتلك التقنية من كونها أداة حرب إلى أن

أصبحت أداة مستخدمة في البحث عن المطلوبين جنائيًّا وأداة عقابية. ففي نهاية الستينيات وقبل نشأة تقنية "جي بي إس"، بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية المقترحات الممنهجة الأولى لاستخدام نظام تحديد "موقع المركبات الآلية" في المدن الكبرى. كان من الضروري آنذاك أن يظل التطبيق التقني لتحديد موقع المركبات وركابها معتمدًا على طرق منهجية لتحديد الأماكن ذات تكلفة كبيرة وموجهة لامتدادات محدودة؛ ومنها على سبيل المثال إجراء "التقدير الاستدلالي للأماكن" -والذي لا يستطيع أن يقوم بتحديد موضع شيء ما إلا عن طريق ارتباطه بنقطة انطلاق معروفة- وكذلك استخدام نقطة مراقبة يتم ضبطها على نطاق واسع (مثلما يحدث عند التحصيل الآلي لرسوم استخدام الطرق) وتحديد المواقع عبر الموجات اللاسلكية على غرار تحديد مواقع السفن والطائرات. لقد تمثلت المجالات الأولى لتطبيق تقنية تحديد المكان هذه في تنظيم أسطول المركبات في النقل العام وإدارة النقل في الطرق السريعة التي تحدث فيها حركة سير كثيرة. غير أن استخدام الطريقة في الملاحقة الجنائية كان موضع نقاش منذ البداية. ففي أحد الملتقيات التي نظمتها هيئات النقل عام 1968 في واشنطن حول موضوع "خدمة تحديد مكان المناطق الحضرية العامة" -وهو ما عرف باسم مؤتمر "PULSE" والذي يعد اليوم بمثابة الفعل التأسيسي لمناقشة خدمة تحديد مواقع المركبات البرية- أصبح الاستخدام الجنائي لهذا الإجراء معروفًا بوضوح بالفعل: "ربما يكون من الممكن

"التنصت على" المركبات المشتبه بها ويمكن تعقب حركاتها عبر المدينة دون أن يكون لسيارة الدورية أي أثر لافت للأنظار. وهو الوضع الساري حتى الآن". واقترح المتحدث في المؤتمر قائلًا: "وكنوع من تحسين التقنية في المستقبل يتم تثبيت جهاز إرسال في الشخص المشتبه به نفسه؛ أي في حذائه على سبيل المثال"[63].

أصبح عمل الشرطة في السبعينيات والثمانينيات يعد -بالإضافة إلى جانب مراقبة حركة المرور في المدن الكبرى- بمثابة المجال الأشهر لتطبيق "خدمة تحديد مكان المناطق الحضرية العامة". فعلى سبيل المثال، ذكر تقرير بحثي نشرته وزارة العدل الأمريكية عام 1978 -عند حصر إمكانيات استخدام هذه الخدمة- بعض النقاط من بينها نقطة "الملاحقة والمراقبة والاستخدامات السرية". حيث كتب مؤلفو المقال: "تندرج ضمن التطبيقات الممكنة للتحديد الآلي لمواقع المركبات -أيضًا- محاولة تحديد موضع شحنة منقولة في المركبة". غير أنهم ذكروا على سبيل الحصر أن "الشروط اللازمة والمتعلقة بالدقة والمدى غير متوافرة في الوقت الحالي بعد". وأضافوا: "لو كان من شأننا أن نطور تقنية لتحديد المكان، تتطلب فقط جهازًا صغيرًا -يمكن تثبيته على الشحنة أو فيها- فإنه قد يكون من

63- Institute of Public Administration (1968), S. 28.

الاستشهاد منقول أيضًا عن Schwitzgebel (1971), S. 18

الممكـن إجـراء تحقيـق سـري"[64]. وبهذه الطريقـة، ربما يكون مـن الممكن إدانـة مهربـي المخـدرات أو موزعي البضائـع المهربة.

وعلـى الرغـم مـن هـذه الخيـالات الواهمـة الأوليـة، التـي دارت حـول إجـراء التحقيقـات، فإنـه مـن الملاحـظ أن تحديـد موقع المشـتبه بهـم تقنيًّا ظـل فـي الأيـام الأولـى لأعمـال تحديـد الأماكـن مـن قبـل الشـرطة بمثابـة مجـال تطبيـق أساسـي لهـذه الخدمـة. كان الهـدف الملـح يتمثـل فـي بـادئ الأمـر فـي تحديـد مواضـع أسـطول المركبـات الخـاص بالشـرطة بصـورة آليـة وذلـك فـي سـبيل تهيئـة شـعور أكبـر بالأمـان لـدى موظفـي الخدمـة الشـرطية. كمـا احتلـت معاييـر مثـل "الأمـان" و"التنظيـم المثالـي"[65] مـكان الصـدارة فـي المقـالات الأولـى المنشـورة فـي جريـدة الشـرطة الألمانيـة المتخصصـة والتـي تناولـت ضـرورة وجـود تقنيـة لتحديـد الأماكـن. وكان مـن شـأن التحديـد الآلـي للأماكـن أن يجعـل الاتصـال بيـن سـيارات الدورية وقيـادة العمليـات –الـذي كان يتـم حتـى ذلـك الوقـت لغويًّا عبـر الموجات اللاسـلكية- أكثـر سـهولة فـي المسـتقبل؛ علمًـا بـأن رئيـس أكاديميـة قيـادات الشـرطة الألمانيـة -وهـو واحـد مـن أنشـط المدافعيـن عـن التقنية

64- Hansen /Leflang (1979), S. 4.

65- Eylert (1982), S. B 13; Hansen /Leflang (1979).

وقد وصف –في ما يتعلق بتصور التحديد الآلي لأماكن المركبات- شعور الموظفين بالأمان بأنه "واحد من أكثر مجالات الاستخدام العاجلة".

انظر كذلك (1978) Fogy وهو يعد على الأرجح أول مقال مكتوب بالألمانية عن هذا الموضوع.

الجديدة- قد طرح سؤالًا عما إذا كان الموظفون المتواجدون في السيارات التي يتم تحديد مكانها "يشعرون بأنهم مراقبون وخاضعون للسيطرة وأنهم منقادون بصفة مستمرة"[66]. لقد طوَّر قادة الشرطة علاقة حساسة مع تخزين البيانات وتحديد الأماكن وذلك في العَقد الذي تمت فيه مقاطعة التعداد السكاني في ألمانيا والذي أثمر عن "حق تقرير المصير المعلوماتي" المنصوص عليه في الدستور.

لم تكن ألمانيا قد شهدت في منتصف الثمانينيات بعد تحديد أماكن مرتكبي الجرائم المفترضين عن طريق وسائل المساعدة التقنية. وعلى النقيض من ذلك، بدأت هذه الممارسة لعملية التحقيقات تفرض نفسها في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك على الرغم من نطاقها المحدود ومن دقة تحديد الأماكن عبر الموجات اللاسلكية. فذلك الأمل الذي نما عام 1978 -ومفاده "أن يتطلب" إجراء تحديد الأماكن "فقط جهازًا صغيرًا، يمكن تثبيته على الشحنة أو فيها"- قد تحقق بعد أقل من عشرة أعوام. تم هذا على الأقل من ناحية أنه أصبح من الممكن تثبيت أجهزة إرسال -تعمل بالموجات اللاسلكية ويبلغ مداها بضع مئات من الأمتار- بصورة غير ملحوظة على بضاعة مشكوك بها وأصبح من الممكن مراقبة طرق سفر المشتبه بهم وذلك انطلاقًا من سيارة عمليات مدنية على مقربة منها. وتعد اليوم بعض نصوص الأحكام،

66- Peitz (1987), S. 361.

التـي أصدرتهـا "المحكمـة الأمريكية العليا" (وهـي تعتبر المعـادل الأمريكي للمحكمـة الدسـتورية الاتحاديـة الألمانيـة)، بمثابـة مصـدر تاريخـي تنـاول بدايـات هـذه الممارسـة لعمليـة التحقيقـات؛ حيـث كان علـى المحكمـة العليـا فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة أن تصـدر فـي مطلـع الثمانينيـات حكمًـا للمـرة الأولـى بشـأن الإباحـة القانونيـة لأعمـال تحديـد المـكان التـي تقـوم بهـا الشـرطة. وفـي سـابقتين مماثلتيـن، وقعتـا عامـي 1983 و1984، رفـع شـخصان مدانـان- تمـت إدانتهما عن طريـق مثل "جهـاز الإخطار الذي يصـدر صافـرة إنـذار" هـذا بوصفهما مصنعي مـواد مخدرة- دعـوى ضد عدم دسـتورية الوسـيلة التـي لجـأت إليهـا الشـرطة عنـد تنفيـذ العمليـات. كان أحدهمـا رجـل يدعـى "ليـروي نوت" وقد حـدد المحققون مـكان معمله عن طريـق جهاز إرسـال يعمـل بالموجات اللاسـلكية وكان موضوعًا على حاويات مـادة "الكلوروفـورم" التـي تـم نقلهـا. وبعـد ذلك بعـام تم إلقـاء القبض على "جيمـس كارو" بعـد تفتيـش منزلـه وهـو التفتيش الـذي تم كذلك بنـاءً على معلومـات صـادرة مـن "جهـاز إخطـار يصـدر صافـرة إنـذار، كان مثبتًـا علـى أدوات يسـتخدمها.[67]

إن العلامـة الفارقـة الكبـرى فـي كتابـات وممارسـات الشـرطة هـذه تتمثـل فـي أنـه للمـرة الأولـى فـي سـياق أعمـال التحقيقـات لـم يعـد الأمـر متعلقًـا بتحديـد موقـع وسـائل النقـل أو الأسـلحة فحسـب، بـل – أيضًـا- بالأفـراد. فقـد أصبـح الإنسـان هـو هـدف المجهـودات المبذولـة

67- انظر مناقشة كلتا الواقعتين لدى Hall (1985), Heft 2 , S. 27-30.

فـي خدمـات تحديـد المواقـع. وعندمـا أصبـح بعـد ذلـك -فـي منتصـف التسـعينيات- الاسـتخدام المدنـي المحـدود للملاحـة عبـر الأقمـار الصناعية ممكنًـا باسـم "نظـام التموضـع العالمـي"، صـار تطبيـق تكنولوجيـا تحديـد المـكان لأغـراض البحـث الجنائـي يتوسـع بسـرعة. ففـي عـام 1995 علـى سـبيل المثـال تـم في المجلـة الدولية، التي تم تأسيسـها حديثًا باسـم "حلول GPS"، تقديـم بعـض المناطـق المدنيـة التـي يجـرى فيهـا تطبيـق "التتبـع فـي الزمـن الحقيقـي". وتمثـل أبـرز مثـال ذكـره المؤلفـون علـى ذلـك فـي "التحديـد السـري الـذي تقـوم بـه مواقع الشـرطة لموقـع أحد المشـتبه بهم فـي قضيـة جنائيـة". وأضـاف المؤلفـون أن إدارة شـرطة مدينـة "كولـورادو سـبرينغس" تـدرس "إلـى أي مدى يمكن أن تسـاعد تقنية "جـي بي إس" في تقليـل معـدلات الجريمـة وتيسـير أعمـال الشـرطة المحليـة". حيـث تتعرض سـيارات المشـتبه بهـم، التـي يُفتـرض أنهـا تنقـل بضائـع مهربـة ومخـدرات، للمراقبـة باسـتمرار بواسـطة أجهـزة إرسـال تعمـل بنظـام "جـي بـي إس". إنـه ارتقـاء تقنـي بطـرق البحـث الجنائـي لأفضـل مسـتوياتها وهـي الطـرق التـي كانـت تعـد حتـى ذلـك الوقـت -وفقًا لمـا ذكره أحـد موظفي الشـرطة المنقـول عنهـم- "مـن أكثـر الطـرق ذات التكلفـة الباهظـة مـن الناحيـة اللوجسـتية والأغلـى ثمنًـا عمومًـا". ووفقًـا لهـذا، فإنـه كان مـن الضـروري وجـود مـا يصـل إلـى خمـس سـيارات دوريـة مـن أجـل إتمـام التحديـد السـري الدائـم لموقـع مركبـة مـا مشـتبه بهـا. "إذا أصبـح لدينـا الآن نظـام يمكنـه تحديـد مـكان المجرميـن عـن بعد بشـكل موثـوق به، فسـيكون هذا

النظام من ناحية أكثر أمانًا ومن ناحية أخرى سنكون نحن بحاجة إلى عدد أقل بكثير من الزملاء لتتبع قضية واحدة"[68]. في الواقع، يعد البحث الجنائي والمراقبة بواسطة نظام "جي بي إس" بدءًا من أواخر التسعينيات إحدى الوسائل المستخدمة بصورة ثابتة في الطب الشرعي.

مفارقات تحديد المكان:

تُستخدَم تقنيات تحديد المواقع منذ ذلك الحين في الملاحقة الجنائية والقانون الجنائي في مجالين بصفة خاصة؛ ألا وهما: مراقبة المشتبه بهم عن طريق تثبيت أجهزة الإرسال بالسيارات أو الشحنة المنقولة في السيارة ومراقبة مرتكبي الجرائم المدانين -والذين لم (يعودوا) قيد الحبس- من خلال ما يسمى بقيود القدم الإلكترونية والتي أصبحت في السنوات الأخيرة تتخذ في المعتاد شكل ساعة يد مزودة بنظام "جي بي إس". وبتأمل النزاعات القانونية التي نشأت في ما يتعلق بطريقتي العمليات هاتين في الثلاثين عامًا الماضية، يصبح من الواضح للوهلة الأولى ما هو المجهود المبذول بصورة مشروعة في هذا الصدد والذي ترتبط به خدمة تحديد أماكن المجرمين المفترضين أو المدانين حتى اليوم. لقد أثيرت مناقشات سياسية ودستورية طويلة عما إذا كان

68- Lavrakas /Marshall (1995), S. 122; S. 124.

ينبغـي فهـم السـيطرة الدائمـة لإحـدى سـلطات الدولـة علـى التحـركات في الفضـاء المكانـي علـى أنهـا تدخّـل مفـرط فـي الحقوق الشـخصية للإنسـان. تثيـر هـذه الحساسـية الاهتمام، لا سـيما بالنظر إلى التردد والبسـاطة اللذين تسـتخدمهما خدمـات تحديـد الموقـع فـي الهاتـف المحمـول فـي الوقـت الحاضـر. أي أنـه كان هنـاك لمـا يقرب من عَقد انقسـام ملحـوظ في التعامل مـع أسـاليب تحديد الموقع: فمـن ناحية كان هناك تحديـد لأماكن المذنبين تتـم الموافقـة عليـه بنـاءً علـى شـروط صارمة وفـي مواقـف اسـتثنائية ومن ناحيـة أخـرى يقـوم مسـتخدمو الهواتـف الذكيـة بتحديـد أماكنهـم وهـذا الاسـتخدام يتمتـع بحضـورٍ طـاغٍ ويتـم إطلاقـه بضغطة زر.

لذلـك تعـد أحـكام السـوابق الجنائيـة سـالفة الذكـر والتـي أصدرتهـا المحكمـة الأمريكيـة العليـا (وحـالات مشـابهة وقعـت فـي المحكمـة الدسـتورية الاتحاديـة الألمانيـة) مـن منظـور حياتنـا اليـوم -أيضًـا- بمثابـة وثائـق ذات جـدوى؛ لأنهـا تُظهِـر الجهـد التـام الـذي يميـز التعامـل الجنائي القانونـي مـع أسـاليب تحديـد المـكان. إن موضـوع الدعـاوى الدسـتورية، التـي تقـدم بهـا "نـوت" عـام 1983 و"كارو" عـام 1984، تتمثـل فـي السـؤال عمـا إذا كان البحـث الجنائـي للشـرطة بواسـطة جهـاز تعقـب يعـد خرقًـا لـ"التعديـل الرابـع" للدسـتور الأمريكـي؛ أي خرقًـا لذلـك البنـد الإضافي الذي مـن شـأنه أن يحمـي "حق الشـعب فـي تأمين الشـخص والمسـكن والوثائق والممتلـكات مـن التفتيـش التعسـفي وإلقـاء القبـض التعسـفي والمصـادرة

التعسـفية" والـذي يبيـح "إصـدار أوامـر بمداهمـة المنـازل وبالحبـس فـي حالـة توافر سـبب قانوني مشـفوع بقسـم أو تـم التثبت منه عـن طريق أداء القسـم فحسـب". تـم إدراج هـذه الفقرة في الدسـتور الأمريكي عـام 1791، أي قبـل وقـت طويـل مـن شـيوع الوسـائط الإلكترونيـة واسـتخدامها فـي المجـال الشـرطي. وكان علـى المحكمـة الأمريكيـة العليـا علـى مـدار القـرن العشـرين أن تقـرر مـرارًا وتكـرارًا كيف تكـون العلاقة بين ممارسـات البحث الجنائـي الجديـدة المدعومـة بالوسـائط التقنيـة وحقـوق الشـخصية الثابتة. حيـث دارت قضيـة "أولمسـتيد" فـي عـام 1928 حـول سـؤال هـل يتعيـن اعتبـار المراقبـة الشـرطية لهاتـف أحـد المشـتبه بهـم عـن طريـق التنصـت علـى خـط الهاتف الموجـود خارج المنـزل بمثابة "تفتيش تعسـفي" مخالف للدسـتور. لقـد أصـدرت المحكمـة الأمريكية العليـا حكمها بأن هـذه التقنية فـي التحقيـق تعـد مشـروعة؛ لأن مـكان الحصـول علـى المعلومـات لم يكن متواجـدًا فـي غرفـة المعيشـة، التـي تنعـم بالحمايـة والتحصيـن، وإنمـا فـي المجـال المفتـوح لأعمـدة خطـوط الهاتـف (إنهـا لحظـة مثيـرة للاهتمـام فـي تاريـخ الوسـائط التقنيـة حيـث إن القنـوات التقنيـة مثـل خطـوط الهاتـف لـم تكـن، علـى ما يبـدو، تعتبـر فـي الفهـم القانوني في عـام 1928 امتـدادًا للحيـز الداخلـي للفـرد وإنمـا وسـيلة مسـتتبة للفصـل بيـن المجـال الخـاص والمجـال العـام)[69]. إلا أن هـذا الكيـان الخـاص للوسـائط التقنيـة

69- Larkin (2013), S. 3.

والمنصـوص عليـه قانونًـا تضـاءل بنـاءً علـى حكـم بـارز أصدرتـه المحكمـة الأمريكيـة العليـا فـي عـام 1967 وهو الحكم الـذي تمت فيـه الموافقة على دعـوى رفعهـا مجـرم مـدان اسـمه "كاتز"؛ حيـث تـم التنصت علـى مكالماته الهاتفيـة التـي أجراهـا فـي كابينـة هاتـف عمومية عـن طريـق تثبيـت ميكروفـون فـي سـقف الكابينة. لقـد رأى القضـاة أن هذه الممارسـة لعملية التحقيقـات تعـد مخالفـة للدسـتور؛ لأن المسـتخدم لكابينـة هاتـف يحق له أن ينتظـر التمتـع بالخصوصية. كما أن التنصت علـى المكالمات الهاتفية عن طريـق وسـائط تقنيـة يعـد مـن الناحيـة القانونيـة بمثابـة مـرادف للاختراق المـادي الـذي يقوم به المحققـون لمجال ينعم بالحمايـة والتحصين. ونصت حيثيـات الحكـم الـواردة فـي قـرار المحكمـة، الـذي كثيـرًا ما تتم الاستشـهاد بـه منـذ ذلـك الوقت، علـى أن البند الإضافـي الرابع "يحمي الأشـخاص وليس الأماكن"[70].

وبالتحديـد الآلـي لمـكان المشـتبه بهـم أصبح هناك معنـى جديد لهذا المـأزق الناشـئ بيـن نـص قانونـي يرجع إلى أواخـر القرن الثامن عشـر وبين تقنيـة البحـث الجنائي التي يرجـع أصلها إلى أواخر القرن العشـرين. فقضيتا "نـوت" و"كارو" تعرضتـا فـي منتصـف الثمانينيـات إلـى مشـكلة هـل يعتبـر تثبيت أجهزة التعقب –التي يمكن لسـيارات الشـرطة المتواجدة على مقربة منهـا أن تسـتقبل إشـاراتها عـن طريـق الموجات اللاسـلكية- بمثابـة "تفتيش

70- منقول عن Hall (1985), Heft 2, S. 27.

تعسـفي" وهل يتطلب بالتبعية لذلك اسـتصدار أمر قضائي يسمح بالتفتيش. لقـد رفـض القضـاة بالإجمـاع الدعـوى الأولـى؛ لأن دلـو مـادة "الكلوروفورم" -الـذي دلَّ المحققيـن علـى أثـر وجـود معمـل تصنيـع المخـدرات الخـاص بالشـخص المـدان- كان مـزودًا بالفعـل بجهـاز إرسـال أثنـاء اتمـام الصفقـة بالفعـل وبعلـم البائـع ولـم يتـم تحديـد موقعـه إلا أثنـاء تواجـده خـارج المعمـل. وقيـل إنـه لا يمكـن لأحـد أن يتوقـع فـي الشـوارع العمومية وجود خصوصيـة بالمفهـوم المنصـوص عليـه فـي الدسـتور. إلا أنـه لـم يكـن هناك فـي قضيـة "نوت" تطرق لسـؤال عما إذا كان نقل الإشـارات من جهاز إرسـال فـي داخـل منـزل خـاص يقتضـي وجـود تفتيش حسـب المفهـوم الـوارد في "التعديـل الرابـع للدسـتور الأمريكـي" أم لا.

كان علـى المحكمـة الأمريكيـة العليـا أن تجـري تقييمًـا لهـذه الحالـة بعـد ذلـك بعـام. فعنـد إجـراء تحقيقات بشـأن "جيمـس كارو" أخفـى فريق البحـث الجنائـي جهـاز تعقـب فـي حاويـة بهـا مـادة "الأثيـر" الكيميائيـة وباعوهـا إلـى المشـتبه بـه عـن طريـق أحـد المخبريـن. وأصبـح مـن الممكـن فـي نهايـة المطـاف إثبـات إدانتـه عـن طريـق بيانـات تحديـد المـكان بيـن شـقته ومـكان إنتـاج المخـدرات. لقـد انتهـى القضاة فـي هذه القضيـة إلـى حكـمٍ آخـر؛ حيـث اعتبـروا أن الاسـتفادة مـن إشـارات تحديـد المـكان فـي منـزل أحـد المشـتبه بهـم يعـد "تفتيشًـا" بالمفهـوم الدسـتوري وبالتالـي لا غنـى عـن وجـود أمـر قضائـي رسـمي يسـمح بالتفتيـش. أي أنـه

كان من المهم هنا هل تسلل المحققون إلى الشقة بشخوصهم أو عن طريق وسيط تقني وهو أمر مشابه لقضية "كاتز". وفي هذا الصدد، يصبح صاحب الدعوى محقًّا ومع ذلك يتم الإبقاء على إدانته وعلى العقوبة الموقعة عليه؛ لأن الكثير جدًّا من المؤشرات الأخرى -التي تم الوصول إليها بصورة مشروعة- تشير إلى ما اقترفه من جرم.

ونتيجة لكلا هذين الحكمين الصادرين من المحكمة الأمريكية العليا، فقد فرض أحد المبادئ نفسه بشأن استخدام الشرطة في الولايات المتحدة الأمريكية لتقنية تحديد المكان. ينص هذا المبدأ على أنه يجوز تحديد مكان أحد المشتبه بهم لفترة طويلة ودون استصدار أمر قضائي يسمح بالتفتيش، طالما اقتصر الحصول على البيانات على المجال العام. ولا يمثل وضع جهاز إرسال في دلو به مادة "الكلوروفورم" -والذي تم نقله حسبما حدث في حالة "نوت" طوال بضع ساعات في السيارة- بمثابة "تفتيش تعسفي". بيد أن تهريب جهاز إرسال إلى منزل خاص يعد، على العكس من ذلك، "تفتيشًا تعسفيًّا" بالفعل. وقد مثلت سيارات المشتبه بهم ذاتها في منتصف الثمانينيات مجالًا لم يتطرق إليه أحد بالتوضيح؛ حيث أورد رجل القانون التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "FBI" "جون هال" في مقاله الاستعراضي الكبير عن إجراء تحديد المواقع: "إن المحكمة الأمريكية العليا لم تقرر حتى اليوم بعد هل يتعين اعتبار وضع جهاز إخطار يصدر صافرة

إنـذار علـى إحـدى السـيارات أو فيهـا بمثابـة تفتيـش بالمفهـوم الـوارد فـي البنـد الإضافـي الرابـع؟"[71].

غيـر أنـه مع شـيوع تقنيـة "جي بـي إس" -والتي يسـرت مراقبـة الأماكن ووسـعت نطاقهـا- أصبـح هذا الوضـع بالضبط بمثابة ممارسـة معتـادة تقوم بهـا الشـرطة. فـالآن لـم تعـد هنـاك ضـرورة لوجـود سـيارة عمليـات علـى مقربـة مـن المشـتبه بـه مـن أجـل أن تسـتقبل كل ثلاثيـن ثانية إشـارة جهاز الإخطـار الـذي يطلـق صافـرة إنـذار. فبصفـة مسـتمرة يرسـل جهـاز الإرسـال -الـذي يعمـل بنظـام "جـي بـي إس" ويعـادل حجمـه حجـم بطاقـة ائتمانية ويقـل وزنـه عـن خمسـين جرامًـا ويتـم تثبيتـه بصـورة غيـر ملحوظـة علـى سـيارة الشـخص الخاضـع للمراقبـة- بيانـات إلـى جهاز هاتـف محمول خاص با لمحققين .

وبنهايـة خـلاف قانونـي طويل الأمد وقع في الولايـات المتحدة الأمريكية -اسـتمر مـن عـام 2004 إلى عـام -2013 كان لزامًا على المحكمـة الأمريكية العليـا أن تفحـص مشـروعية هذه الطريقة فـي البحث الجنائـي. فمن جديد تمـت إدانـة أحـد منتجي مخـدر "الكوكاين"، وهو "أنطـوان جونز" الذي كان يملـك ملهـى ليليًّـا ويرجـع أصلـه إلـى واشـنطن. وحكـم عليه بالسـجن مدى الحيـاة؛ لأن بيانـات تحديـد المـكان الصـادرة مـن جهاز إرسـال يعمـل بنظام

71- Hall (1985), Heft 3, S. 27.

"جـي بـي إس" وكان مثبتًا فـي أسـفل سـيارته مـن طـراز "جيـب" –وكانـت فـي مجملها عبـارة عـن ألفـى صفحـة مطبوعـة- أثبتـت ارتكابـه للجريمـة بصـورة غيـر قابلـة للدحـض. صحيـح أن المحققيـن –فـي هـذه الحالـة- قدمـوا طلبًـا لاسـتصدار أمـر قضائـي لتثبيـت جهـاز الإرسـال؛ غيـر أن هـذا كان فـي غضـون حقبـة زمنيـة محـددة فحسـب ومـن أجـل تحديـد الأماكـن تقنيًّـا داخـل حـدود مدينـة "واشـنطن" فقـط. أمـا فـي حقيقـة الأمـر، فقـد اسـتمرت المراقبـة بالأسـاس لوقتٍ أطـول (لمـدة أربعة أسـابيع، بـدأت بعد يـوم مـن المهلـة المسـموح بهـا والتـي كانـت محـددة لمـدة عشـرة أيـام). كمـا شـملت المراقبـة منطقة أكبر؛ حيث شـملت ولايـة "ميريلانـد" بأكملها. لقـد قـرر قضـاة المحكمـة الأمريكيـة العليا في مطلـع عام 2012 أنـه يتعين فهـم الحصـول علـى بيانـات اسـتنادًا إلـى نظـام "جـي بـي إس" –فـي هـذه الحالـة- باعتبـاره "تفتيشًـا" في إطار مفهـوم التعديل الرابع لدسـتور الولايات المتحـدة الأمريكيـة ويعـد بذلك مخالفًا للدسـتور. وتمت إعـادة القضية إلى المحكمـة المختصـة. وفـي محاكمـة بـدأت مـن جديـد واسـتندت إلـى أدلة إثبـات أخـرى، تـم الحكـم علـى "أنطـوان جونـز" فـي مايـو عـام 2013 –أي بعـد قرابـة عَقـد مـن بـدء التحقيقـات- بالسـجن لمـدة خمسـة عشـر عامًـا وذلـك باحتسـاب العقوبـة التـي قضاهـا بالفعـل حتـى ذلـك الوقـت.

تُظهـر حيثيـات الحكـم فـي قضيـة "الولايـات المتحـدة ضـد أنطـوان جونـز" بوضـوحٍ كبيـر مـا هـي الديناميكيـات ومـا هـي الصدامـات

التـي تتولـد فـي الثقافـة الرقميـة عـن طريـق تقنيـة "جـي بـي إس" المتاحة فـي كل وقـت. فعندمـا نظـرت المحكمـة الأمريكيـة العليـا في تلـك الدعوى فـي نهايـة عـام 2011، كانـت خدمـات تحديـد الأماكـن فـي أجهـزة الهواتف الذكيـة تعـد بمثابـة حقيقـة حاضرة فـي كل وقت ومكان بالفعـل. لقد لاحظ قضـاة المحكمـة الدسـتورية هـذا التطـور بالطبـع وربطوا مـرارًا وتكـرارًا بين الطريقتيـن المختلفتيـن فـي التعامـل –أي الطريقـة الشـرطية والطريقـة التواصليـة فـي الحيـاة اليومية- وأسـاليب تحديـد الأماكن تقنيًّـا. وعلى الرغم مـن أن الحكـم في هـذه القضية –أي فـي المراقبة باسـتخدام نظام "جي بي إس" التـي قـام بها مكتـب التحقيقـات الفيدرالي الأمريكـي وبدأها في وقتٍ متأخـر واسـتمرت لفتـرة طويلـة بصـورة مبالـغ بها- جـاء بإجمـاع الآراء؛ فقد توصـل القضـاة التسـعة فـي رأيهـم الأساسـي عـن اسـتخدام الشـرطة لتقنيـة تحديـد المـكان إلـى تحليـلات تشـخيصية مختلفـة لدرجة أن الحكـم الصادر تضمـن ثـلاث حيثيـات مكتوبـة بصـورة منفصلة تمامًـا بعضها عـن بعض. إن الصرامـة، التـي تـم رفـض أداة البحـث الجنائـي الجديـدة بهـا، ارتبطـت أثناء ذلـك باختـلاف الأهميـة، التـي أولتهـا التحالفـات المختلفة للنص الدسـتوري الصـادر عـام 1791. أي أن نصـوص الأحكام كانت تدور حـول العلاقة الحرجة بيـن قـوة القانـون الدائمـة وواقع الوسـائط التقنيـة المتحول.

إن المجموعـــة التـــي تتكـــون مـــن القضـــاة الدســـتوريين الأربعـــة -الذيـن أصـدروا أيضًـا فـي عـام 2012 حكمًـا بالحظـر التـام للمراقبـة

باستخدام نظام "جي بي إس" دون استصدار أمر قضائي يسمح بالتفتيش- برهنت على ذلك الحكم في إطار فهمٍ قانوني أقرب إلى أن يكون خارجًا عن سياق التاريخ وأن يكون متشددًا. حيث إن هذا الفهم القانوني أعلن أن نص التعديل الرابع لدستور الولايات المتحدة الأمريكية يعد ساريًا دونما قيد، حتى وإن كان النص منبثقًا من واقع حياتي يرجع تاريخه إلى ما يربو عن مئتي عام. وأضافوا أن المبدأ الأعلى لقرارات المحكمة الأمريكية العليا يجب أن يتمثل في التأكيد -في القرن الحادي والعشرين أيضًا- على "الضمان الممنوح في القرن الثامن عشر للحماية من التعرض للتفتيش دون مبرر"[72]. بينما وضعت مجموعة ثانية مكونة من أربعة قضاة كذلك بالإضافة إلى القاضية "سوتومايور" -التي أصدرت بيانًا مستقلًّا- عدم ملاءمة البند الإضافي للعصر الحالي في بؤرة أفكارهم المطروحة ونادوا بأخذ الجانب التاريخي للنصوص الدستورية على محمل الجدية. حيث رأوا أنه يلزم تأمل التصنيفات القانونية ومنها "التفتيش التعسفي" على سبيل المثال انطلاقًا من خلفية ذلك "التحول التقني المثير" والذي "أصبح يميز نمط الحياة العام" مؤخرًا. فوفقًا للنتيجة، التي خلصت إليها هذه المجموعة المتحالفة معًا، فإن التطبيقات والأجهزة التقنية –التي تسمح على سبيل المثال بتسجيل حركات الأشخاص- "تكفل شعورًا أكبر بالراحة والأمان مع التنازل عن

72- United States V. Jones (2012), S. 10.

الخصوصيـة ويجـد الكثيـر مـن الناس أن هـذه الصفقة أمر مرغـوب فيه". إن أهـم تطـور جـرى فـي هـذا السـياق يرجع إلى مـا قام بـه القاضـي "صامويل أليتـو" الـذي ألـف النـص المكتـوب للحكـم الصـادر عـن مجموعـة القضـاة المغرديـن خـارج السـرب، حيـث إنـه حـدد علـى هاتفـه المحمـول خدمات "تسـمح لمسـتخدميها بتحديد الموضع الذي يتواجـدون فيه وكذلك الموضع الـذي يتواجـد فيـه الآخـرون وتعقب ذلـك الموضـع. ونحن نتحـدث هنا عن أكثـر مـن 322 مليـون جهـاز هاتـف ذكـي، توجـد فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة عـام 2011!" واسـتطرد "أليتـو" قائـلًا إن توافـر مثـل تلـك الأجهـزة واسـتخدامها "يـؤدي إلـى تغير التقدير الشـخصي للمسـتخدم العادي بشـأن معنـى الخصوصيـة تغيرًا مسـتمرًّا"[73].

كان القاضـي قـد صاغ في جلسـة اسـتماع للدعـوى الدسـتورية قبل ذلك ببضعـة أسـابيع تصـورًا مسـتقبليًّا أكثر تحديدًا لرأيه بشـأن هـذا التغيير قائلًا: "دعونـا نلقـي نظـرة علـى عشـر سـنوات فـي المسـتقبل؛ عندئذ سيسـتخدم تسـعون بالمئـة مـن النـاس وسـائل التواصل الاجتماعي وسـيكون لـكل منهم فـي المتوسـط 500 صديـق وسيسـمحون لهـؤلاء الأصدقـاء بتحديـد أماكنهم عـن طريـق الهواتـف المحمولـة لمدة 24 سـاعة يوميًّا وعلى مـدار 365 يومًا في السـنة. أي توقع عن الخصوصية سـيكون لدى الشـعب إذًا؟" وقد اعتبرت

73- United States V. Jones (2012), Alito, J., Concurring in Judgement, S. 11, 12, 13.

مجموعة هذا القاضي أن هذا الاتجاه للثقافة الرقمية في التعامل مع بيانات تحديد المكان يعد على وجه التحديد أهم حجة للتسليم بأن مراقبة المشتبه بهم بالاستعانة بنظام "جي بي إس" لمدة قصيرة وبصورة مرنة في المستقبل تتوافق مع الدستور، حتى وإن لم يكن هناك أمر قضائي يسمح بالتفتيش. وورد في النتيجة النهائية، التي خلص إليها "أليتو"، أنه "في ظل هذه الظروف تتوافق تقنية تحديد المكان، التي تستخدمها الشرطة، مع تلك التوقعات المطروحة بشأن الخصوصية والتي يراها مجتمعنا اليوم توقعات مناسبة"[74].

اقتراح أكثر شمولًا: ينبغي السماح للمحققين في القضايا المستقبلية بالاستعانة بتقنيات تحديد المكان على المدى القصير؛ لأن هذا الإجراء اندمج ثقافيًّا على كل حال في الحياة اليومية للتواصل الرقمي. فعن طريق استخدام خدمات تحديد المكان أصبح أغلب الناس يطبقون منذ وقت طويل وعن طيب خاطر ما كان من الممكن أن يعتبر انتهاكات للحق الشخصي، تقدم عليها ممارسة البحث الجنائي. لقد أكدت القاضية "سونيا سوتومايور" -التي ألفت منطوق الحكم الخاص بها ولكنها انحازت إلى التوصية بالحظر التام لتحديد موقع الأشخاص بالاستعانة بنظام "جي بي إس" دون وجود أمر قضائي يسمح

74- United States Petitioner V. Antoine Jones (2011), Oral Argument, S. 44.

بالتفتيـش- فـي حيثيـات حكمهـا أن مراقبـة أحـد الأشـخاص بنظـام "جي بي إس" يسـجل كمًّـا ثريًّـا مـن البيانـات؛ "تفاصيل ذات أهمية أسـرية وسياسـية ووظيفيـة ودينيـة وجنسـية". وأضافـت: "تتم إزاحة السـتار عن طـرق، يمكن لأي شـخص أن يتصـور طبيعتهـا الخاصـة بصـورة غيـر قابلـة للجـدل؛ مثـل زيـارات للطبيب النفسـي وطبيب التجميـل وعيادة إجـراء عمليات الإجهاض وطلـب المشـورة بشـأن مـرض الإيـدز والذهـاب لأحـد نـوادي العـراة أو إلى محامـي الدفـاع أو إلـى فنـدق تؤجـر حجراتـه بالسـاعة للعشـاق أو إلـى لقـاء نقابـي أو إلـى المسـجد أو المعبـد اليهـودي أو الكنيسـة أو إلـى حانـة يلتقـي فيـه الشـواذ... إلـخ"[75]. يلقـي هـذا التعـداد ذو النبـرة الصارخـة مـن ناحيـة الضـوء علـى خيالات قاضيـة بالمحكمـة الأمريكية العليا حول أوسـاط يسـودها التكتـم والسـرية أو أوسـاط فاضحـة. ومـن ناحيـة أخـرى، تثيـر هـذه القائمـة علـى الفـور تداعيـات تتعلـق بوظيفـة تطبيق "أماكن شـائعة" الموجـود فـي جهـاز "أيفـون 5 إس". حيـث تخـزن هـذه الخدمة –كما سـبق وصفـه- المناطـق التـي أقام فيها المسـتخدم على مدار سـتة أسـابيع مضت، مقسـمة تبعًـا للعنـوان وتاريـخ الإقامـة. يكـون هـذا فـي أغلـب الأيـام وفـي أغلـب السـير الذاتيـة بـلا شـك بمثابـة مجموعـة مـن البيانـات التافهـة: عـن الشـقة التـي يسـكنها المسـتخدم أو المكتب أو وجبـة الغذاء السـريعة التي

75- United States V. Jones (2012), Sotomayor, J., Concurring in Judgement, S. 3.

تناولها أو السوبر ماركت الذي يقع بالقرب منه؛ أي يكون هذا مثل محضر رسمي يسجل الحركات التي تحدث في الحياة المعتادة. لكن لعلَّ خدمة تحديد المكان تسجل بمثل هذا الصدق -أيضًا- كل ما يحدث من انحرافات عن المسار الطبيعي للحياة؛ ومنها على سبيل المثال المكان الذي يشهد بصورة متكررة مغامرات غرامية. وربما تكون البيانات الناتجة عن خدمة تحديد الموقع "أماكن شائعة" بالنسبة لزوجين، يشعران بالشك بعضهما في بعض، بمثابة مصدر موثوق فيه مثلما كان جهاز الإرسال، الذي يعمل بنظام "جي بي إس" والمثبت في سيارة من طراز "جيب" الخاصة بمنتج المخدرات، مصدرًا موثوقًا به بالنسبة للمحققين.

كان للحكم الصادر من المحكمة الأمريكية العليا بشأن دعوى "أنطوان جونز" في عام 2012 تأثيرات ملموسة على معايير البحث الجنائي لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي وذلك وفقًا لما أقر به "روبرت مولر" مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي بعد بضعة أشهر من إعلان الحكم. فمن بين قرابة 3000 قضية منظورة أمام المكتب -لجأت فيها الشرطة الأمريكية إلى المراقبة بنظام "جي بي إس"- كان من الضروري أن يتم الانتقال إلى طرق تحقيق أخرى في مئات عديدة من القضايا وذلك نتيجة للحكم الدستوري[76]. أي أنه على الرغم من الحضور الطاغي لأساليب تحديد المكان في الهاتف الذكي، فإن

76- Johnson (2012).

تحديـد المـكان بوصفـه إجـراءً تقنيًّـا جنائيًّـا لا يعـد منـذ ذلـك الحيـن ممكنًـا فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة إلا وفقًـا لشـروط خاصـة ولا بـدَّ أن يرتبـط بوجـود أمـر قضائـي يسـمح بالتفتيـش. لقـد أثـار خـلاف قانونـي مشـابه طويـل الأمـد، وقـع فـي ألمانيـا فـي عـام 2005، اتجاهًـا آخـر. حيـث تـم رفـض الدعـوى الدسـتورية الخاصـة بأحـد أعضـاء "الخلايـا المناهضـة للإمبرياليـة" -والـذي تـم إلقـاء القبـض عليـه فـي عـام 1996 بنـاءً علـى مراقبـة مركبتـه بنظـام "جـي بـي إس" وحكـم عليـه بالسـجن لمـدة ثلاثـة عشـر عامًـا بسـبب مشـاركته فـي هجمـات بمـواد متفجـرة- وذلـك بعـد أقـل مـن عشـرة أعـوام. تمثـل موضـوع الدعـوى المنظـورة أمام المحكمـة الدسـتورية الاتحاديـة الألمانيـة فـي سـؤال هـل تثبيـت جهـاز إرسـال يعمـل بنظـام "جـي بـي إس" فـي سـيارة الشـخص المشـتبه بـه يتوافـق مـع المـادة (ج) مـن البنـد المئـة والـذي لـم يتـم إدراجـه فـي قانـون الإجـراءات الجنائيـة إلا عـام 1992. حيـث كان هـذا البنـد ينـص فـي نسـخته آنـذاك علـى أنـه يجـوز "اسـتخدام الوسـائل التقنيـة للكشـف عـن محـل إقامـة الجانـي دون معرفـة الشـخص المعنـي بذلـك" وذلـك فـي حالـة أن "يكـون موضـوع التحقيـق جريمـة ذات أهميـة عظمـى". وانتهـى القضـاة الدسـتوريون فـي تقييمهـم للقضيـة إلـى نتيجـة أن اسـتخدام تقنيـة "جـي بـي إس" ينـدرج ضمـن أحـكام وحـدود المـادة (ج) مـن البنـد المئـة: "فـي المعتـاد، لا يصـل حجـم وشـدة التدخـلات فـي الحق العـام للشـخص بنـاءً علـى اسـتخدام أدوات المراقبـة التقنيـة إلـى المنطقـة الجوهريـة -غيـر القابلـة للمسـاس- فـي نظـام الحيـاة الخـاص. وهـذه

هـي الحـال هنا أيضًـا"[77]. وقـد صدَّقت المحكمـة الأوربية لحقوق الإنسـان علـى هـذا الحكم في عـام 2010.

أي أن المشـاكل المتعلقـة بإضفـاء طابـع شـرعي تشـكل جوهـر النقـاش الدائـر حـول اسـتخدام الشـرطة لـ"نظـام التموضـع العالمي". حتـى وإن كان القـرار بشـأن هـذه القضيـة يتـم اتخـاذه فـي إطـار المحققيـن -بخـلاف مـا حـدث فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بعـد ذلـك بسـبع سـنوات- فـإن حجـم منطـوق الحكـم ومـدى تعقيـده يظهـران بوضـوح كيـف يجـب أن تتمايـز نظـرة القانـون الدسـتوري إلـى القائميـن بإجـراءات تحديـد الموقـع وإلـى شـكل هـذه الإجـراءات. وفـي سـابقة أخـرى نـص حكـم، أصدرتـه محكمـة العـدل الاتحاديـة فـي عـام 2013، علـى أنـه يحـق للسـلطات التنفيذيـة للدولـة وحدهـا أن تحـدد أماكـن المجرميـن المشـتبه بهـم. وقـد حظـر هـذا الحكـم القيـام بمراقبـة أحـد المشـتبه بهـم باسـتخدام نظـام "جـي بـي إس" عـن طريـق شـرطة سـرية خاصـة.[78] إذًا مـن يحـق لـه بصـورة مشـروعة تحديـد الموضـع المكانـي للأشـخاص؟ وفـي ظـل أي أوامـر وشـروط مسـبقة يجـوز أن يحـدث هـذا؟ لقـد هـدأت حـدة الصـراع القانونـي الدائـر بشـأن "قاعـدة التمكيـن" مـن القيـام بتحديـد المـكان

77- Bundesverfassungsgericht, 2 BvR 581 /01 (2005).

78- Juris.bundesgerichtshof.de /cgi-bin /rechtsprechung /document.py?Gericht=bgh&Art=Pm&Datum=2013&sort=3&nr=64248&pos=0&anz=95.

تمامًا بفعل الأشكال التواصلية للثقافة الرقمية. فمن المعروف أن مستخدم أحد التطبيقات في جهاز هاتف ذكي مزود بتحديد آلي للموقع يمنح التطبيق قاعدة التمكين هذه بلمسة واحدة على شاشة الجهاز، التي تعمل باللمس، وذلك بإجابته بـ"نعم" لمرة واحدة على السؤال الظاهر ومفاده: هل يجوز للخدمة "استخدام موقعك الحالي"؟

قيود القدم الإلكترونية:

إذا كان تحديد أماكن الأفراد قد ارتبط حتى نهاية القرن العشرين دائمًا بموقف استثنائي، فقد لعب مجال تطبيقي آخر لهذه الخدمة – بالإضافة إلى التحديد الآلي لأماكن المشتبه بهم، كما سبق وأن ذكرنا- دورًا هامًّا؛ وقد تمثل في مراقبة مرتكبي الجرائم المدانين بالفعل عن طريق مجموعة من الأجهزة، التي اصطلح على تسميتها "قيود القدم الإلكترونية". ترجع بدايات استخدام هذا الإجراء إلى فترة أقدم من المرات الأولى لاستخدام أجهزة التعقب في البحث الجنائي الشرطي ويعود الفضل فيه إلى التعاون بين علم النفس والعدالة الجنائية. لقد انشغل "رالف شفيتسجيبيل" -وهو تلميذ "بورهوس فريدريك سكينر" العالم المتخصص في المذهب السلوكي في "هارفارد"- بدءًا من منتصف الستينيات ببنية "الإلكترونيات السلوكية"؛ أي بأجهزة الإرسال التي يتم تثبيتها على أجساد الأشخاص الخاضعين

للتجربـة والتـي تعيد باسـتمرار إرسـال معلومات عـن انفعالاتهـم إلى مختبر خـاص بالمراقبـة وذلـك عبـر موجـات لاسـلكية. لقد تخيَّـل " شفيتسـجيبيل"، علـى سـبيل المثـال، وجـود أجهـزة، يتعيـن بواسـطتها أن ينقـل مرضـى الإدمـان أو المجرمـون المفـرج عنهـم إلـى جهاز الإرسـال بضغطـة زر واحدة أي فكـرة تراودهـم عـن المخـدرات أو عـن ارتـكاب جرائـم جديـدة وذلـك فـي سـبيل إبـلاغ المختبـر فـي الزمـن الحقيقـي بديناميكيـة مـا يعتمـل فـي قـرارة أنفسـهم. ووفقًـا لـرأي "شفيتسـجيبيل"، فـإن هـذه الأجهـزة سـتفيد – كخطـوة أولـى- فـي المراقبـة المجـردة للمرضـى والمذنبيـن فـي بيئتهـم المعيشـية المعتـادة ولكنهـا سـتؤدي فـي نهايـة المطـاف مهمـة "التحكـم المباشـر فـي السـلوك"؛ فمـن الممكـن عـن طريـق التواصـل المسـتمر بيـن الأشـخاص الخاضعيـن للتجربـة والمختبـر عبـر الموجـات اللاسـلكية أن "يتـم قمـع التصرفـات، التـي يقـوم بهـا الأفـراد طواعيـةً، وأن يتـم اسـتثارة التصرفـات التـي لا يقـوم بهـا الأفـراد بمحـض إرادتهـم"[79]. وسـرعان مـا انصبـت الأبحـاث الخاصـة بـ"شفيتسـجيبيل" علـى إجـراء، لا يـدور حـول التفسـير النفسـي للإشـارات المسـجلة وإنمـا حـول تحديـد مـكان الأشـخاص المتعرضيـن للتجربـة بصـورة خالصـة. لقـد اسـتصدر "شفيتسـجيبيل" فـي عـام 1969 بـراءة اختـراع لـ*نظـام مـن أجـل التحكـم في السـلوك عـن طريق أسـورة يـد كمسـتقبل لإشـارات جهـاز الإرسـال*. وطبقًـا لنـص بـراءة الاختراع،

79- Schwitzgebel u.a. (1964), S. 233.

يتعين استخدام هذا النظام –الذي ينقل كل ثلاثين ثانية موضع من يرتدي أسورة اليد عن طريق إشارة الموجات اللاسلكية- في مراقبة "أفراد مختارين"[(80)]، وبصفة خاصة مرتكبي الجرائم المفرج عنهم والموضوعين تحت المراقبة.

لقد شدَّد "شفيتسجيبيل" في مقالاته الصادرة في هذه الأعوام مرارًا وتكرارًا على أن هذا الجهاز لا يمكن اعتباره سوى مشروع نموذجي مؤقت في ظل الظروف التكنولوجية المتوافرة. يزن جهاز الإرسال الذي يعمل بالبطارية والمربوط بقوة في أطراف الشخص، الذي يتم تحديد مكانه، نحو كيلوجرام. ولا يبلغ مدى محطات الاستقبال المتحركة، التي تعيد إرسال الإشارة إلى مركز التحكم الرئيس، سوى عشرات الأمتار القليلة. ولذا فإنه من الضروري إنشاء مجموعة كبيرة من هذه المحطات من أجل مراقبة الشخص الخاضع للتجربة في مربع واحد من الشارع فحسب. أجرى "شفيتسجيبيل" على مدار عدة أسابيع من العام 1969 سلسلة من التجارب بالاشتراك مع ستة عشر متطوعًا "من مجرم خطير، قضى ثمانية أعوام في السجن ووصولاً إلى رجل أعمال شاب لم يقترف أي جرم". وانتهى "شفيتسجيبيل" إلى نتيجة أن الحد الأقصى للمنطقة، التي يتعين تحديد موضعها، يضم "من خمس إلى ست مجموعات من صفوف المنازل في الشارع

80- Schwitzgebel /Hurd (1969).

وكذلـك داخـل أحـد المبانـي الكبيـرة"[81]. ولذلـك فقـد ظـل جهـاز "رالـف شفيتسـجيبيل" بمثابـة تمهيـد عابـر في تاريـخ قيـود القـدم الإلكترونية وقد دخـل طـي النسـيان بدءًا مـن مطلـع السـبعينيات. إلا أنه من المهـم لتأصيل صـور البشـر الرقميـة أن يسـتند الاسـتخدام –الـذي يعد الأقدم علـى الأرجح- لتقنيـة تحديـد المـكان فـي سـبيل تحديـد مواضـع بعض الأفـراد إلـى تقرير أحـد خبـراء علـم النفس التطبيقي أثناء اشـتراكه في مكافحـة الجريمة وذلك علـى نحـوٍ مشـابه لما حدث فـي التاريخ المعرفي للملف الشـخصي. يهدف تقريـر الخبيـر هـذا إلـى توجيـه وتصويـب سـلوكيات الأفـراد المضطربين أو المنحرفيـن عـن طريـق وسـائط تقنية؛ حيـث كان مصطلح "تعديل السـلوك" هو المصطلح المتخصص الذي وضعه "شفيتسـجيبيل" عنوانًا لكتابه الدعائي الكبيـر الصـادر فـي عـام 1971 والـذي تنـاول اسـتخدام "نظم إعـادة التأهيل الإلكترونيـة فـي سـياقات طـب النفـس وعلـم الأدلـة الجنائيـة"[82]. لقـد أكد عالـم النفـس -فـي أثنـاء ذلك- مـرارًا وتكـرارًا على الدافـع الإنسـاني لأبحاثه. ففـي العهد، الـذي تميز في الولايـات المتحدة الأمريكية بالزيادة المأسـاوية المفرطـة فـي عـدد أماكـن السـجن وبـدأ فيـه البحـث عـن نمـاذج بديلـة لتنفيذ العقوبات، ينبغي أن تسـاهم الأجهزة –حسـبما كتب "شفيتسـجيبيل" بصـورة قاطعـة- فـي أن يـدرك النـاس أن السـجون كانـت تعد "فـي ما مضى

81- Schwitzgebel (1969), S. 10.

82- Schwitzgebel (1971).

بمثابـة متاحـف شـاهدة علـى انعـدام الإنسـانية فـي الماضـي"[83]. إلا أن هـذه النزعـة الإنسـانية كانـت مقترنـة بالتعامـل الصـارم لعلـم النفـس السـلوكي المعيـاري مـع الـذات. كمـا اتضـح أن الأسـس العرقيـة المزعومـة -حسـب مذهـب "فوكـو"- التـي يسـتند إليهـا القيـام بإصـلاح فـي العقوبات المفروضـة، تعـد فـي المقـام الأول جهـدًا مبـذولاً فـي سـبيل بلـوغ كفـاءة أكبـر لتلـك العقوبـات؛ حيـث نـص المبـدأ الرئيـس لـ"شفيتسـجيبيل" عـام 1964 بالفعـل علـى أنـه "إذا كان مـن الممكـن التنبـؤ بدقة بالسـلوك المميز لمرتكبـي الجرائـم فـي البيئـة المحيطة بهم ومراقبـة هذا السـلوك، فلن يعد الحبـس وسـيلة ضروريـة مـن أجل السـيطرة علـى مرتكبـي الجرائـم وحماية المجتمـع"[84].

يرجـع السـبب فـي أن تكتسـب فكـرة تحديد موقـع الأشـخاص المذنبين بصـورة إلكترونيـة شـكلًا محـددًا فـي نهايـة السـبعينيات للمـرة الثانيـة وأن تـؤدي -أيضًـا- إلـى ممارسـة عقابيـة توصـي بهـا الدولـة -على ما يبـدو- إلى مطالعـة أحـد رجال القانـون الأمريكيين فـي مدينة "ألباكركـي" لأحد نصوص الرسـوم المصـورة. فقـد أذاع قاضـي المقاطعـة "جـاك لاف"، علـى الأقـل في أحاديثـه، قصـة أن رسـمًا مصـورًا قصيـرًا لشـخصية "سـبايدرمان"، والمنشـور فـي أحـد الصحـف -وقـد ثبـت فيـه الوغـد "كنـج بنـج" جهـاز إرسـال خـاص

83- Schwitzgebel (1969), S. 12.

84- Schwitzgebel u.a. (1964), S. 237.

بتحديد المكان في ذراع البطل الخارق "سبايدرمان"- قد ألهمه بتصوره عن التحديد الآلي لموضع مرتكبي الجرائم المدانين. حيث قال "كنج بنج" في أحد المشاهد منتشيًا بالنصر: "إن أسورة اليد الضخمة هذه هي عبارة عن جهاز رادار إلكتروني، يسمح لي في كل وقت أن أحدد مكانك! ولن تستطيع حتى بقواك السحرية أن تنتزعها! وحده مفتاح الليزر الخفي الخاص بي هو ما يستطيع انتزاعها"[85]. فلو انعكست هذه العلاقة بين الخير والشر –مثل الفكرة العابرة التي خطرت في عقل "جاك لاف" عند قراءة نص الرسوم المصورة- ربما تنتج عن هذا وسيلة يمكن استخدامها خارج أماكن السجن المُثقلة بما يفوق قدراتها.

85- Bleedingcool.com /2012 /06 /24 /when-spider-man-invented-electronic-tagging /; Timko (1986), S. 15, Fox (1987), S. 131ff.



الرسم المصور لشخصية "سبايدر مان" الصادر في أغسطس عام 1977 والذي يقال إنه ألهم أحد القضاة في "نيو مكسيكو" بتصميم قيود القدم الإلكترونية.

وعلى ما يبدو أن محاولات "شفيتسجيبيل" قبل عشر سنوات لأن يستعين بـ"الإلكترونيات السلوكية"، لم تكن معروفة بعد للقاضي "جاك لاف". إلا أن "شفيتسجيبيل" لم يكن قد طرأ بباله أن يوسع نطاق تحديد المكان ليشمل الحي بأكمله وإنما كان يفكر فقط في بديل تم تطويره إلكترونيًّا لأحد الأشكال العقابية القديمة والمتمثل في "الإقامة الجبرية" ولذلك فقد كان التنفيذ التقني للإجراء الخاص به لتحديد الموقع أكثر سهولة وأكثر عملية.

اجتهد "جاك لاف" بعد سنوات من مطالعته الاستهلالية

للرسـوم المصـورة علـى تطبيـق هـذا النمـوذج البديـل لتنفيذ العقوبـة. أيده فـي ذلـك تمـرد خطيـر، حـدث فـي أحـد السـجون فـي الحـي الـذي كان يقطـن فيـه. ووفقًـا لرواياتـه، فقـد حـاول لوقـتٍ طويـل بـلا جـدوى أن يقنع بضـع شـركات كمبيوتـر كبـرى بتطويـر الأجهـزة النموذجيـة لذلـك. إلا أن أحـد العامليـن فـي هـذه الشـركات بـدأ بصـورة مسـتقلة فـي تركيـب أجهزة إرسـال تعمـل بالموجـات اللاسـلكية وبحجـم علبـة السـجائر وأسـس شـركة تحـت اسـم "NIMCOS" (وهـو اختصار لاسـم "خدمـات المراقبـة والتحكم للسـجن الوطنـي"). وفـي عـام 1983، أجـرى "لاف" فـي بـادئ الأمـر بنفسـه محاولـة –اسـتمرت لثلاثـة أسـابيع- على جهاز إرسـال وضعه في سـاقه وذلك لكـي يختبـر مـدى إمكانيـة الوثـوق بنقـل الإشـارات عـن هـذا الجهـاز. وبعد الحصـول علـى التصريـح القانونـي لاسـتخدام هـذا الإجـراء فـي ولايـة "نيـو مكسـيكو"، حكـم القاضـي "جـاك لاف" فـي شـهر أبريـل مـن العـام نفسـه علـى أول مجـرم –كان فـي الثلاثيـن مـن عمـره واختـرق الأوامـر المفروضـة عليـه أثنـاء وجـود في فتـرة تحت المراقبـة- بأن يوضـع قيد الإقامـة الجبرية لمـدة أربعـة أسـابيع وأن يخضـع أثناء ذلـك لمراقبـة إلكترونية. وفي الأشـهر التاليـة، تلقـى فـي المجمـل خمسـة أفـراد فـي مدينـة "ألباكركـي" -اخترقـوا الأوامـر المفروضـة عليهـم أثنـاء وجودهـم فـي فتـرة تحـت المراقبـة- مثـل هـذا النـوع مـن المعاقبـة بالحرمـان مـن الحريـة وذلـك قبـل أن تتوقـف التجربـة بسـبب موانـع تقنيـة ومشـاكل مالية تعرضـت لها الشـركة المنتجة. غيـر أنـه فـي الوقـت نفسـه تقريبًـا، بـدأت فـي مدينـة "بالـم بيتـش" فـي

ولايـة "فلوريـدا" محاولـة شـبيهة عـن طريـق إقـرار عقوبـات وضـع الأفـراد تحـت المراقبـة لمـدد قصيرة أو تحويـل المدد المتبقية مـن عقوبات الحبس المقـررة بالفعـل إلـى إقامـة جبريـة يتـم إخضاعهـا للمراقبـة الإلكترونيـة. وقـد اعتبـر المؤرخـون القانونيـون أن هـذا الإجـراء يعـد أول كشـف آلي عن المـكان "يعمـل بكامـل طاقتـه"[86] في تاريـخ تنفيذ العقوبات. لقد سـار هذا النظـام، علـى مـا يبـدو، بصـورة موثـوق بهـا جـدًّا فـي "فلوريـدا" لدرجـة أن انتشـر اسـتخدامه سـريعًا. ففي عـام 1988، أدرجـت ثلاث وثلاثـون ولاية في الولايـات المتحـدة الأمريكية بالفعل اسـتخدام "قيود القـدم الإلكترونية". أما فـي أوربـا فقد بـدأت أولى محاولات لاسـتخدام هذا النموذج فـي عام 1989 فـي بريطانيـا العظمـى وبعدهـا بخمس سـنوات في السـويد.

كان مجـال المراقبـة -فـي وقـت بدايـة القيـام بتحديـد أماكـن مرتكبـي الجرائـم المدانيـن- مقصـورًا علـى الشـقة التـي يسـكنها المذنبـون. وبعـد انتشـار نظـام تحديـد المواضـع تقنيًّـا فـي نهايـة الثمانينيـات، أصبـح جهـاز الإرسـال المثبـت فـي معصـم اليد أو في الكاحـل –الذي كان وزنـه لا يتجاوز مئـة جـرام فقـط بعـد[87]- ينقـل بانتظـام إشـارات عبـر الموجات اللاسـلكية. وهـي الإشـارات التـي كانـت تصل –عبـر جهاز اسـتقبال موجود فـي صندوق الهاتـف- إلـى أجهـزة كمبيوتـر محطـة التحكـم التابعـة لأحـد السـجون. كان

86- Jolin /Rogers (1990), S. 202.

87- Fox (1987), S. 133.

مـدى هـذه الإشـارات يبلغ قرابة سـتين متـرًا. لقـد تنوعت إمكانيـات تطبيق النظـام مـع شـيوع اسـتخدام تقنيـة "جي بـي إس" منذ منتصف التسـعينيات وفـي المقـام الأول مـع زيـادة دقـة الإشـارة التي أصبحـت متاحة للاسـتخدام علـى الصعيـد المدنـي بـدءًا مـن العـام 2000. فأصبـح الآن يكفـي لرصـد الموضـع الدقيـق للمذنـب فـي كل الطـرق، التـي يسـلكها، أن يتـم تثبيـت جهـاز إرسـال صغيـر الحجـم علـى جسـد المذنـب. لقـد أصبـح حلـم "رالف شفيتسـجيبيل" حقيقـة. حيـث أصبـح مـن الممكـن أن يتـم تصميـم إجـراء تحديـد المـكان فـي ظل هذه الظـروف وفقًا لحالـة المذنب المحـددة تمامًا وبرمجتـه عبـر مناطـق، يشـملها الإجـراء وأخـرى يسـتثنيها بعـد تحديدهـا بدقـة؛ فهنـاك شـخص خاضـع للمراقبـة وثبتـت إدانتـه ولـم يعد يحـق له أن يقتـرب مـن مسـكن حبيبتـه السـابقة. وهنـاك -أيضًـا- الشـخص ذو الميـول الاسـتعراضية الـذي تـم إطـلاق سـراحه ووضعه تحـت المراقبة والـذي يجب عليـه أن يتجنـب الاقتـراب مـن كل المـدارس ودور ريـاض الأطفـال ومناطـق ألعـاب الأطفال.

لقـد نوقـش تصور القيـام بـ"المراقبـة الإلكترونية أثناء تحديـد الإقامة" – وهذا هو الاسـم الرسـمي لتلك الممارسـة العقابية- في اجتماعات القضاة في ألمانيا للمرة الأولى في مطلع التسـعينيات. وفي عام 1997، أسـس المجلس الاتحـادي الألمانـي -متأثرًا بالتجـارب النموذجية الأوربيـة الكثيرة- مجموعة عمل تحت اسم "الإقامة الجبرية الخاضعة للمراقبة الإلكترونية" والتي أوصت

فـي تقريرهـا الختامـي بتجربـة ذلـك الشـكل العقابـي كبديـل متـاح لعقوبة الحرمـان مـن الحريـة التـي تسـتمر مـن شـهر إلى سـتة أشـهر. ولم تتـم أبدًا الموافقـة علـى مسـودة القانـون التي حملـت الاسـم ذاتـه والتـي ناقشـها البرلمـان الاتحـادي في عـام 1999 (حيث نقـل البرلمان الاتحـادي صلاحيات قانـون السـجون إلـى الولايـات علـى حدة فـي عـام 2006). ومع ذلـك كانت "هيسـن" أول ولايـة اتحاديـة تطبـق -بـدءًا مـن العـام -2000 طريقـة تجنب الحبـس الاحتياطـي وتوقـف تنفيذ ما تبقى مـن العقوبة. وطبقًا للمشـرعين، فإنـه مـن المفتـرض بذلـك "أن تتـم بصـورة أفضـل مراقبة هل يتبع الشـخص المـدان التعليمـات بالإقامـة فـي شـقته أو عـدم الإقامـة فيهـا فـي توقيتـات محـددة وذلـك مـن أجل جعلـه يعتاد على روتيـن يومي منظـم". يتم تطبيق هـذه الطريقـة المنهجيـة فـي ولاية "هيسـن" علـى قرابـة سـبعين مذنبًا كل عـام. ووصـل إجمالي عدد الحـالات، التي تم تطبيق هـذه الطريقة المنهجية عليهـا حتـى عـام 2010، 709 أشـخاص[88]. إنهـا أعداد تثبـت أن تحديد مكان الأشـخاص تقنيًـا عنـد تنفيـذ العقوبات فـي ألمانيا يعد شـكلًا عقابيًا ظل نادر الاسـتخدام لوقـتٍ طويل.

إلا أن مهمــة الحكــم، الــذي أصدرتــه المحكمــة الأوربيــة لحقــوق الإنسـان، تمثلـت فـي ذلـك الوقـت فـي إيجـاد منطقـة قانونيـة جديـدة لتنفيــذ تقنيــة "جــي بــي إس" ولزيــادة عــدد المذنبيــن الذيــن تتــم

88- Bundestagsdrucksache 17 /3403 (2010).

مراقبتهـم بهـذه الطريقـة. لقد أعلنت محكمة "ستراسـبورج" فـي عام 2009 أن الحجـز الاحتـرازي بعـد انتهـاء فتـرة الإقامـة فـي السـجن، التـي تسـتمر لمـدة تزيد على عشـر سـنوات، يعد أمرًا لا إنسـانيًّا. ويواجـه الجهاز القضائي فـي ألمانيـا وبلـدان أخـرى تقريبًـا من يـومٍ لآخر بسـؤال كيف قـد يكون من الممكـن السـيطرة فـي المسـتقبل على السـجناء الذين قضوا وقتًـا طويلًا في الحبـس وتـم الإفـراج عنهـم بصـورة مفاجئـة. تـم بسـبب ذلـك -بسـرعة غير معتـادة- إدراج فقـرة إلـى "اللائحـة الجديـدة لقانـون الحجز الاحتـرازي" في قانـون العقوبـات. وهـي الفقـرة التـي دخلـت حيـز التنفيـذ فـي مطلـع عام 2011 بالفعـل. ويقـول أحـد القانونييـن المشـاركين فـي وضـع هـذه الفقـرة إنهـا جـاءت نتيجـة لـ"السـعي إلـى جعـل آليـة مراقبـة الأشـخاص –الذيـن كانـوا فـي ما سـبق قيـد الحجز الاحتـرازي وأصبحـوا يتمتعون بالحريـة- أكثر كفـاءة"[89]. إن إحـدى "القواعـد التنظيميـة المرافقة لتلك الفقـرة" والمتأصلة فـي القانـون تختـص بالتحديـد الآلـي لأماكـن الأشـخاص الذين قضـوا بصورة تامـة عقوبـة الحرمـان مـن الحريـة لمـدة ثلاثـة أعـوام علـى الأقـل أو تـم الإفـراج عنهـم بعـد الاعتقـال الوقائـي. ويمكـن أن يتـم تقديـم تعليمـات لهـؤلاء الأشـخاص بـأن يحملـوا دائمًـا الوسـائل التقنيـة اللازمـة لمراقبـة محـل إقامتهـم إلكترونيًّـا وهـي فـي وضـع الجاهزيـة للتشـغيل وبـألا يؤثروا

89- Brauneisen (2011), S. 312.

سلبًا على وظائفها[90].

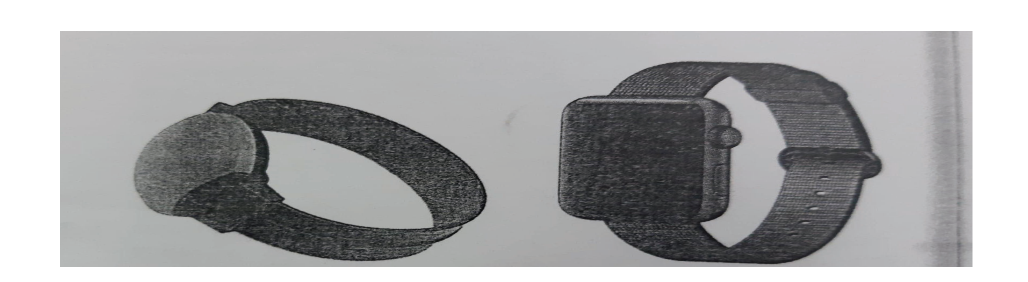
لقـد ورد فـي مقـال نقدي تناول فـي عام 2000 إجـراءات تحديد المكان التـي بـدأت فـي ولايـة "هيسـن": "مـن حيـث المبـدأ، يفتقـر هذا الأمـر إلى جهـاز هاتـف محمـول يتـم تشـكيله علـى هيئـة قيـد إلكترونـي"[91]. ربمـا يمكـن القـول إن هـذا التكهـن –الـذي تمـت صياغته علـى نحـوٍ متهكم- قد تحقـق. إلا أن هـذا لا يعـد بمثابـة مرحلـة أخـرى علـى طريـق الوصـول إلـى نظـام مراقبـة اسـتبدادي والـذي حذر منه مؤلفـو المقال. حيث يعـد الهاتف الذكـي فـي الوقت الحاضر بلا شـك أداة منتشـرة على نطاق واسـع تسـتخدم لتحديـد الأماكـن وتسـجل كل حركـة لمسـتخدم الهاتـف الذكـي فـي الفضـاء المكانـي. غيـر أن الهاتـف الذكي يتبـع منطقًا مختلفًا تمامًـا عن منطق "قيود القـدم الإلكترونيـة"؛ فهـو لا يعـد وسـيلة لفرض عقوبـة من سـلطة الدولة أو الشـرطة وإنمـا يعـد أحد دعائـم تمكين الـذات المتاحـة مجانًـا. ومما يلفت الأنظـار بصفـة خاصـة، تلك العلاقـة المتناقضـة التي تتحقق في "سـاعة آبل" المطروحـة مؤخـرًا فـي الأسـواق. فمنـذ عهـد "شفيتسـجيبيل"، كانـت أجهزة الإرسـال المسـتخدمة لتحديـد أماكـن المذنبيـن كثيـرًا مـا تُثبَّـت فـي معصم اليـد مثلمـا كانـت تُثبَّـت فـي كاحـل القـدم بالضبـط. وعندمـا نقـارن بيـن

90- Strafgesetzbuch, §68b Weisungen; http: / /dejure.org /gesetze /StGB /68b.html

91- Nogala /Haverkamp (2000), S. 35.

الأساور المستخدمة عند تنفيذ العقوبات لتحديد المكان و"ساعة آبل"، يتضح تشابه مفاجئ بينهما من حيث التصميم. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تستخدم الأوصاف الرسمية لجهاز الإرسال الخاص بالمراقبة الساعة مرارًا وتكرارًا بوصفها مرجعًا لها؛ حيث ورد في أحد التعليقات القانونية على قانون عام 2011 أنه "من المعتاد أن يتم وصف المراقبة الإلكترونية في وسائل الإعلام باعتبارها "قيود القدم الإلكترونية". غير أن هذا الوصف يعد وصفًا مضللًا. ففي شكل المراقبة الإلكترونية، الذي تحقق الآن على يد المُشرع، لا توجد الكثير من القواسم المشتركة بين أداة المراقبة الإلكترونية والقيود. فالشخص الخاضع للتجربة لا يتم تقييده. وإنما يكون بالأحرى ملتزمًا فقط بأمر قضائي يتمثل في ارتداء جهاز، يبدو مثل ساعة يد كبيرة ويوضع دائمًا في وضع الجاهزية للتشغيل (ويكون مثبتًا) على جسده"[92].

92- Brauneisen (2011), S. 312. انظر أيضًا مقارنة الجهاز بساعة اليد لدى Kunze (2008), S. 34.



يوجد في يسار الصورة جهاز المراقبة الإلكترونية لمرتكبي الجرائم (2009) وفي يمين الصورة توجد ساعة "آبل 1" (2015).

إنهما جهازان مزودان بتقنية "جي بي إس" في ذراع الناس: أحدهما يعد وسيلة تحكم، يستخدمها القضاء ويقول عنه النقاد إن خطره الأعظم يكمن في "وصم" من يرتديه في البيئة، التي يعيش بها، عن طريق علامة ملحوظة. أما الآخر فهو عبارة عن رمز للوضع الاجتماعي، استحق أن يقف الناس طوال الليل في طوابير انتظار في أول يوم لطرحه للبيع في أبريل عام 2015 أمام مئات الزبائن من نيويورك أو لندن أو طوكيو وذلك من أجل أن يكون كل منهم واحدًا من أوائل من ينفقوا أربعمئة يورو من أجل اقتناء ذلك الجهاز. من المؤكد أن الاختلافات بين أسورة مراقبة تُستخدَم بأمر قضائي -والتي كانت تعني في بادئ الأمر حبس الشخص المعني في شقته- وجهاز اتصال يقتنيه الناس بأنفسهم ويمكن استخدامه دونما أي قيد، تعد اختلافات شاسعة. حيث يظهر هذا الاختلاف بالفعل -من ناحية تقنية الإشارات بصورة مجردة- في

أن خدمات تحديد المكان في الهاتف الذكي أو في الساعة الذكية تستقبل البيانات فقط (ويجب أن يدعو المستخدم بنفسه لإعادة إرسال مكان إقامته). أما مجموعة الأجهزة المستخدمة لأغراض البحث الجنائي فتقوم بالاستقبال والإرسال معًا. ومع ذلك، يبقى السؤال مطروحًا عن معنى الرغبة الجماعية في مراقبة الذات وتحديد مكان الذات في السنوات العشر الأخيرة بالنسبة لوضع الذات في الوقت الحاضر. إن "جهاز الهاتف المحمول المصمم على هيئة قيود إلكترونية" -والذي كان يعد في عام 2000 بمثابة تصور مستقبلي مخيف- يعتبر اليوم حقيقة ليست ذات شأن. بيد أن هذه القيود لا تثير انطباعًا بأنها مقيدة للحرية وإنما باعثة على التحرر ولها دور اجتماعي ومساهمة في تشكيل الهوية. ويمكن ملاحظة أوضح دليل على وجود اختلاف بين كلا الجهازين في أن المذنب يكون مرغمًا على ارتداء جهاز الإرسال الخاص بالتحكم أما خاصية تحديد المكان في الهاتف الذكي فيستخدمها مستخدم الهاتف الذكي عن طيب خاطر. إلا أن هذا الفارق ليس فظًّا وقاطعًا حسبما يبدو للوهلة الأولى؛ فهناك ميول للتقارب بين كلا الطرفين. فمن ناحية جعلت جميع القوانين الأمريكية والأوربية تقريبًا المتعلقة بالمراقبة الإلكترونية أثناء تحديد الإقامة في السنوات الثلاثين الأخيرة موافقة الشخص المعني شرطًا لتطبيق تلك المراقبة (يندرج ضمن عناصر فعالية هذه التقنية العقابية –التي استشهد بها الكثيرون- أنه يجب أن تكون

مرغوبًا *فيها* مـن المذنـب وذلـك خلافًـا لعقوبـة السـجن)[93]. ومـن ناحيـة أخـرى، فإنـه يتعين جعل جانب تحديد الشـخص لموقعه على الهاتف الذكي بمحـض إرادتـه أمرًا نسـبيًا؛ نظـرًا لأن تأثيرات وظائف تحديـد المكان –ومنها علـى سـبيل المثـال خدمـة "أماكـن شـائعة" سـالفة الذكـر- كثيـرًا مـا تختفي فـي الطبقـات الأعمـق من نظام التشـغيل وتصبـح غير مرئية للاسـتخدام في الحيـاة اليوميـة. إن إيقـاف مسـتخدمي الهواتـف المحمولـة لوظيفـة خدمـة تحديـد المـكان يرتبـط بالكثير من الجهد ويسـتبعد المسـتخدمين من البنى التحتيـة القائمـة علـى نطـاق واسـع. أي أن الرغبة الطوعية فـي تحديد الفرد لمكانـه عبـر الهاتـف المحمـول وحتمية ذلك الأمر يتشـابكان معًا باسـتمرار.

لقــد رأى "رالــف شفيتســجيبيل" أن مهمــة الأجهــزة النموذجيــة –التــي صممهــا- كانــت تكمــن فــي الســتينيات فــي "تصحيــح ســلوك" المرضــى والمجرميــن. وقــد تمثلــت هــذه الرغبــة بعــد ذلــك بنصــف قـرن –أيضًـا- فـي بـؤرة اسـتخدام قانـون العقوبـات للمراقبـة الإلكترونيـة. حيــث يــرى المشــرعون أن جهــاز الإرســال المثبــت علــى ذراع أو ســاق شــخص مذنــب، تــم الإفــراج عنــه بعــد البقــاء قيــد الحجــز الاحتــرازي لمــدة طويلــة، يعــد "الإمكانيــة الوحيــدة لإحــداث تأثيــر فــي توجيــه

93- Önel (2012), S.6 وهذا هو السبب أيضًا في عدم رفع دعاوى دستورية بعد ضد "قيود القدم الإلكترونية" مثلما حدث في حالة التحديد السري لأماكن المشتبه بهم.

السلوك بشكلٍ مناسب"[94]. لكن ما أهمية هذه الفئة التصنيفية لسعي الثقافة الرقمية الحثيث نحو تحديد الفرد لمكانه؟ وأي "توجيه للسلوك" ينطلق من الخدمات الداخلية والتطبيقات الإضافية الموجودة في الهواتف الذكية والساعات الذكية التي تحدد الموضع المكاني لمستخدمها عشرات المرات في اليوم وتعيد إرسال هذا الموضع؟ بالمقارنة بالمتطلبات الصارمة للمراقبة الإلكترونية لمرتكبي الجرائم المدانين، فإن معدل تحديد الأشخاص للأماكن تقنيًّا يعد أكثر حدوثًا بكثير في التواصل اليومي. وهكذا يتم على سبيل المثال "استثناء" شقة الشخص المعني "بالأساس من المراقبة وذلك باعتبارها مكانًا لا يدخل في إطار البيانات التي يتم جمعها"[95] وهو ما ينص عليه "قانون إعادة تنظيم حق الحجز الاحترازي". يعد هذا شرطًا مقيدًا، من شأنه أن يكفل التطابق بين تحديد المكان بصورة مستمرة والحقوق الأساسية مثل "حق تقرير المصير المعلوماتي". أي إذا كان المذنب متواجدًا في شقته الخاصة، فلا يجوز إنشاء ملفات تفصيلية عن تحركاته فيها. إن جمع المعلومات يتقلص في هذه الحالة ليقتصر على معلومة أنه متواجد في الشقة فحسب. ومرارًا وتكرارًا، يلعب السؤال، عما إذا كانت أول عملية ضبط لجهاز الإرسال والاستقبال في شقة الشخص الخاضع للمراقبة

94- Brauneisen (2011), S. 312.

95- §463a Abs. 4S. 1 Hs. 2 StPO.

تعد بمثابة اختراق للحقوق الشخصية، دورًا أيضًا في النقاش القانوني لهذا الإجراء العقابي.

أي أن تحديد مكان مرتكبي الجرائم، الذي يرتبه القانون، يعد – باستخدام المفردات اللغوية لفقه القضاء- أقل "تدخلًا في حياة الفرد"[96] بكثير من تحديد الفرد لمكانه في الهاتف الذكي. وهو ما يؤدي إلى التناقض في وقتنا الراهن في أن تبدو الأوضاع الديستوبية الناتجة عن عملية تسجيل البيانات التامة –التي كانت هناك مخاوف من حدوثها حتى نهاية القرن العشرين- قد تحققت ولم تتحقق في الوقت نفسه. لقد صمم العالم المتخصص في علم البحث الجنائي "توماس فيلتيز" في مقاله الصادر عام 1988 "سيناريو ذا رؤية مستقبلية" عن "ارتكاب الجرائم والسيطرة الاجتماعية في القرن الحادي والعشرين"؛ حيث حاول في هذا السيناريو أن يتصور الممارسات العقابية في المستقبل أي في عام 2017 وذلك "انطلاقًا من خلفية التطورات الراهنة" ومنها على سبيل المثال المراقبة الإلكترونية أثناء تحديد الإقامة. وكالمعتاد في الخيال العلمي، فإن الصور المستقبلية توضح في المقام الأول شيئًا عن الزمن الذي تم تصميمها فيه؛ فصحيح أن "فيلتيز" كان يتمتع بحدس جيد للتغيرات التقنية المقبلة –ومنها أنه قال: "لقد أصبحت أجهزة الإرسال التي يتعين حملها في اليد أو القدم أصغر حجمًا شيئًا فشيئًا بينما أخذ مداها يكبر أكثر

96- Redlich (2005), S. 369.

فأكثر"- إلا أنـه لـم يكـن مـن الممكن تصور شـروط الاسـتخدام، التـي تكهن بهـا، سـوى باعتبارهـا تعزيـزًا لذلـك الشـعور الجمعـي بالخـوف مـن عمليـة تسـجيل البيانـات. وهـو الشـعور الـذي خلـف أثـرًا مميـزًا فـي الثمانينيـات. إن الطريـق، الـذي تخيلـه "تومـاس فيلتيـز"، كان يـؤدي مـن كارت صغيـر عبـارة عـن جهـاز إرسـال يحملـه كل إنسـان معـه باسـتمرار-وكان عبـارة عن وسـيلة لتحديـد الهويـة وتحديـد المـكان فـي آنٍ واحـد- إلـى شـريحة توضع أسـفل فـروة الـرأس "يتعيـن تبديلهـا كل عشـرة أعـوام وتهـدف فقـط إلـى فـرض السـيطرة بشـكلٍ عـام". وتبقـى علاقـات القـوة واضحـة فـي غضـون ذلـك. إنهـا سـلطة لا تقتـرب فـي وصفهـا مـن سـلطة الدولـة التـي تتحكـم فـي الأفـراد وتوجههـم. ويـرى "فيلتيـز" أنـه يمكـن أن "تتـم برمجـة" هـذه الشـريحة "مـن الخـارج بصـورة عشـوائية، وتـكاد تكـون قدرتهـا الاسـتيعابية لامحـدودة"[97]. إلا أن هـذا المنظـور السياسـي بالتحديـد والمتعلـق بفـرض السـيطرة المثلـى مـن الناحية التقنيـة كان يعد في عـام 1988 بمثابة منظور معاصـر حقًّـا، حفزتـه المناقشـات التـي دارت حـول "التعـداد السـكاني" وبطاقـة إثبـات الهويـة، التـي يمكـن قراءتهـا آليًّـا، وتحقـق مصطلـح "الأخ الأكبـر" الـذي وضعـه "جـورج أورويـل"[98]. ولـم يسـتطع العالـم المتخصـص فـي علـم البحـث الجنائـي أن يتصـور قبـل ثلاثيـن عامًـا ذلـك الوضـع (الذي

97- Feltes (1988), S. 90, S. 95, S. 97.

98- انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

طرأ اليوم) والذي تبلغ فيه الكروت وأجهزة الإرسال والشرائح المدى ودرجة الشدة المتوقعان لها بدقة حقًّا. إلا أن هذا التطور لم يسفر عن نظام شمولي للدولة وإنما أسفر عن مجتمع حر من الناس الذين يرتبطون بعضهم مع بعض بقوة و"يتشاركون" وجهات نظرهم ومعلوماتهم وأماكن إقامتهم بلا انقطاع معًا. لقد أعلن "فيلتيز" أن السطوة المقبلة للتكنولوجيا في عام 2017 ستكون بمثابة انتصار لـ"العدمية ما بعد الحداثية" والتي رأى أن بذرتها كانت منغرسة -في وقت أن كتب هذا- في حركات مثل حركة "لا مستقبل" وحركة "موجة جديدة"[99]. وربما يكون أتباع ثقافة "البانك" المرفوضة عالميًّا والمنتشرة قبل خمسة وثلاثين عامًا أبعد ما يكون عن اليوتوبيا الاجتماعية المتحققة في ثقافة المشاركة في الوقت الراهن وعن العيون اللامعة لـ"مارك زوكربيرج" وعن جمهوره -الذي يصغي إليه- أو عن العائلات الشابة العاطفية المتواجدة على موقع شركة "Airbnb" على شبكة الإنترنت.

ألعاب تحديد الأماكن:

لقد برزت بدءًا من السبعينيات ومع ممارسة المراقبة الإلكترونية للمشتبه بهم ولمرتكبي الجرائم أول نقطة تحول

99- Feltes (1988), S. 102.

كبـرى فـي اسـتخدام تقنيـة تحديـد الأماكـن. فقـد امتـد تحديـد المواضـع – الـذي كان مسـتخدمًا بصـورة عسـكرية بحتـة- إلـى تحديـد أماكـن الأفـراد علـى يـد الشـرطة أو بأمـرٍ قانونـي. لكن كيـف اكتملـت بالضبط تلـك العلامة الفارقـة الثانيـة والتـي تحـول فيهـا تحديـد أماكـن الأفـراد المنحرفيـن ليصبح أحـد أشـكال التواصـل فـي الثقافـة الرقميـة والحاضـرة فـي كل مـكان؟ أي تحـولاتٍ تقنيـة وثقافيـة وعقليـة تعد لازمة مـن أجل أن تجعـل تحديد مكان شـخصٍ مـا باسـتمرار –وهـو مـا كان يعد حتـى وقت قريـب بمثابة ممارسـة تتجـه نحوهـا الأعين الناقدة ولا يسـمح بها إلا في مواقف اسـتثنائية- يتحول ليصبـح قاعـدة للألعـاب ونمـاذج الأعمـال وبدايـات علاقـات الحـب؟ عندمـا أصبـح تشـغيل "نظـام التموضـع العالمـي" مكتمـلًا تمامًـا فـي عـام 1995، كتـب أحـد أفـراد الرعيـل الأول مـن مهندسـي تقنية تحديـد المـكان بالفعل قائـلًا: "إن عاجـلًا أم آجلًا، سـتكون هناك شـريحة تعمل بنظـام "جي بي إس" مدمجـة فـي كل ما يتحـرك. وأقصد بهذا كل جهاز هاتـف وكل جهاز كمبيوتر محمـول وكل مركبـة وكل شـخص يحـب التجـوال"[100]. آنـذاك، كانـت أنظمة الملاحـة المتحركـة الموجـودة في السـيارات تعد بالفعل أحد فـروع الأعمال التجاريـة المزدهـرة. حتـى إن مهمـة هـذه الأنظمـة أصبحـت تتمثـل فـي نهايـة التسـعينيات فـي "أن ينتشـر اسـتخدام تقنيـة تحديـد المـكان الرقمية

100- Jacobson (1995), S. 81.

انتشـارًا كثيفًـا للمـرة الأولـى"[101]. إلا أن إجـراءات تحديـد المواضـع تقنيًّـا بشـكل فـردي مـا زالـت لـم تواكـب الاسـتخدام الشـامل بالفعـل لأجهـزة الهواتـف المحمولـة. هنـاك ثلاثـة تطورات مسـؤولة عن هـذه التوليفة -التي حدثـت فـي مطلع القـرن- بين أداة التواصـل وأداة تحديد المـكان: الإنترنت المحمـول واسـتقبال إشـارات نظـام "جـي بـي إس" فـي المناطـق الحضريـة دون مشـاكل وحزمـة عـروض خدمـات التطبيقـات فـي متجـر تطبيقات "آب سـتور" التـي ظهـرت بعـد ذلك ببعـض الوقت. وقد نشـأ نمط جهـاز "الهاتف الذكـي" مـن الارتبـاط بيـن هـذه العوامـل الثلاثة.

إن نهايـة التشـويش الاصطناعـي علـى إشـارات "جي بـي إس" كان له أثر يـكاد يكـون أثرًا مباشـرًا على هذه المكانة الراسـخة لخدمـات تحديد المكان فـي الثقافـة الرقميـة. ففـي مايو عام 2000 رفعـت الحكومـة الأمريكية –كما سـبق ذكره- الحظر المفروض على تقييد الاسـتخدام المدني لتلك الإشـارات. وعلى الفور شهد تطور ما تعرف بـ"الخدمات المعتمدة على تحديد الموقع"

101- Buschauer / Willis (2014), S. 7. انظر أيضًا المقال الكاشف الذي كتبته "بوشاور" عام 2014 والذي رسمت فيه صورة لمقدمات استخدام تقنية تحديد المكان في الهواتف المحمولة. فحتى التسعينيات كان يجب على أحد الأجهزة أن يحدد مكان الجهاز الآخر من أجل تحديد المكان وهو ما كان يعتبر بمثابة مشكلة في تقنية التواصل الجديدة، تتعلق بالبنية التحتية وحدها. وخلافًا لذلك، لم يكن من الممكن أن يعمل النظام الخلوي المحمول. ووفقًا لما ذكرته "بوشاور" فإنه لم يبدأ اعتبار إجراءات تحديد المكان هدفًا في حد ذاته و"قدرة أساسية" تتمتع بها الثقافة الرقمية إلا بدءًا من النصف الثاني من التسعينيات. (ص 417)

طفـرة اقتصاديـة. وكتـب المـؤرخ المتخصـص في الوسـائط التقنيـة "جوردان فريـث" قائـلًا: "إن مقولـة أنـه لـم تكـن سـتتواجد حتـى اليـوم أي خدمـات لتحديـد المـكان لـو أبقـت الحكومـة علـى "تقييـد الاسـتخدام" ليسـت مقولـة مبالغًـا بهـا"[102]. إلا أن دائـرة الأشـخاص، التـي تسـتطيع أن تسـتفيد مـن هـذه الخدمـات، ظلـت صغيـرة في بـادئ الأمـر. وفـي السـنوات التالية لعـام 2002 –والتـي كانـت الهواتـف المحمولـة، التـي يمكـن عـن طريقهـا الدخـول إلـى شـبكة الإنترنـت، ترتبـط فيهـا فـي أغلـب الأحـوال بماركـة "بـلاك بيـري"- كانـت أجهـزة الهواتـف المحمولـة أقـرب مـا تكـون إلـى رمز يشـير إلـى الصفـوة مـن رجـال الأعمـال. بيـد أن هـذه الحـال قـد تغيـرت فجـأة بـدءًا مـن العـام 2007. ففـي يـوم 29 يونيـو مـن هـذا العـام طرحـت شـركة "آبـل" جهـاز "أيفـون" فـي الأسـواق وبعـد ذلك بعـام طرحت الشـركة متجـر "آب سـتور". وبـدءًا مـن أكتوبـر عـام 2008 توافـر –أيضًـا- أول جهـاز هاتـف ذكـي مزود بنظام تشـغيل "أندرويـد" –الذي طورته شـركة "جوجل"- وأول منصـة لتطبيقـات البرمجيـات طبقًـا لذلـك والتـي حملـت اسـم "سـوق أندرويـد" (والتـي تعـرف اليـوم باسـم متجـر "جوجـل بـلاي"). لقـد حولـت هـذه الأجهـزة والمنصـات -والتـي يعمـل نظام تشـغيلها بالجيـل الثالث وهو معيـار أسـرع لمعالجـة البيانـات- الهاتـف الذكـي بإيقـاع متسـارع إلـى أحد

102- Dao /Rizos /Wang (2002), S. 169; Lachapelle /Wang (2002), S. 137; Frith (2015), S. 29.

مفـردات الحيـاة اليوميـة. ففـي نهاية عـام 2008 أصبح قرابة ثلـث الأوربيين كافـة يمتلكـون مثل هذا الجهـاز[103].

إن خدمـات تحديـد المـكان تعـد منـذ البدايـة جـزءًا من العـرض المقدم فـي الهاتـف. فبتطبيـق "لوبـت" "Loopt" المتوافر في أجهـزة "آبل" وخدمة "لاتيتيـود" "Latitude"، التـي تـم تطويرها من أجل خدمـة "خرائط جوجل"، يمكـن لمسـتخدم الهاتـف الذكـي أن يُظهـر باسـتمرار لمجموعـة منتقاة من معارفـه الموقـع الـذي يتواجـد فيـه. وقـد ورد فـي أحـد أوائـل الإعلانـات التجاريـة لجهـاز "أيفـون" فـي عـام 2008: "مـن الصعـب البقـاء فـي حالـة تواصـل مـع الأصدقـاء. لكـن مـع تطبيـق "لوبـت" المتوافـر في متجـر "آبل" سـتعرف دائمًـا مـا يفعلونـه وأيـن يتواجـدون". لقـد بـدأ تحديـد الشـخص لموقعـه يترسـخ بوصفـه أحد أشـكال التواصل فـي الثقافة الرقميـة. وفي عام 2009، تأسـس فـي نهايـة المطـاف تطبيـق "فورسـكوير" وهـو ذلـك التطبيق الخـاص بالألعـاب الـذي ظـل -حتى تحول شـكله فـي عـام 2014- واحدًا من "الخدمـات المسـتندة إلـى تحديـد الموقـع تقنيًّـا" والتـي يكثـر اسـتخدامها وكان عبـارة عـن مزيـج من خدمـة تحديد المكان وشـبكة تواصـل اجتماعي، تشـجع مسـتخدميها علـى "تسـجيل الوصول" عـن طريق الهاتـف الذكي عند وصولهـم إلـى الحانـات أو المقاهـي أو المطاعـم وعلـى الإبـلاغ عـن محـل إقامتهـم وذلـك مـن أجـل الالتقـاء بمعارفهـم بصـورة أسـهل في ظـل فوضى

103- Frith (2015), S. 34.

الحياة الليلية وليتلقوا مكافأة عبارة عن مشروبات مجانية، تقدمها لهم أماكن تقديم الطعام والشراب المسجلة في تطبيق "فورسكوير" وذلك بعد كل ما قاموا به من عمليات "تسجيل وجود في أماكن" كثيرة قدر الإمكان.

في ذلك الوقت، صححت الشعبية الجديدة لتحديد الفرد لمكانه والمرتبطة بشبكات التواصل الاجتماعي، التي نشأت في الوقت نفسه -حسبما ورد الوصف في سياق شكل "الملف الشخصي"- بعض الخيالات والأوهام المرتبطة بتأسيس الوسيط الإعلامي شبكة الإنترنت. حيث ورد في بيان "نيكولاس نيجروبونتي" الصادر عام 1995 تحت اسم "رقمنة تامة": "سوف نجتمع في مناطق تجاور رقمية ولن يكون للفضاء المادي دور فيها"[104]. تمثل شرط هذه الأحلام المثالية المبكرة بالحرية في عدم وجود مكان محدد من أجل التواصل في شبكة الإنترنت؛ فمن غير المهم أين يقيم مستخدم شبكة الإنترنت حقًّا أثناء تحركه في الفضاء الإلكتروني. وقد انتهى هذا التحرر من سمات الهوية والموضع المكاني تحديدًا بشيوع وسائل التواصل الاجتماعي والهواتف الذكية. إن ذلك الانتقال المرتبط في تاريخ شبكة الإنترنت بمصطلح "ويب 2.0" ، الذي صيغ عام 2004، يعني في المقام الأول أنه يجب أن يكون لدى المستخدمين هويات وأماكن ثابتة: أي "ملف شخصي" و"موضع مكاني". أي أن الجانب الاجتماعي

104- Negroponte (1996 /1997), S. 13 /14.

-الـذي تـم اسـتحضاره كثيـرًا- بوصفـه أحـد الاسـتعدادات الجديـدة لشـبكة الإنترنـت يعـد مرادفًـا لتولـي الشـرطة لتقنيـات البحـث الجنائـي. فشـبكة الإنترنـت -باعتبارهـا وسـيطًا إعلاميًّـا- قـد عرفـت عمليـة إلغـاء التحـول إلـى البيئـات الافتراضيـة وذلـك فـي شـكل تقنيـات وتطبيقـات "ويـب 2.0".

تتمثـل مثـل تلـك الممارسـة العمليـة، التـي سـاعدت علـى حـدوث هـذا التحـول الجوهري، فـي الألعاب الإلكترونية. فمنذ التحـول إلى القرن الحادي والعشـرين، كانـت ما تعـرف بـ"هواية تتبـع مواقع المخابـئ جغرافيًّا" -وهي عبـارة عـن لعبة مطـاردة تقودها وسـائط عملية تحديد المـكان الإلكترونية- تعـد مـن أحـد أوائـل تطبيقـات تقنية "جـي بـي إس" التي يطبقها الأشـخاص العاديـون. كمـا اكتسـبت خدمـات الهواتـف الذكيـة أيضًـا -ومنها على سـبيل المثـال "فورسـكوير"- شـعبيتها مـن أن تحديـد مـكان المسـتخدمين بصـورة مجـردة قـد اندمـج في منافسـة، تـدور فـي أحـد الألعـاب[105]. أي أن الوضع المتغيـر للشـخص، الـذي يتـم تحديـد مكانـه، من ضحيـة إلى فاعل مسـتقل ومـن شـخص منحـرف إلـى مواطـن فاضـل عـادي يكتمل فـي نمـط الألعاب الإلكترونيـة. ويعـد تطبيـق "فورسـكوير" مثـالًا ناجحًـا على تلـك العملية في الثقافـة الرقميـة، التي يطلـق عليها مصطلح " تطبيق عناصـر الألعاب وآليات عملهـا فـي سـياقات ومجـالات أخـرى غيـر مرتبطـة بالألعـاب" والتـي تمثـل

105- Ackermann (2014), S. 156.

استراتيجيات تطبيق الاهتمامات البعيدة عن مجال الألعاب الإلكترونية -ومنها على سبيل المثال نموذج الأعمال المتمثل في كسب أموال بالاستعانة ببيانات الأشخاص المتعلقة بتحديد الأماكن تقنيًّا- بمثابة تطبيق فعال قدر الإمكان وذلك عن طريق عناصر الألعاب الإلكترونية.

لقد مثلت لعبة "إنجرس" بلا شك أكثر هذه الألعاب المرتبطة بتحديد الأماكن تقنيًّا إثارةً للاهتمام وذلك بالإضافة إلى عمليات الاحتشاد الجماهيرية قصيرة الأمد في لعبة "بوكيمون جو". ولعبة "إنجرس" هي إحدى ألعاب الواقع المعزز، تم استحداثها نهاية عام 2012 في نسخ تجريبية وأصبحت متواجدة منذ عام 2014 في أجهزة هواتف "أيفون" والهواتف المحمولة التي تعمل بنظام تشغيل "أندرويد". وقد لعب ملايين الأشخاص تلك اللعبة في غضون ذلك. وتجمع تلك اللعبة بانتظام حشدًا كبيرًا من المشاركين فيها في لقاءات، يتم تنظيمها بصورة مركزية، في مدنٍ أمريكية أو أوربية أو آسيوية كبرى. إن العالم بأسره يعد بمثابة ملعب تدور فيه لعبة "إنجرس" وهو ما يظهر على هيئة خريطة ذات رؤية مستقبلية غرائبية من "خرائط جوجل". وبعد أن يقوم المستخدم بتحميل التطبيق يتم تفعيل دوره عن طريق أن يسمح بتحديد موقعه إما طوال وقت اللعب أو باستمرار: "إن "إنجرس" لعبة تعتمد على تحديد المكان تقنيًّا. هذا التطبيق يسجل موقعك ويمكن أن يكون هذا الموقع مرئيًّا لمستخدمين

آخرين، إذا قمت بأعمال محددة"، هذا ما يظهر على الشاشـة عند التسـجيل فـي اللعبـة للمـرة الأولـى. يتمثـل تاريـخ انطـلاق هـذه اللعبـة في فكـرة أن هنـاك منظمـة سـرية تغطـي العالم بتيـارات طاقـة غامضة، تتركز فـي أماكن محـددة اسـمها "بوابـات". وهـذه البوابـات عبارة عـن مبانٍ ونصـب تذكارية ومتاجـر ومقـاهٍ وأكشـاك حقيقيـة. ويمكـن لأي مسـتخدم مـن مسـتخدمي لعبـة "إنجـرس" أن يقتـرح أماكن جديدة بأن يرسـل صورة إلـى المقر الرئيس للشـركة ويسـمح بفحـص "البوابـة" وتسـجيلها. وتنقسـم مجموعـة اللاعبيـن إلـى كتلتيـن؛ ألا وهمـا مجموعـة "المضيئـون" الذيـن يريـدون أن يسـتفيدوا مـن الطاقـة ومجموعة "المقاومـة" التي تحاربهم. وعند التسـجيل في اللعبة يجـب علـى الإنسـان أن يقرر إلـى أي مجموعة يريد أن ينضـم. يتمثل هدف اللعبة في أن يستكشف الإنسان مثل تلك "البوابات" في الشارع وهو يحمل الهاتـف الذكـي فـي يده (في الوقـت الحاضر، أصبحت توجد فـي برلين على سـبيل المثال بوابة في كل ناصية تقريبًا وذلك بسـبب ارتفاع عدد المشاركين فـي هـذه اللعبـة) وأن يجعلهـا تدخـل فـي نطـاق سـلطة الكتلـة الخاصـة به بمسـاعدة لاعبيـن آخريـن وأن يربطها في نهاية المطـاف بـ"بوابتين" أخريين لتصبـح البوابـات الثـلاث بمثابـة مثلـث فـي الفضـاء المكانـي وذلـك عبـر شـارع أو مدينـة أو بلـد أو حتـى محيـط. ويبـدو أن هناك أشـخاصًا عديدين، يخططـون فـي الوقـت الحاضـر لإجازتهم تبعًـا لإمكانية السـيطرة على مثلث مـن تلـك "البوابـات" فـي أكبـر مسـاحة ممكنـة -عـن طريـق تحديـد موعـد

للالتقـاء مـع لاعبيـن فـي قـارة أخـرى، يظلـون علـى تواصـل دائـم معهم عن طريـق تطبيـق لعبـة "إنجـرس"- وجعـل التكتل، الـذي ينتمون إليـه، متقدمًا فـي السـيطرة الشـاملة للعالـم كلـه علـى الطاقـة الغريبـة الموجـودة فـي الفضـاء المكاني.

وبغـض النظـر عـن رأي النـاس فـي هـذه اللعبـة وهـل يجدونهـا رائعـة أم غريبـة شـاذة -وهـي اللعبـة التـي تعـد مزيجًـا مـن هوايـة تتبـع مواقـع المخابـئ جغرافيًّـا ولعـب الأدوار بصـورة خياليـة- إلا أنـه مـن الواضـح فـي لعبـة "إنجـرس" و"بواباتهـا"، التـي بلـغ عددها فـي غضون ذلك مـا يزيد على ثلاثـة ملاييـن بوابـة على مسـتوى العالم، أنـه توجد علاقة جديـدة من نوعها بيـن الخيـال الـوارد في الحكاية، التي تشـكل اللعبـة، وواقع الفضـاء المكاني الـذي يتحـرك فيـه اللاعبون. إن مـا تم تقديمه فـي الفكرة الخيالية الأساسـية للعبـة "إنجـرس" كأنـه خيـال مرتبـط بمـرض البارانويـا –تيـارات طاقـة تغـزو العالـم، أي تلـك "الجزيئـات الملهمـة"[106] التي يجب جمعها- يعني ببسـاطة مـن ناحيـة تقنيـة تحديـد المـكان أن الشـركة التـي تديـر اللعبة وهي شـركة "ألعـاب نيانتيـك" واليـت تعـد أحـد فـروع شـركة "جوجـل"، تتلقـى سـجلات صغيـرة عـن إقامـة وتحـركات مسـتخدمين لا حصـر لعددهـم. "أنـت تعتقد أنهـا لعبـة قمـت بتحميلهـا، لكنهـا ليسـت كذلـك"، هـذا مـا يقولـه صـوت

106- انظر النص المحوري الذي كتبه (Köhntopp 2016) عن مجموعة المعجبين بلعبة "إنجرس".

هامس عند التسجيل للتأكيد على قوة التحديات. وهذه الجملة تعد في مجملها صحيحة –أيضًا- بمفهوم متغير قليلًا. فربما تكون لعبة "إنجرس" لعبة مسلية وتثير مشاعر الإدمان وترافق اللاعبين في كل طريق وكل رحلة باعتبارها معايشة مزدوجة للواقع وتتميز بأنها أكثر إثارة. ولكنها تعد -بوصفها مثالًا رئيسًا على تطبيق عناصر الألعاب وآليات عملها في سياقات ومجالات أخرى غير مرتبطة بالألعاب- إحدى الدعائم القوية لجمع الطرق التي يسلكها المستخدمون والتحكم فيها. ففي عام 2014، أبرمت شركة "ألعاب نيانتيك" على سبيل المثال تعاونًا مع شركة "فودافون" وجميع فروع شركة اتصالات الهواتف المحمولة لبعض الوقت في ما يتعلق بـ"البوابات". ويجب هنا تذكر "رالف شفيتسجيبيل" و"الإلكترونيات السلوكية" الخاصة به والتي تنتهي في هذا التصور إلى نتائج نموذجية؛ فعن طريق التوجيه المنظم في مجال الألعاب يقترب عدد لا حصر له من العملاء المحتملين من تلقاء أنفسهم من الأهداف التسويقية التي حددها هذا الاتحاد بين الشركتين سلفًا.

إلا أن تحديد المكان تقنيًّا -والذي يتم بصورة عابرة وكذلك شاملة للغاية- يؤدي أيضًا إلى أن تصبح الآثار الموجودة في الفضاء المكاني واضحة للمشاركين أنفسهم أيضًا. فصحيح أنه لا يظهر أي لاعبون آخرون على شاشة جهاز الهاتف الذكي –الذي يعرض لكل مستخدم للعبة "إنجرس" حول السهم، الذي يشير

إلـى موقعهـم، دائـرة يبلـغ نصـف قطرهـا خمسـمئة متـر كحـد أقصـى- إلا أنـه يمكـن إدراك وجـود هـؤلاء اللاعبيـن بصـورة غيـر مباشـرة عـن طريـق مؤشـر نابض يوجد أسـفل الشاشـة ويتم تحديثه باسـتمرار ويعرض الأنشـطة الموجـودة فـي الأماكـن القريبة ويتم عرضـه على صفحـات المعجبين بلعبة "إنجـرس" علـى هيئـة كـروت. أي أنـه يمكن للاعب أن يسـتعلم باسـتمرار ما اسـم المسـتخدم الـذي يمتلـك "بوابـات" بالقرب منـه وفـي أي وقت يحدث هـذا. كمـا يمكـن للاعـب أن يشـارك فـي تعقـب الطـرق التـي يسـلكها هـذا الشـخص وأماكـن إقامتـه المفضلـة وأن يعيـد -بقليـل مـن المثابـرة والقـدرة علـى التركيـب- تصميـم المسـكن الحقيقـي لـه والطـرق المؤديـة يوميًّـا إلى مقـر عمله. فأسـفل السـطح الخارجي لتيـارات عالم "إنجـرس" الخيالية، التي تتـلألأ بلـونٍ أخضـر ولـون أزرق، توجـد الخريطـة الحقيقيـة للمدينـة؛ فمـن يسـتخدم اللعبـة بانتظـام تظهـر لـه بصـورة كاملـة تمامًـا تحـركات اللاعبيـن المشـاركين معـه فـي اللعبـة والموجوديـن بالقـرب منـه. أي حكايـات وأي علاقـات متشـعبة يمكـن تصـور حدوثهـا فـي هـذا الموقـف (أو تحـدث بالفعـل؟): لـص هجـام –معتـاد علـى أداء ألعـاب الواقـع المعـزز- يتجسـس علـى سـبيل المثـال فـي حـي الفيـلات علـى لاعب متحمـس من لاعبـي لعبة "إنجـرس" ويعـرف فـي أي وقـت بالضبط يكـون اللاعب خـارج المنزل لوقت طويـل وفـي توقيتـات محددة؟

إن عالـم "إنجـرس" المتشـابك بشـكلٍ آمـن يقـدم –وفقًـا لخدمـات

تحديـدات المـكان الموصوفـة فـي بدايـة هذا الفصـل أيضًا- معينًـا لا ينضب *للشـك*. لكـن لعـل تداعـي الأفـكار هـذا بالتحديـد -يعـد هـذا المفهـوم فـي الثقافـة الرقميـة بمثابـة دليـل بالفعـل علـى المنطـق المتـوارث- يعتبـر نموذجًـا لمواقـف علميـة ومعرفيـة، عفـا عليـه الزمـن، وهـو النمـوذج الـذي يشـير فيـه كل أثـر لقضيـة وكل تفصيلـة لسـياق أكبـر. لقـد بحـث عالـم الاجتمـاع "لـوك بولتانسـكي" مؤخـرًا عهـد ازدهـار علـوم وحكايـات الشـك، أي مـدة عشـرات السـنين قرابـة عـام 1900 والتـي نشـأت فيهـا صـورة مـرض البارانويـا فـي الطـب النفسـي وفـي الروايـات البوليسـية وروايـات الجاسوسـية فـي الأدب فـي الوقـت نفسـه تقريبًـا. وهمـا نموذجـان لا تكون فيهمـا الحقيقـة حسـبما تزعـم أن تكـون للوهلـة الأولـى واللـذان أثمـرت فيهمـا ألغـاز ومكائـد (عـن طريـق القـوة التحليليـة للمحقـق السـري) عـن عالـم أكثـر أصالـة يكمـن خلـف حجـاب، يحجـب الواقـع المرئـي أو أن تلك الألغـاز والمكائـد تبـدو أنهـا تسـفر عـن هـذا العالـم (عـن طريـق هـلاوس الشـخص المريض بالبارانويا). يرى "بولتانسـكي" أن "الشـعور العام بالشـك" كان يمثـل عنـد التحـول للقـرن العشـرين "نهجًا فكريًّـا": إنه موقـف، ينطبق اليـوم -أيضًـا- على علـوم الاجتماع والبحـث الجنائي والتحليل النفسـي التي نشـأت آنـذاك والـذي أطلق عليـه "كارلو جينزبـورج" في مقالٍ شـهير مفهوم

"نموذج المؤشرات"[107].

لكن كيف تتفاعل تقنيات تحديد المكان في التواصل الرقمي مع هذا الإدراك للعالم؟ عندما أصبح البحث الجنائي بواسطة أجهزة الإرسال والشكل العقابي المتمثل في "قيود القدم الإلكترونية" بمثابة أمر واقع في الثمانينيات والتسعينيات، ساق النقاد الحجج والبراهين على استمرار هذه التصنيفات والمفاهيم؛ فقد ورد في مقال صادر عام 1995 عن "نظام التموضع العالمي" بوصفه أداة جديدة لعلم البحث الجنائي أن "استخدام الشرطة لنظم مراقبة معتمدة على التكنولوجيا" يهدد بإنتاج "مجتمع يسوده الشك العام"[108]. وفي الوقت الحاضر، لا يكتمل هذا الاستخدام من أجل الشرطة والعدالة الجنائية فحسب وإنما من أجل مصنعي أجهزة الهواتف الذكية ومطوري البرمجيات ومصممي الألعاب الإلكترونية -أيضًا- وذلك بسهولة لم يسبق لها مثيل. أي أن نموذج الشك أصبح أقوى من أي وقتٍ مضى لكنه لم يعد يثير لدى المستخدمين أي شعور بالانزعاج.

107- Boltanski (2012 /2015), S. 60 وللاطلاع على "نموذج المؤشرات" انظر: Ginzburg (1979 /1988).

108- Nogala / Sack (1995), S. 127, S. 149.

3

حالات التفتيش الجسدي:

القياس الكمي للذات وقياسات الجسم

لقد نتجت الرغبة الجديدة في إجراء قياسات للجسم بصورة تقنية من إدراك قصور المعرفة البشرية. إن هذا يمثل على الأقل نقطة انطلاق ذلك المقال الذي عرَّف قطاعًا عريضًا من الجمهور على الممارسة الشائعة لـ"التتبع الذاتي" في الثقافة الرقمية. ففي أبريل عام 2010، نشر الصحفي في مجال العلوم التقنية "جاري وولف" -والذي كان قبلها بعامين مشاركًا في تأسيس حركة "القياس الكمي للذات"- مقالًا في صحيفة "نيويورك تايمز" وهو المقال الذي تمحورت حججه حول الفجوة بين موضوعية بيانات الجسم التي يتم قياسها آليًّا ووجود أخطاء في الطرق الذاتية لإدراك ذلك والتعبير عنه. حيث كتب "جاري وولف" في المقال قائلًا: "إن الكثير من مشاكل الناس ينشأ ببساطة بسبب أننا لا تتوافر لنا الأدوات التي تجعلنا نفهم أنفسنا بصورة أفضل. إن قدرتنا على التذكر ضعيفة ونحن نخضع لمجموعة كبيرة

مـن الأحـكام المسـبقة ولا يمكننـا أن نولـي تركيزنـا سـوى لشـيء أو شـيئين فـي الوقـت نفسـه. كمـا نفتقـر إلـى الوسـائل الجسـدية وكذلـك العقليـة لكـي نقـوم بعمليـة حصـر صحيـح لذواتنـا". واسـتخلص "وولـف" مـن هـذا التحليـل التشـخيصي الواقعـي نتيجـة مفادهـا: "نحـن بحاجـة إلى مسـاعدة الماكينـات"[109].

لقد شـدَّد "وولف" في نصه -الذي تطرق الكثيرون إليه بالمناقشـة- على أنـه لا خـلاف منذ قديـم الأزل على الثقة في أن الأرقام تتمتع بقوة إثبات في السـياقات العلميـة والاقتصادية والسياسـية، وحتى وقـت قريب كان "النمط التقليـدي المريح للحياة البشـرية" يعـارض هـذه الأداة المعرفية. وأضاف أن كل ضـرب مـن ضـروب توثيـق الـذات في الحيـاة الخاصـة –كان يتجـاوز حد كتابـة اليوميـات- كان يعـد أمـرًا شـاذًّا. إلا أن "وولف" يعتقد أن هـذه الرؤية قـد مـرت بتصحيـح جـذري. ففـي السـنوات الأخيـرة، يمكـن ملاحظـة وجود "إقبـال هائـل علـى القيـام بالتتبـع الذاتـي"؛ حيـث يتـم "تتبـع أثـر وقيـاس ومشـاركة ونشـر" بيانـات شـخصية عـن "النـوم والرياضـة والجنـس والطعـام والمـزاج والانتبـاه والإنتاجيـة والموقـع الـذي يتواجـد فيـه الشـخص وحتـى عـن الارتيـاح الروحـي". كمـا يـورد المقـال ذكـر مجموعـة وفيـرة مـن ألعاب التطبيقـات الحديثـة لمـن يؤيـدون القيـام بـ"القيـاس الكمـي للـذات" وهـي الألعـاب التـي تحسـب كل خطوة من خطواتهم أو تسـجل نسـبة ضغط الدم

109- Wolf (2010), S. 12.

الخاص بهم بصورة مستمرة أو تفحص مدى ارتياحهم في لياليهم عن طريق مجموعة من قياسات الجسم أو توثق حالتهم النفسية بدقة متناهية. لقد ظل جميع من استخدموا هذه التطبيقات –حسبما كتب "وولف"- يُعتبرون حتى وقتٍ قريب بمثابة حالات فردية غريبة. إلا أنهم يعدون اليوم رواد حركة متنامية. إنهم يفضلون "ما يقدمه الحدس من نزوات على البيانات الموثوق بها التي يظفرون بها" ويستبدلون "السلاسة الناقصة" لحياتهم النفسية بعناصر "الذات الخاضعة للقياس الكمي"[(110)] والتي يتسنى فصلها بعضها عن بعض بوضوح ويمكن إطلاق مسميات عليها وجعلها متشابكة بعضها ببعض. يذكر "وولف" أن سبب ازدهار هذه الممارسات لعمليات قياس الذات يرجع إلى أربعة تطورات تكنولوجية حدثت في الأعوام الماضية؛ وهي شيوع استخدام أجهزة الاستشعار الأصغر حجمًا والأقوى من حيث الأداء والمكانة الراسخة والشاملة التي أصبحت أجهزة الكمبيوتر المحمولة والأصغر حجمًا –في شكل الهاتف الذكي- تتمتع بها ووسائل التواصل الاجتماعي بوصفها مكانًا لمشاركة نتائج القياس ومخزن البيانات "كلاود" اللامحدود من الناحية العملية والذي يفوق حدود الطاقة الاستيعابية لأي جهاز على حدة. ويرى "وولف" أن هذه العناصر الأربعة للثقافة الرقمية كانت مسؤولة عن أنه قد أصبح من الممكن الآن الحصول على بيانات عن طريق

110- نفس المرجع السابق، ص 2 و3.

جسد الشخص وحالته النفسية باستقلالية وبالاستعانة بالهاتف الذكي وحده والذي تتحد فيه مجموعة كبيرة من طرق إظهار الهوية: والمتمثلة في دفتر يوميات وشهادة صحية وملفات مرضية وبطاقة إثبات شخصية. وتعد هذه العملية عملية معقدة، كانت مقتصرة حتى وقت قريب على المختبرات الطبية والعلمية.

إمكانية التعرف على الإنسان عن طريق القياس: لقد وضع "وولف" هذا الإجراء في مقابل تقنية أخرى، نسب إليها أنها كانت تتمتع بسلطة فاقت معرفة الذات على مدار القرن العشرين. حيث كتب "وولف" قائلًا: "قبل مئة عام، ربما كان سيلجأ أحد الباحثين الجسورين المفتونين بألغاز الشخصية البشرية إلى تصورات التحليل النفسي الجديدة عن "الإزاحة" و"العقل الباطن"؛ إنها أفكار طورها أشخاص، يحبون اللغة. واليوم انتشرت هذه التصورات العلاجية عن الذات بصفة عامة وأصبحت متاحة بشكل مُعمَّم، لكنها أبقت بالطبع على الطابع الإنساني الأدبي المستفيض بعض الشيء، الذي اتصف به من اخترعوها. فبدءًا من اعتراف حساس يتم تقديمه على أريكة المحلل النفسي ووصولًا إلى حالات ثرثرة مع مستشار للمساعدة الذاتية، فإن الأشكال المحددة لاستكشاف الذات تعتمد على فكرة أن الطريق إلى الحقيقة يتم عبر بعض العبارات". وقد وضعت حركة "القياس الكمي للذات" "سبيلًا جديدًا" في مواجهة هذا الاعتماد على اللغة: "إننا نستخدم الأرقام من أجل الاستعلام عن

ما يعتمل في قرارة نفس الفرد بدلًا من استخدام الكلام والكتابة". إنه انقسام عبر عن نفسه باعتباره مواجهة بين تصورات العمق والسطح. وقد وضع "جاري وولف" حدودًا بين السبل المعرفية لقياس الذات وأهدافها ومتطلبات الثقافة العلاجية؛ حيث ورد في مقاله: "عندما نجري قياسًا لأنفسنا، فإننا لا نطمح لأن نستكشف حقيقة أعمق، تكمن خلف حياتنا اليومية. وإنما ما يعنينا هو اعتبار أن أفكارنا وتصرفاتنا الأكثر تفاهة وبديهية -والتي لم نكن لنلاحظها دون مساعدة تقنية- ما هي إلا ذواتنا والتي ينبغي علينا أن نتعرف عليها بصورة أفضل"[111].

لقد تغافل "جاري وولف" هنا -أو أنه حجب عن عمد- حقيقة أن تفضيل البيانات القابلة للقياس على العبارات الصادقة لا يعني بالطبع وجود "سبيل جديد" تمامًا للمعرفة البشرية وإنما يعد صورة جديدة لخلاف أنثروبولوجي قديم. حيث انشغلت العلوم الحديثة المتعلقة بالإنسان منذ البداية بالسؤال هل تكون قدرة الإنسان على القراءة ممكنة على الأرجح عن طريق الرموز اللغوية والجسدية. ولذا فإن "العلاج بالحكي" لدى "فرويد" لم يضع –حسبما غلب الظن على "وولف"- في تاريخ معرفة الذات نموذجًا تأسيسيًّا خاليًا من رأي موثوق فيه. فعلى الأرجح يتعين اعتبار أسلوب التحليل النفسي في الفترة قرابة عام 1900 بمثابة مرحلة قوية في نزاع طال أمده في تاريخ المعرفة. وهو

111- نفس المرجع السابق، ص 7 و 12.

النزاع الذي تركز للمرة الأولى في "خلاف علم الفراسة" الشهير بين "يوهان كاسبر لافاتر" و"جيورج كريستوف ليشتنبرج" في السبعينيات من القرن الثامن عشر. فقد كتب "ليشتنبرج" في أقواله المأثورة ومقالاته آراء معارضة لنظرية علم الفراسة التي تفيد بإمكانية فك غموض الانفعالات النفسية وسمات الشخصية من ملامح وجوه البشر؛ إلا أن إصراره على القوة الأنثروبولوجية المعرفية للغة ("إن عشر كلمات تنحدر من لغة أحد الشعوب تعد بالنسبة لي أهم من مئة كلمة تنحدر من أدواتهم اللغوية غير الواعية")[112] أثبت في القرن التاسع عشر بأكمله -في إطار العلوم الإنسانية حديثة النشأة وممثليها ذوي التأثير القوي- أنه موقف هامشي على نحوٍ متزايد. إن علم فراسة الدماغ لدى " فرانتس يوزيف جال" ودراسات "بيير بول بروكا" عن أدمغة البشر وأنثروبولوجيا إجرامية لـ"سيزار لمبروزو" والفيزياء النفسية لـ"جوستاف فيشنر" و"فيلهلم فونت" ونظام "الأنثروبومترية" لـ"فرانسيس جالتون" و"ألفونس بيرتيون" قد عززوا من الإيمان بإمكانية إجراء قياسات موضوعية للإنسان ولجسمه ولنفسيته؛ فقد اعتمدت عمليات وضع المعايير والتصنيف والتمييز العنصري على قاعدة نتائج القياس هذه. وأيضًا عندما ترسخ التحليل النفسي كأداة للمعرفة الذاتية، فإنه لم يتبوأ مكانة –مثلما كتب "وولف"- متفردة وتقترب من

112- Lichtenberg (1778 /1972), S. 288.

كونها احتكارية في المعرفة بالفرد. فالعلوم المنافسة مثل علم النفس التقني أو المذهب السلوكي في ما بعد -اللذين يسعيان إلى الوصول إلى داخل الإنسان عن طريق أجهزة القياس بدلًا من العبارات- قد اكتسبت على مدار القرن العشرين قوة تأثيرية مشابهة.

أي أنه سيكون من المفيد -أخيرًا وليس آخرًا ونتيجة لهذه الأسباب- التساؤل عن ازدهار تقنيات قياس الذات في الثقافة الرقمية والكلمات الرئيسة ذات الصدى الناجح مثل "الذات الخاضعة للقياس" و"التتبع الذاتي" من حيث تأصيل تاريخها المعرفي. وعلى الرغم من هذه الفصاحة اللغوية الأصلية للمتحدثين عن هذه الحركات؛ فإن هذه الحركات لم تنشأ بأي حال من الأحوال من العدم. فالممارسة العملية الملموسة ترجع بلا شك إلى الظروف التقنية في الخمسة عشر عامًا الأخيرة، غير أن الصور النموذجية لعلوم القياس السابقة تتضح في السبل المعرفية الأساسية. وتختص إحدى هذه الصورة النموذجية باقتناع من يقوم بالتتبع الذاتي أنه لا بدَّ أن تكون هناك شفرة ترجمية بين الأجسام والبيانات وأن تكون تلك الشفرة موثوقًا بها في كل وقت وطبيعية إلى حدٍ ما. إن نتائج القياس تقول الحقيقة عن الذات. كما أن القناة، التي تنقل الأعماق المعتمة وغير محددة الشكل لـ"أحد المشاعر الجسدية" أو لإحدى الحالات المزاجية في ضوء الأرقام والمنحنيات، تخلو من الأصوات المزعجة

والأخطاء وأخطاء المطالعة. فالبيانات التي يتم إنتاجها عن طريق الماكينات، ليس لها تاريخ وليس هناك إمكانية أن تكون قد تواجدت من قبل. وهذه الثقة تقود حركة "القياس الكمي للذات" مثلما تعد مكونًا أساسيًّا -أيضًا- لنظريات القياس في العلوم الإنسانية منذ بداياتها.

وبشكل أساسي، تطرح أنشطة التتبع الذاتي تلك الأسئلة عن وضع الذات في الثقافة الرقمية وهي الأسئلة التي أدارت -أيضًا- أبحاث مفهوم "الملف الشخصي" والاستخدام المنتشر لتقنيات تحديد المكان: ما الذي يعد في هذه الإجراءات بمثابة تحرر للذات وما الذي يعد بمثابة خضوع لها؟ يتحدث "وولف" في مقاله عن الطموح في "إضفاء طابع ديمقراطي" على المعرفة المتكونة عن الجسم بالاستعانة بالهواتف الذكية وأدوات القياس الرقمية المجانية. إلا أن هناك اتجاهًا آخر ووضعًا عامًّا آخر يتعارضان مع هذه المحاولة واللذين يتم التعبير عنهما في ملاحظة عابرة. حيث يدور الحديث عن "رجل شرطة متواجد داخل رؤوسنا"[(113)] والذي نشأ عبر رغبة الإدراك والتسجيل الموجودة باستمرار لدى من يقومون بعمليات التتبع الذاتي. أي أن السؤال يظل قائمًا: كيف تكمل النظرة التحررية والنظرة الشرطية للذات بعضهما بعضًا وإلى أي مدى يتصادمان معًا؟

113- Wolf (2010), S. 11, S. 12.

شركة "فيتبيت":

لقد أورد "جاري وولف" في مقاله -أيضًا- ذكر شركة حديثة النشأة، يقع مقرها في "سان فرانسيسكو"، والتي طرحت في الأسواق في خريف عام 2009 وبعد عامين من التخطيط جهازًا يستطيع أن يحسب عدد خطوات من يرتديه وعدد السعرات الحرارية التي يتم استهلاكها وكذلك جودة النوم. كان شكل أجهزة التتبع، التي كانت شركة "فيتبيت" تنتجها، آنذاك عبارة عن مشابك فحسب وكان يتم تثبيتها في جيب السروال أو في الحزام. ولم تبدأ الشركة إلا في عام 2013 في وضع جهاز الاستشعار في أربطة بلاستيكية ملونة وهو ما زاد بشدة من انتشار الأجهزة المرتبطة بتطبيق متعلق بها في جهاز الهاتف الذكي وجعلها سمة مميزة لحركة "القياس الكمي للذات" المتنامية. واليوم تعد شركة "فيتبيت" -والتي دخلت البورصة في يونيو عام 2015 بقيمة سوقية تبلغ نحو ستة مليارات دولار- بلا منازع بمثابة علامة مميزة من علامات الإعلان عما عرف بقطاع الأجهزة التي يمكن ارتداؤها. وفي عام 2016 باعت الشركة ربع الأجهزة المباعة على مستوى العالم والتي بلغ عددها ما يزيد على مئة مليون جهاز.[114]

114- للاطلاع على هذا الأرقام انظر Neff /Nafus (2016), S. 1 و2016) Marshall) و / cnet.com / news /fitbit-sold-more-wearables-in-2016-than-apple-and-samsung-combined

تشمل تشكيلة الأجهزة المقدمة من شركة "فيتبيت" في الوقت الحاضر قرابة عشرة موديلات، بدءًا من الشريحة البسيطة وحتى الميزان الرقمي. وتعد أسورة اليد المعروفة بـ"فليكس" -والتي تخلو من أي شاشة وتباع في ألمانيا بسعر 99 يورو- وكذلك الساعة الذكية "تشارج" –والتي تباع بـ159 يورو- من أكثر الأجهزة التي يقبل الناس على شرائها. كما أصبح جهاز الاستشعار -الذي يقيس التحركات ويعد عنصرًا تقنيًّا أساسيًّا في كل المنتجات- مدمجًا في كل أساور اليد التي يتم إنتاجها مع موديل "فليكس" وأصبح يحسب عدد الخطوات التي يتحركها الشخص وذلك على هيئة نقاط مضيئة (حيث تعادل النقطة المضيئة ألفي خطوة وتعادل الخمس خطوات المضيئة الكاملة عشرة آلاف خطوة وهو معدل عدد الخطوات التي يتعين سيرها يوميًّا). ومن أجل مراقبة جودة النوم يجب على المستخدم أن يستعين بتطبيقات شركة "فيتبيت"؛ حيث تسجل أسورة اليد جودة النوم عبر حركات الجسم المستريح في الليل. وعندئذ تتم ترجمة الحركات، التي قام جهاز التتبع بتسجيلها، إلى منحنيات وجداول. وينطبق الأمر نفسه على عرض عدد السعرات الحرارية التي تم استهلاكها. أما موديل "تشارج" الأعلى تكلفة فيقدم أغلب نتائج القياس مباشرة على شاشة أسورة اليد. وبالإضافة إلى عدد الخطوات الحالية وحرق السعرات الحرارية، يمكن استدعاء بيانات إضافية –أيضًا- ومنها على سبيل المثال القيم المحددة للحركات المبذولة في أنواع الرياضات المختلفة وكذلك

القياس المستمر لمعدل ضربات القلب عن طريق معصم اليد. ومن الممكن أن يقوم من يرتدي هذا الجهاز بتحديد مكانه تقنيًّا عن طريق نظام "جي بي إس" -من أجل مراقبة مضمار الركض على سبيل المثال- ولكن هذا لا يظهر إلا في جهاز الهاتف الذكي الخاص بالمستخدم والمتزامن مع جهاز "تشارج".

ما سبب تمتع منتجات شركة "فيتبيت" على وجه التحديد بجاذبية لملايين كثيرة من الأشخاص هكذا؟ كيف تختلف طرق تطبيقها عن الأجهزة القديمة المستخدمة في قياس وتحسين الحالة الصحية وحالة اللياقة البدنية؟ عندما يطالع الإنسان الموقع الإلكتروني لشركة "فيتبيت" أو المقولات التي يقولها من يقومون بحركة "القياس الكمي للذات" عن أهمية الأجهزة التي يمكن ارتداؤها، فإن ما يلفت الأنظار قبل كل شيء هو دليل محدد ومتكرر كثيرًا وهو الدليل المتمثل في أن القياسات، التي تؤكدها أساور اليد للمرة الأولى، تخلو من أي أخطاء. حيث أكد "جاري وولف" بالفعل أنه ينبغي "ارتداء" أجهزة التتبع المحمولة "على الجسم دائمًا وفي كل وقت". كما تركز الطريقة، التي تتم بها مخاطبة العملاء في الموقع الإلكتروني للشركة، على هذا التواجد للجهاز في كل زمان ومكان بالضبط. "هذه هي الفكرة التي تتأسس عليها شركة "فيتبيت": إن اللياقة البدنية لا تتعلق بعدد الساعات التي يتم قضاؤها في مراكز تدريب اللياقة البدنية فحسب. بل تتعلق -أيضًا- بكل يوم وكل ساعة وكل دقيقة. إن اللياقة

البدنيـة أمـر لـه وجـود فـي كل مـكان". كان الطموح فـي الوصـول إلى نمط حيـاة صحـي فـي العقـود السـابقة يتمثـل في فـرض مراحـل انتقاليـة مفيدة علـى نمـط العمـل فـي المناطـق الحضريـة ذي الطابـع الكسـول والمـوزع بيـن المكتـب وحركـة المـرور فـي سـاعات الـذروة والأريكـة التـي يجلـس عليهـا الإنسـان لمشـاهدة التلفزيـون. وتتمثـل تلـك المراحـل الانتقاليـة المفيـدة فـي الركـض صباحًـا فـي مسـارات الركـض ذات الحواجـز والذهـاب إلـى مراكـز تدريـب اللياقـة البدنيـة وصعـود السـلالم بـدلًا مـن اسـتخدام المصعـد الكهربائـي. بينمـا تعـد شـركة "فيتبيـت" الآن بتحويـل هـذا الانتباه المتقطـع مـن حيـن لآخـر بالحالـة الصحيـة الجيـدة للشـخص إلـى حالـة مسـتمرة. حيـث يتـم اسـتخدام الأداة، التـي يتـم تثبيتهـا علـى الجسـم، فـي غضـون ذلـك فـي المراقبـة المسـتمرة وكذلـك فـي التحفيـز المسـتمر. وقـد ورد فـي أحـد الأوصـاف الذاتيـة، التـي قدمتهـا الشـركة، أن "اللياقـة البدنيـة لا تتبـع اليـوم أي وصفـات محـددة. فهـي ببسـاطة خلاصـة مـا نقـوم بـه في حياتـك". وتـم عـرض هـذا المطلـب عبر تلـك الحملـة الدعائية الدوليـة التي أعلنـت عنهـا الشـركة بصفـة نهائية فـي ألمانيا –أيضًـا- في عـام 2014 والتي تكونـت مـن مجموعـة كبيـرة مـن تراكيـب الكلمـات التـي انتهـت بالمقطع النهائـي "فيـت". حيـث يتعيـن ألا يكـون مسـتخدم منتجـات شـركة "فيـت" -عـن طريـق ارتـداء تلـك المنتجـات- قـادرًا علـى "الركـض" أو "التجـول" فحسـب وإنمـا قـادرًا –أيضًـا- علـى "الحـب" و"التقبيـل" و"ممارسـة الأبوة". فيتـم إدراك مجـالات مثـل الحـب والحنـان والمسـؤولية والعطـف علـى

الأبناء باعتبارها –أيضًا- مكونات نمط حياة صحي. وبصورة منطقية كان اسم هاشتاج هذه الحملة الدعائية هو "itsallfit". أي أن هدف الشركة يتمثل في الإدراك الكامل والمفسر في إطار اللياقة البدنية لكيان الشخص؛ وهو الإدراك الذي لا يفرق بين العمل والأسرة أو بين الجسد والروح أو بين الساعات التي يتم استثمارها عن وعي وتلك التي تنقضي بصورة عابرة أو حتى بين حالة اليقظة والنوم. فالمبدأ الرئيس للشركة ينص على أنه "إذا كان الأمر متعلقًا بالوصول لأهداف اللياقة البدنية الخاصة بك، فإن خطواتك هي مجرد بداية. إن "فيتبيت" ترصد كل جوانب اليوم مثل الأنشطة والتدريب الرياضي والتغذية والوزن والنوم وذلك في سبيل مساعدتك لكي تكتسب لياقة بدنية"[115].

إن التأكيد على هذه السلاسة يوضح حالة تقنية، أصبحت بمثابة علامة مميزة للثقافة الرقمية وتحققت عن طريق الاستخدام العام لأجهزة الهواتف الذكية ونطاقات شبكات الإنترنت اللاسلكية منذ أقل من عَقد من الزمان. حيث يعد الحديث عن العلاقات المتشابكة والموجودة في كل مكان من أهم المفردات اللغوية الخاصة بنظريات الوسائط التقنية في الوقت الحاضر وتتضح عملية التغلغل هذه بصفة خاصة في الإطراء على أجهزة التتبع الذاتي. فالعلاقة بين ارتداء منتجات شركة "فيتبيت" واستخدام

115- Wolf (2010), S. 7, youtibe.com /watch?v=ec31n6HFxJg, fitbit.com /de /whyfitbit.

أجهـزة الركـض فـي مركـز تدريـب اللياقـة البدنيـة تماثـل علاقـة بيـن البقـاء المسـتمر فـي مناطق شـبكات الإنترنت اللاسـلكية اليوم و"الاتصـال التقليدي المتقطـع" بشـبكة الإنترنـت الأرضـي فـي عصـر اسـتخدام إنترنـت أجهـزة "المـودم" وسـطح المكتـب. وفـي هـذا التشـابك الموجـود فـي كل مـكان علـى وجـه التحديـد، يكمـن –أيضًـا- اختـلاف رئيس بين أسـاور اليـد الرقمية الخاصـة باللياقـة البدنيـة والأسـاليب والأجهـزة القديمـة لإجـراء القياسـات الذاتيـة ومنهـا علـى سـبيل المثـال الميـزان الموضـوع فـي دورة الميـاه. صحيـح أن هـذا الميـزان ربمـا يكـون قـد خلـق منـذ اسـتخدامه الشـائع في العشـرينيات علاقـة ترابـط مماثلة بيـن البيانات والأجسـام والآمـال المتجهة نحـو الوصـول إلـى الوضـع المثالي للجسـم وكذلك قـام بعملية نقل مشـابهة لشـعور الشـخص بذاتـه إلـى الأجهـزة التقنيـة، إلا أن قدرتـه علـى القيـاس الكمـي كانـت محـددة بالظهور العابر لقيـم القياس التي يمكـن للفرد وحده أن يراهـا.[116] وفـي المقابـل، فـإن أدوات التتبـع الذاتـي التـي تنتجهـا شـركة "فيتبيـت" والأدوات المشـابهة لهـا لا تقيـم وزنًـا لعزلـة الفـرد أثنـاء إجرائـه للقياس الذاتي الشـخصي ولا –أيضًا- للتركيز الشـديد للرياضي أثناء ممارسـة الرياضـات التنافسـية والـذي يسـجل وحـده طريقـه نحـو تحقيـق أرقـام قياسـية جديـدة. وإنمـا تحفـز هـذه الأدوات بالأحـرى التبـادل الاجتماعـي

116- للاطلاع على تاريخ الميزان انظر: الكتاب المثير للإعجاب لـ Schwarz (1986), S. 164 ff. وللمقارنة بين الأساليب السابقة والحالية للقياس الذاتي انظر: Crawford / Lingel / Karppi (2015)

والتقني لأعضائها؛ ففي عالم القياس الكمي للذات يتداخل الوعي الجسدي مع عملية التواصل تداخلًا وثيقًا. ويظهر هذا الاتحاد بينهما بطريقتين في مقاطع الفيديو الدعائية لشركة "فيتبيت": فمن ناحية، لا يكاد يظهر فيها أي أشخاص منفردين وإنما يظهر الأشخاص على هيئة أزواج أو أسرة أو مجموعة من الأصدقاء أو زملاء عمل في أحد المكاتب والذين يمارسون الرياضة أو يتنزهون أو يجهزون طعامًا صحيًّا سويًّا. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الأفلام القصيرة تنبه مرارًا وتكرارًا إلى أن منتجات شركة "فيتبيت" تعد -بالإضافة إلى أدوات القياس- بمثابة وسائط تواصلية أيضًا، يمكنها على سبيل المثال أن تعرض في الهاتف الذكي المتزامن معها مكالمات ورسائل نصية واردة. حيث كان الموديل الأساسي "فليكس" يؤدي هذه المهمة بالفعل عن طريق إشارة تصدر على شكل النقاط الخمس الوامضة. ووردت في أحد مقاطع الفيديو عبارة: "عليك أن تظل متصلًا مع أصدقائك أثناء أداء التمرين!"[117] ويظهر بانتظام أن أبطال مقطع الفيديو يوقفون تمارين اللياقة البدنية الخاصة بهم أو المشي السريع من أجل مد أيديهم إلى التليفون.

إن الترابط مع الآخرين له أهمية رفيعة للغاية لدى شركة "فيتبيت" في المقام الأول -أيضًا- لأن الشركة تطالب مستخدميها باستمرار بأن "ينشروا" قيم القياس الخاصة بهم عبر شبكة

117- fitbit.com /de /app.

الإنترنـت. ويعتبـر "جـاري وولـف" أن إنشـاء شـبكات التواصـل الاجتماعـي يعـد مـن الشـروط التقنيـة لنجاح حركـة "القياس الكمـي للـذات". كما تؤكد شـركة "فيتبيـت" علـى هـذه النتيجـة بـأن تربـط إجـراءات القيـاس الذاتـي والتسـجيل الذاتـي تمامًـا بممارسـة عمليـة نشـر قيـم القيـاس ومقارنتهـا في داخـل أحـد المجتمعـات. فأسـفل النقطـة الرئيسـة "التحفيز والأصدقـاء" يرد فـي الموقـع الإلكترونـي: "يمكنك بواسـطة "الفيس بوك" والبريـد الإلكتروني أن تعثـر علـى أصدقـاء يسـتخدمون منتجـات "فيتبيـت" وترتبـط معهم لكي ترسـل إليهـم رسـائل تحفيزيـة وتتشـاركون الإحصائيـات وتثيـرون حمـاس بعضكـم بعضًـا". إن الشـبكة، التـي أصبـح علـى كل أعضـاء شـركة "فيتبيـت" أن يؤسسـوها شـيئًا فشـيئًا، تعـد شـبكة اجتماعيـة وبالمثل –أيضًا- تنافسـية. وتقـدم الشـركة نصيحـة مفادها: "فلتبقَ فـي حالة حركة وتسـتخدم خطواتك لتصنـع اسـمًا لنفسـك فـي قائمة الأعلى تسـجيلًا للنقـاط. أو لتجري قياسـات لنفسـك مـع أصدقـاء وأفـراد أسـرتك بالاسـتعانة بتحديـات "فيتبيـت""[118].

أي أن "جماعـة" أعضـاء "فيتبيـت" تعـد -مـن ناحيـة- جماعـة مـن الأصدقـاء والأقـارب ولكنهـا مـن ناحيـة أخرى أيضًـا جماعة مـن المتنافسـين؛ ففكرة أن "فيتبيـت" "تتتبـع كل جوانـب يومك" تحـدث في إطار منافسـة يتم تقديمها علـى هيئـة لعبـة ولكنها منافسـة مسـتمرة.

لقــد اكتســب هــذا الاندمــاج بيــن الجانــب الاجتماعــي المتصــل

118- نفس المرجع السابق.

بالألعاب والجانب التنافسي أهمية لدرجة أن أساليب القيام بالقياس الذاتي الرقمي قد أصبحت مدمجة في سياق أوسع وبصورة تتجاوز الاستخدام الفردي أو الاستخدام المقتصر على مجموعة من المعارف بصورة شخصية. إن مثل هذا الدمج أصبح متواجدًا في الوقت الحاضر في المقام الأول في مجال شركات التأمين الصحي ووكالات التأمين والتي تجعل رسوم العضوية والخدمات والخصومات مقترنة بصورة متزايدة بتقييم عملائها لأدوات التتبع الذاتي. وفي هذه اللحظة، تظهر بطريقة لا لبس فيها الوظيفة المزدوجة لـ"الأجهزة التي يمكن ارتداؤها". فالخطاب البلاغي الداخلي لحركة "القياس الكمي للذات" يتعلق تمامًا بتمكين الذات. حيث إن هناك دليلًا قاطعًا واردًا في مدونات ومنتديات عديدة ويفيد بأنه يمكن إلى حدٍّ بعيد -بفضل التسجيل البسيط والموثوق به لوظائف الجسم- تجنب الذهاب إلى الجهات التقليدية للرقابة الصحية، أي أماكن مثل عيادات الأطباء والمختبرات والصيدليات والتي تقدم خدمات في مقابل مبالغ مالية كبيرة ويحدث تقصير فيما تقدمه للأفراد من رعاية. لقد حل جهاز القياس الذاتي المتحرر محل العلاقات الأبوية بين الطبيب والمريض؛ حيث كتب المدون العلمي الشهير "ريتشارد ماكمانوس" "لقد حرصت تطبيقات الهواتف الذكية الجديدة وأجهزة التتبع على أن يكتسب الناس للمرة الأولى حقًّا السيطرة على بياناتهم الصحية. نحن نتحرك نحو عالم، سوف نكون مسؤولين فيه في النهاية عن صحتنا أو على الأقل عن قياسها

ومراقبتها بانتظام"[119]. يتعين أن ينطلق هذا الوعد بالتمتع بالاستقلالية من مجموعة من البيانات والتي يوضع لها حساب –حسبما توضح إعلانات شركة "فيتبيت" وأجهزة مشابهة لشركات "جوبون" و"دايركت لايف" و"نايكي+" وأسورة شركة "سوني" الذكية- بناءً على المرونة والقدرة على التشابك. وينص شعار حركة "القياس الكمي للذات" على أن "المعرفة الذاتية عن طريق الأرقام" تكتمل إذًا في داخل نسيج متشابك ومنفتح قدر الإمكان وقادر على التواصل والذي يساهم بالمثل في معرفة من يقومون بالتتبع الذاتي عن طريق آخرين.

اكتساب السيادة بأقصى درجة ممكنة مع القدرة على تحديد الهوية بأقصى درجة ممكنة: إن صورة الإنسان الناتجة عن الإدراك الذاتي الرقمي تتحرك بين هذين القطبين. ويتضح بصفة خاصة هذا التناقض بالنظر إلى المستجدات الأحدث في مجال التأمين والتي تلقى رواجًا في ظل شعار "التأمين الذكي". فمنذ يوليو 2016 تقدم شركة تأمين "جنرالي" لثاني أكبر اتحاد شركات تأمين في ألمانيا –وبه قرابة أربعة عشر مليون عميل- البرنامج الإضافي "فيتاليتي" والذي يمكن إتمامه عن طريق الربط بينه وبين التأمين على الحياة من المخاطر والتأمين ضد العجز عن العمل. وعندئذ يتم حساب قيمة الاشتراك السنوي والمطالبة بخصومات وخدمات خاصة تبعًا لعدد "نقاط فيتاليتي" التي

119- MacManus (2014), S. 13.

جمعها الشخص المؤمن عليه قبل ذلك بعام. ويقوم الأعضاء الجدد -بعد إبرام العقد- بملء بيانات اختبار صحي على بوابة عملاء شركة التأمين ويقومون بتنزيل تطبيق "فيتاليتي" على هواتفهم الذكية والتي يجب أن يحدث تزامن بينها وبين إحدى أساور اللياقة البدنية. إن كل خطوة وكل نشاط رياضي يفيدان رصيد النقاط في برنامج "فيتاليتي" (أصبح من المفترض منذ 2018 أن تسري هذه النقاط -أيضًا- على مشتريات المنتجات الغذائية الصحية في فروع إحدى سلاسل السوبر ماركت المشاركة في البرنامج والتي تسجل الرمز الشريطي للمنتجات عند الخزينة وتعيد إرساله). عندما يجتاز عميل جديد كل معايير الاختبار الصحي "ضمن التوصية الطبية"[(120)]، تبدأ عضويته في الوضع البرونزي. ويرتفع هذا العدد من النقاط عن طريق تحقيق قيم يومية مرتفعة لمن يحسب الخطوات ويقوم بزيارات لمركز تدريب اللياقة البدنية – حيث يعيد المركز إرسال البيانات مثلما يحدث في فروع السوبرماركت- ويقوم بمشتريات تنم عن وعي غذائي ويخضع لفحوصات صحية وقائية منتظمة في الصيدليات التي تجمعها شراكة مع شركة تأمين "جنرالي". وعند الوصول إلى ثلاثين ألف نقطة، أي إلى الوضع الذهبي، ينخفض اشتراك تأمين العضو بنسبة تصل إلى 11%. وعند تحقيق خمسة وأربعين ألف نقطة، أي الوضع البلاتيني، ينخفض اشتراك تأمين العضو

120- generali-vitalityerleben.de /noch-fragen,html#tests.

بنسبة تصل إلى 16%. ويضمن شركاء آخرون في التأمين مثل شركة "أديداس" وسلسلة متاجر "جاليريا كاوفهوف" أو مكتب السفر، الذي يعمل عبر شبكة الإنترنت "إكسبديا"، للأعضاء "الذهبيين" نسبة خصم تصل إلى عشرين بالمئة وللأعضاء "البلاتينيين" نسبة خصم تصل إلى أربعين بالمئة. وبنهاية عام الاشتراك التأميني تنتهي صلاحية النقاط التي جمعها العضو. إلا أن العضو المؤمن عليه يبدأ العام الجديد بالوضع الذي وصل إليه في العام السابق.

إن القاعدة الثلاثية لبرنامج "فيتالتي" التابع لشركة تأمين "جنرالي" تنص على "التوعية" و"الحياة بنشاط" و"المكافأة". وبرنامج "فيتاليتي" هو أول برنامج تأميني من هذا النوع في أوربا القارية (أما في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمي، فكانت هذه البرامج معروفة بالفعل منذ وقتٍ طويل بعض الشيء). "يتمثل الهدف في تحفيز العملاء على الحياة بوعيٍ صحي وكذلك مكافأتهم على إحرازهم لتطورات في هذا الصدد. هكذا تعاد صياغة مفهوم "التأمين" في ألمانيا". كما أن شركات التأمين الصحي القانونية مثل شركة "إيه أوه كا" "AOK" وشركات التأمين الصحي الخاص بالفنيين تخطط لإقامة برامج مماثلة تعتمد على احتساب النقاط وتقديم مكافآت

تبعًا لذلك وذلك في الإطار المنصوص عليه.[121] يتمثل التعريف الجديد المنشود للتأمين في المقام الأول في الحصول من كل عميل على مجموعة وفيرة من البيانات غير المعروفة حتى ذلك الوقت والتي يتم تحديثها باستمرار وكذلك في أن تصبح تلك البيانات تحت التصرف وهي بيانات عما يفضل الشخص فعله عند الحركة وعاداته الغذائية وتفاصيل وضعه الصحي مثل نسبة ضغط الدم ومستوى الكوليسترول في الدم التي تكشف عنها الأبحاث الوقائية. "هنا نحسب كل خطوة تخطوها. وهذه الخطوات جميعًا هي ما ينبغي تسجيله على وجه التحديد!"[122]، هذا ما يرد في الموقع الإلكتروني لبرنامج "فيتاليتي" ويشبه تمامًا التعبير الكتابي الوارد في إعلانات أساور اللياقة البدنية. إلا أن الفارق بينهما يتمثل في أن المنافسة المقدمة على هيئة لعبة في الموقع الإلكتروني لشركة "فيتبيت" قد تحول -بعلاماته المميزة الافتراضية ومسابقاته الجارية بين الأصدقاء- ليصبح واقعًا اقتصاديًّا ملموسًا في سياق التأمين على الحياة والتأمين ضد العجز عن العمل. وهو الواقع الذي يحدد مبالغ الاشتراكات وحالات الإعفاء المالي.

121- Presseportal.de /pm /108395 /3360582.

وللاطلاع على خطط شركات التأمين الصحي القانونية انظر: / versicherungsbote.de /id /4844671 Techniker-Krankenkasse-fitnesstracker-Bonusprogramm

122- generali-vitalityerleben.de /noch-fragen.html.

يتواكب مع القياس الكمي المستمر بلا انقطاع للحالة العامة الجيدة شكل جديد من أشكال إضفاء طابع فردي على التأمين والرعاية الصحية. حيث يتعين على "نقاط برنامج فيتاليتي" (والتصورات الشبيهة مثل تصور "هيلث سكور" الذي طرحته الشركة السويسرية "داكادوو" والذي يسعى لقياس الحالة الجسدية والعقلية لكل مستخدم عن طريق مقياس متدرج من درجة 1 إلى 1000 ويتم تحديثه باستمرار)[123] أن تُحوِّل التركيبة المعقدة للحالة الصحية إلى قيمة يمكن قياسها بدقة ويمكن للفرد نفسه أن ينظمها ومن المفترض أن تشير ذبذباتها في الوقت الحقيقي تقريبًا إلى أسباب يتسنى تحديدها بوضوح مثل الحركة أو التغذية. إن الحديث عن التمكين الذاتي يتداخل هنا مع الوظائف الجوهرية للسياسات الاجتماعية والصحية والفعالة منذ ما يربو عن قرن. فقد بدأت فكرة "الدولة الراعية" -حسبما تطورت في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر- تتحول إلى فكرة "الذات الراعية". وبهذه الطريقة زادت الممارسات العملية للقياس الكمي وتطبيقاتها في مجال التأمين من قوة اتجاه، كتب عنه قبل قرابة عشر سنوات بالفعل علماء اجتماع مثل "أولريش بروكلينج" و"توماس ليمكه" معلومات تزيد من المعرفة به[124]، إنه فهم جديد للصحة باعتبارها سلعة يمكن

123- Decadoo.com.

124- Bröckling (2004), Bröckling (2007), Lemke (2007).

ضمان الحصول عليها بصورة مستقلة وتتولى مسؤولية نفسها. وبناءً على ذلك، فإن الأمراض والأضرار لا تعتبر وبالًا أو تأثيرات ناتجة عن تراكيب اجتماعية بقدر ما تعتبر أخطاءً شخصية وخللًا في "التحفيز" وتقصيرًا في تقديم الرعاية "في الوقت المناسب" (فسرطانات الصدر والأمعاء لم تعد تعتبر في الوقت الحاضر بمثابة إحدى مصائب القدر وإنما تثير بالأحرى سؤال ما الذي أدى بالمصاب إلى هذه الحال؟). وفي هذا الصدد، يوجد في الموقع الإلكتروني لبرنامج "فيتاليتي" التابع لشركة "جنرالي" استبيان رأي مثير للاهتمام ويمكن الدخول عليه مجانًا ويستطيع أي زائر للموقع أن يملأه من أجل أن يجعل برنامج "فيتاليتي" يقدم تقييمًا لعمره. وتستعلم الصفحات الأولى من الاختبار عن بيانات الجسم والعادات الغذائية وعادات التدريب وذلك قبل أن يتم طلب معلومات عن "الحالة العقلية العامة": "كم مرة شعرت أنك عديم القيمة أثناء الثلاثين يومًا الماضية؟" أو أنك "منكسر جدًّا لدرجة أنه لم يكن من الممكن لأي شيء أن يبعثك على الشعور بالبهجة؟"[125] يتضح من تصميم هذا الاستبيان أن نمط المعيشة والحالة الجسدية والحالة النفسية تُكوِّن في منطق برنامج شركة التأمين وحدة لا تنفصم وتحددها علاقات واضحة بين السبب والأثر؛ فمن يتناول تغذية خاطئة أو يتحرك بمعدلات قليلة، لا يؤدي إلى تدهور نسبة ضغط دمه أو نسبة الكوليسترول

125- generalivitality.de /vmp /bewusst_machen /vitality_alter.

فـي دمـه فحسـب وإنمـا إلـى تدهـور الطاقـة الإيجابية فـي حياتـه أيضًا. إن أدوات التتبـع الذاتـي تتيـح تسـجيل نمط معيشـتك بصورة تامـة وتؤكد على المطلـب الشـامل والملـح بالقيـام بـالإدراك الذاتـي لدرجة عدم وجـود فارق بيـن التأثيـرات الفسـيولوجية والنفسـية للقيـم التي يتم قياسـها.

استعراض أصل التتبع الذاتي:

قيـاس الإنسـان: إن حركـة "القيـاس الكمـي للـذات" تـرى أنهـا تـؤدي وظيفـة دعـم المعرفـة المسـتقلة للفرد بوضعـه الصحي وحالتـه العامة. فإذا كانـت "الملفـات الشـخصية" تتيح فـي الثقافـة الرقمية عرض السـيرة الذاتية للشـخص وتتيـح تقنيـات نظـام "جي بـي إس" تحديد الاتجاهات فـي الفضاء المكانـي، فـإن أجهـزة وأسـاليب القيـاس الذاتـي تفيـد فـي المعرفـة الأفضل بجسـم الفـرد. لكـن مـن المهـم –أيضًا- في هـذا السـياق الثالث أن نتسـاءل عـن تاريـخ تلـك الأجهـزة والأسـاليب. متـى وفـي ظـل أي ظـروف بـدأ قياس جسـم الإنسـان؟ أي قيـاس تراكيبـه الهيكليـة الثابتـة مثـل بنيـة الجمجمـة والعظـام وبالمثـل –أيضًـا- قيـاس التعبيـرات الفسـيولوجية غيـر الملحوظـة ومعـدل ضربـات القلـب وضغـط الدم والتنفـس وإفراز العرق؟ مـن قام على عمليـة القيـاس ومـن خضـع لعملية القيـاس؟ وبأي حجـة قويـة تمتعت قيم القيـاس هذه؟

كان مؤلفو المقالات والكتب، التي صدرت في السنوات الأخيرة عن ثقافة "القياس الكمي للذات"، غالبًا ما يوردون في البداية ذكر بعض "رواد" هذه الحركة في القرون السابقة؛ أي من قاموا بعملية مراقبة صارمة للذات مثل الأب المؤسس للولايات المتحدة الأمريكية "بنجامين فرانكلين" الذي امتلأت دفاتر يومياته بخطط تفصيلية عن سلوكه وكذلك الطبيب البدين "جون لينينج" المنحدر من ولاية "كارولينا الجنوبية" والذي حسب عام 1740 ولمدة تزيد على العام وزن كل وجباته الغذائية ومشروباته وفضلاته وربط بينها وبين قيم مثل درجة الحرارة الخارجية ودرجة حرارة الغرفة وأوقات اليوم والضغط الجوي لكي يطَّلع على عملية التمثيل الغذائي لديه. ومن المفترض أن يطرح هؤلاء الأبطال الطرق الحالية لعملية التتبع الذاتي في سياق تاريخ أطول؛ حيث ورد في إحدى هذه الدراسات أن "القياس الذاتي ليس بالأمر الجديد"[126]. غير أن هؤلاء الأبطال كانوا يسيرون في اتجاه واهٍ للتأصيل التاريخي، إن لم يكن اتجاهًا خاطئًا.

ربما كان هناك اهتمام مماثل من أحد الأفراد بجسمه وبتسجيل تعبيراته. فمن كانوا يكتبون يومياتهم ومن كانوا يجرون تحقيقات عن أنفسهم في أواخر القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر، كانوا ينطلقون في كثير من النواحي من شروط وأهداف أخرى، تختلف عن من يرتدون في الوقت الحاضر "الأجهزة

126- Neff /Nafus (2016), S. 15.

التـي يمكـن ارتداؤهـا". فقـد تأسـس نشـاطهم أولًا علـى المعالجـة الجدليـة لمبـادئ مذهـب "الكالفينيـة" ومذهـب "البيوريتانيـة"؛ إنهـا كانـت قواعـد أخلاقيـة دينيـة، اختفـى دورهـا كقـوى محركـة أو أنهـا أصبحـت علـى الأقـل تابعـة لقـوى غيرهـا تمامًـا. وثانيًـا: كانـت عمليات القيـاس الذاتـي وعمليات تسـجيل القياسـات فـي فضـاءات مكانية تنعـم بالحماية والتحصيـن أي تدور فـي منـزل الشـخص أو تتواجـد فـي دفتـر يومياتـه الخـاص وكانـت تحـدث علـى كل حـال عمليـة تبـادل بينها وبيـن عمليات أخـرى في شـكل المقالات العلميـة. وثالثًـا: ارتبـط بذلـك معرفـة مـن يقومـون بعمليـات القيـاس بخصوصيـة موقفهـم. إنـه فهـم ذاتـي اسـتطاع التعبيـر عن نفسـه فـي صورة التمتـع بحالـة نـادرة من الفضائل مثلمـا كانت الحال لـدى "فرانكلين" أو في صـورة الوعـي بلامركزيـة الفـرد وخصوصيتـه الغريبـة أيضًـا.

إلا أن هـذه الخصوصيـة الغريبـة للفـرد تتناقـض تناقضًـا دقيقًـا مـع رغبتـه الحتميـة فـي المقارنـة والتنافـس وبلـوغ القيـم المعياريـة -أيضًـا- وهـي الرغبـة التـي ترتبـط بهـا حركـة "القيـاس الكمي للـذات" ارتباطًـا ملزمًا منـذ البدايـة. ففـي إحـدى محاضـرات مؤتمـر "تيـد" الشـهير والمنعقـد عـام 2011، عـرض "جـاري وولـف" علـى الحائـط أربـع صفـات مـن أجـل إيضـاح أهـداف ثقافـة القيـاس الجديـدة وهـي صفـات "نحيـف" و"غنـي" و"سـعيد" و"ذكـي". وقـال إن مهمـة الإدراك الذاتـي تتمثـل فـي "أن تجعلنـا أشـخاصًا أفضـل فـي كل النواحـي؛ أي أن نكـون نحيفيـن وأغنيـاء وسـعداء

وأذكياء" وأضاف أن الأجهزة والأساليب الجديدة ستعمل على "الارتقاء بالكيان الإنساني إلى درجة مثالية"[127]. أي أن حركة "القياس الكمي للذات" لا تتعلق بمراقبة فرد منقطع النظير وإنما تتعلق بمجموعة بيانات مسجلة، يمكن مقارنتها بعضها ببعض وربطها بمعطيات قياسية. ولهذا السبب بالتحديد، فإنه من غير المجدي من الناحية المنهجية أن يتم سرد تاريخ عملية التتبع الذاتي –وهو ما يحدث كثيرًا- باعتبارها تتابعًا متعاقبًا لمجموعة من الأفراد، قاموا في القرون السابقة بعمليات تحليل وقياس لأجسادهم. فهذا التاريخ لم يبدأ بالأحرى إلا في اللحظة التي أتاحت فيها تقنيات معيارية -تم تنفيذها بطريقة منهجية- أن يتم تسجيل قيم قياسية جسدية للأشخاص وأن تشير تلك القيم بعضها إلى بعض وأن يتم تفسيرها. إن السؤال عمن يقوم بعملية القياس –وهل هو الشخص الخاضع للقياس بنفسه أم شخص آخر- كان في بادئ الأمر سؤالًا ثانويًّا بالنسبة للتحليل المتعلق بالتأصيل التاريخي لعملية القياس الذاتي لأن أجهزة وأساليب ثقافة "القياس الكمي للذات" في الوقت الحاضر ترجع إلى تلك الفروع العلمية التي كان بها هوة سحيقة بصورة خاصة بين من يقومون بعملية القياس ومن يخضعون لها.

لقد اتضح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في

127- youtube.com /watch?v=YN_MjyMq3Z8 وللاطلاع على هذه الفقرة التي تم الاستشهاد بها انظر مقطع الفيديو من الدقيقة 3.10 إلى الدقيقة 3.30.

سياقات علمية مختلفة السعي لإعلان مقولات عن الإنسان وعن عواطفه وانفعالاته النفسية واستعداده البيولوجي وانتمائه لمجموعة ما وهويته المميزة وذلك عن طريق عمليات القياس الكمي الدقيقة. وكان من المفترض أن تجيب مجموعة كبيرة من الأجهزة وتقنيات التسجيل وأساليب القياس الجديدة بدقة العلوم الطبيعية عن هذه الأسئلة التي تمت معالجتها حتى ذلك الوقت بصورة نظرية. يمكن في المقام الأول ترتيب هذه الأساليب في مجالين معرفيين. فمن ناحية ترسخت المذاهب الأنثروبولوجية التي تصنف وترتب بصورة متدرجة فئات كبيرة من الناس عن طريق قياس أجسادهم. وهو ما فعلته على سبيل المثال بدءًا من الستينيات من القرن التاسع عشر دراسة "بيير بول بروكا" عن أدمغة البشر والمتعلقة بقياس حجم الجماجم أو التحديد الأنثروبولوجي الإجرامي الذي قام به "سيزار لمبروزو" لمفهوم "المجرم بالفطرة". وبعد عشرين عامًا، أدى هذا الإدراك لبناء الجسم البشري –في نظام "الأنثروبومترية" الذي أثارت "فرانسيس جالتون" فكرته وأعده الشرطي الباريسي "ألفونس بيرتيون"- إلى طريقة منهجية موثوق بها للتعرف على المجرمين الذين عادوا لارتكاب الجرائم. وقد أثبتت هذه الطريقة المنهجية كفاءتها حتى فرض بصمات أصابع اليد باعتبارها علامة مميزة لكل إنسان ولا لبس فيها وكذلك باعتبارها أسلوبًا شرطيًّا يتم استخدامه لتحديد الهوية في المدن الأوربية. ومن ناحية أخرى، اكتسبت في ذلك الوقت تقنيات قياس فسيولوجية جديدة أهمية

حيث أصبح من المفترض أن توضح الوظائف الحياتية للإنسان بصورة أكثر دقة. وقد نشأت بدءًا من منتصف القرن التاسع عشر أجهزة مثل جهاز قياس ضغط الدم وجهاز قياس نبض القلب وجهاز قياس سرعة التنفس، والذي يسجل حركة التنفس في القفص الصدري، وجهاز قياس تغيرات الحجم داخل أعضاء الجسم والذي يقيس الحجم المتغير للدم داخل أعضاء الجسم. ولا يجدر بأساليب القياس الكمي هذه أن تكشف -مثل قياسات "بروكا" أو "لمبروزو" أو "بيرتيون"- عن البنى الهيكلية الجسدية الثابتة لمجموعات كبيرة من البشر وإنما أن تكشف عن التعبيرات الجسدية الديناميكية العابرة للفرد.

سرعان ما انتقل الاهتمام بهذه الأجهزة من الطب المتصل بالجسد البشري إلى فروع علمية أخرى. ففي الستينيات من القرن التاسع عشر ربط أحد العلوم الجديدة، عُرِفَ باسم "علم الطبيعة النفسية"، بين أنماط التفاعل العقلية والاستثارات الجسدية ذات الجرعات المحددة بدقة. وفي عام 1879 أسس "فيلهلم فونت" أول معهد لعلم النفس التجريبي في "لايبزج" وحاول -بالاستعانة بمجموعة من معدات المختبرات الفيزيائية والطبية- أن يتلقى معلومات عن وظائف الوعي. وهي المعلومات التي كانت قبل ذلك "مقتصرة على نطاقات حصرية لعلم النفس المعتمد على نظريات فلسفية" حسبما كتب تلميذه "هوجو مونستربرج". فكان من المفترض أن يتم تصوير ما يعتمل في

قـرارة نفـس الإنسـان –أي مشـاعره وأشـواقه وخيالاتـه- فـي منحنيـات مسـجلات النبـض وضغـط الـدم. وقـد لعـب "مونسـتربرج" نفسـه والـذي كان يعمـل بالتدريـس فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة فـي التسـعينيات مـن القـرن التاسـع عشـر، دورًا فـي نشـر هـذه المحـاولات وتمتعهـا بقـوة تأثيـر. فقـد اجتهـد "مونسـتربرج" فـي مختبـره النفسـي بجامعـة "هارفـارد" –والـذي كان يتكـون وفقًـا لمعلومـات "مونسـتربرج" "مـن سـبع وعشـرين غرفـة، تمتلـئ بأسـلاك كهربائيـة"- فـي نقـل معـارف أسـتاذه عـن العلاقـة بيـن التعبيـرات الجسـدية والعمليـات التـي تـدور فـي الوعـي، إلى سـياقات عمليـة مثـل الحيـاة الاقتصاديـة وعلـم التربيـة أو العدالـة الجنائيـة. إن علـم النفـس التجريبـي التطبيقـي الـذي أسـماه "مونسـتربرج" وآخـرون بـ"علـم النفـس التقنـي"، يُذكِّـر بتفاؤلـه بعمليـات القياس، بالأسـلوب البلاغـي لحركة "القيـاس الكمـي للـذات" فـي الوقـت الحاضـر؛ حيـث ورد في أهـم مؤلفات "مونسـتربرج" الصـادر عـام 1914 أنه "يمكـن بالأقطاب الكهربائيـة والمنظار الكهربائـي أن نعـرض كيف يتعلق عمل الغدد العرقيـة بالتغيرات التي تجري فـي الوعـي ويمكـن أن نكتشـف بأجهـزة قيـاس ضغـط الـدم وقيـاس سـرعة التنفـس كيـف تؤثـر تقلبـات الانفعـالات علـى نبـض القلـب والتنفـس"[128].

التيـارات الجسـدية المحسـوبة بدقـة باعتبارهـا وسـائل لإنتـاج الحقيقة: لقد

128- Münsterberg (1908 /1923), S. 6, S. 3; Münsterberg (1914 /1920), S. 236.

تأسست في أواخر القرن التاسع عشر قواعد أحد الآراء في إطار العلوم الإنسانية والذي ما زال من يقومون بالتتبع الذاتي اليوم يرتكزون عليه دائمًا؛ حيث إنهم يستقون حالة لياقتهم البدنية وحالتهم المزاجية ووضعهم الطبيعي من البيانات الصادرة من أدوات التتبع الذاتي.

إلا أن هذه الأسس تميزت بحقيقة أن المقصود بقياس الإنسان في العقود قرابة عام 1900 كان في المقام الأول قياس الأشخاص المنحرفين والمهمشين. فكان من المفترض أن تستخدم قياسات حجم الجمجمة على يد "بول بروكا" وما نتج عنها من استنتاجات لحجم المخ -باعتبارها استنتاجات تتمتع بمشروعية علمية- في فرضية أن الأشخاص ذوي البشرة الداكنة يتسمون بطبيعتهم بقدر أقل من الذكاء بالمقارنة بذوي البشرة البيضاء. أما الأنثروبولوجيا الإجرامية لـ"سيزار لمبروزو" فكانت تسعى بدورها للبرهنة على أن السلوك الإجرامي يرجع إلى تشوهات خلقية رجعية. وقد انطلق "لمبروزو" في ذلك من دراسة تشريحية، أجريت على جماجم آلاف المجرمين والتي حصل عليها على مدار السنوات من سجون ومقابر مدينة "تورينو". وقد قال مترجمه الألماني الذي سار على خطاه "هانز كوريلا": "لقد أعاد "لمبروزو" اكتشاف التطور الهائل في منحنى الحاجب وكثافة العظام واعوجاج مؤخرة الرأس لدى المجرمين والتي ظهرت في جمجمة الإنسان "نياندرتال"". أي أن من

يستوجب عقابهم يعتبرون -وفقًا لهذا الفهم- "حالات مرتدة عما مرت به البشرية من تطور" وأن طبائعهم البيولوجية تؤدي حتمًا لظهور سير ذاتية لجناة. لقد أدى هذا الافتراض الأساسي في المقالات الأخيرة لـ"لمبروزو" وأبحاث تلاميذه المتعددين إلى نظام تصنيفي للأشخاص المنحرفين، تشعب في العالم وربط بين قرابة اثني عشر نمطًا من "المجرمين بالفطرة" وبين حالات جسدية وسلوكية شاذة[129].

إن ممارسة نظام "الأنثروبومترية" لـ"ألفونس بيرتيون" في عمليات الشرطة جعلته يقدم نفسه ختامًا بأنه قياس للأشخاص المنحرفين. كان النظام الجديد المستخدم في تحديد الهوية يعد -وفقًا لرأي "بيرتيون"- بمثابة رد فعل على "الأمل الخادع" لأرشيف الصور الذي بدأت الشرطة في استخدامه قبل ذلك بوقت قليل والذي كان يتم فيه التقاط صور لكل مرتكبي الجرائم في المدن الأوروبية الكبرى. فصور المجرمين، التي جمعتها شرطة باريس على سبيل المثال حتى عام 1880 وزاد عددها على مئة ألف صورة، لم تعد تتيح منذ وقت طويل فرزًا وتصنيفًا عمليًّا. كما أن الصور الفوتوغرافية تعد علاوة على ذلك وسائط بيانات قاصرة في حالة إن تعلق الأمر بتحديد هوية مجرمين عادوا لارتكاب جرائمهم. فتلك الهوية تعد هوية دائمة ولا يمكن

129- Kurella (1892), S. 11; Gould (1981 /1994), S. 131;

انظر Kurella (1892) S. 39 للاطلاع على أنماط المجرمين.

تغييرها بتقدم العمر أو بالقيام بتصحيحات جبرية في المظهر الخارجي للمجرم. لقد تغلب "بيرتيون" على هذه النقائص بأن بدأ في إجراء قرابة اثني عشر قياسًا من قياسات الجسم لكل مجرم مشتبه به وذلك في مواضع، لا تطرأ عليها لوقت طويل أي تغييرات في سن البلوغ. حيث قاس عدة مواضع من بينها طول الساعد والإصبعين الأوسط والأصغر وطول الجمجمة وعرضها وطول القدم والمسافة بين الذراعين وقسَّم القيم التي وصل إليها في ثلاث مجموعات مختلفة؛ ألا وهي "كبير" و"متوسط" و"صغير". ونشأ بهذه الطريقة "وصف أنثروبومتري للملامح الظاهرية" لكل مذنب، وهو الوصف الذي يُخضِع هوية المذنب لمثل تلك العملية المتشابكة الدقيقة لدرجة أنه أصبح من الممكن بدءًا من ثمانينيات القرن التاسع عشر الإجابة في مقرات الشرطة في المدن الأوربية الكبرى بموثوقية وسرعة أكبر عن سؤال هل ارتكب أحد المشتبه بهم في هذا المكان إحدى الجرائم ذات مرة. فالقيم التي كان يتم قياسها في مناطق الجسم، كانت تختلف -حسبما ذكر "بيرتيون"- بدرجة متفاوتة جدًّا لدرجة أن "من بين ستين ألف شخص لا توجد المقاييس نفسها على وجه التقريب سوى لدى اثني عشر شخصًا فحسب". لقد تحولت الكمية الكبيرة غير محددة الشكل، والتي لا يمكن السيطرة عليها، من صور المجرمين إلى أرشيف دقيق مقسم إلى مئات الأقسام، لا يضم كل قسم منفرد منها سوى القليل من الكروت الصغيرة ذات قيم قياس متطابقة والتي تعلن من ثمَّ عن هوية الشخص الذي يتم

البحث عنه وذلك بالمقارنة بالعلامات المميزة المتعارف عليها مثل الاسم والصورة الفوتوغرافية. يقول "بيرتيون" إن "أغلب المجرمين، الذين أعيد القبض عليهم، يفقدون الأمل في إمكانية أن تبقى حيلهم -حتى وإن كانوا قد خططوا لها جيدًا- غير مكتشفة"[130].

يجب أن ينتبه تأصيل تاريخ القياس الكمي للذات بدقة إلى هذه البنية التركيبية؛ حيث ارتبط شيوع تقنيات القياس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ارتباطًا وثيقًا بالكشف عن الانحرافات الاجتماعية. حيث قال "مانفريد شنايدر" في كتابه، الذي ألفه عن العلاقة بين السير الذاتية بمعناها الحديث وعلوم الإنسان، إن "قضية الهوية هي قضية إمكانية التعرف على الانحراف". إن هذا التقدير ينطبق تمامًا على أساليب مثل قياس الجماجم والوصف الأنثروبومتري للملامح الظاهرية للأفراد وأيضًا تجارب علم النفس التقني التي جرت بعد ذلك بربع قرن. لقد قال "بيرتيون" في نهاية إحدى المحاضرات بصورة لا تخلو من شعور بالفخر وبطريقة متوازنة: "بعبارة واحدة، إن الجوهر الرئيس للطريقة المنهجية الجديدة يتمثل في مهمة تحديد شخصية كل فرد بصورة محكمة وضمان أن يتمتع كل فرد بطابع فردي موثوق به ودائم ولا يتغير"[131]. وعندئذ كانت

130- Bertillon (1890), S. 4, S. 11, S.4 /5.

131- Schneider (1986), S. 23, Bertillon (1890), S. 30 /31.

هـذه "الشـخصية" فـي نهايـة القـرن التاسـع عشـر مرادفًـا لمجموعـة مـن البيانـات التـي تحـدد للإنسـان موضعًـا فـي منطقـة حدوديـة بيـن مـا هـو طبيعـي ومـا يتـم التوافـق عليـه اجتماعيًّا وتضعـه تحت مراقبـة خاصة. وفي هـذا الصـدد، تتمتـع قياسـات الجسـم بأهميـة شـبيهة لأهميـة أول "ملفـات شـخصية" تربويـة ونفسـية، تـم إنشـاؤها فـي مطلـع القـرن العشـرين.

وقـد اكتسـبت هـذه الطريقـة المنهجيـة مشـروعية علـى صعيـد نظريـات المعرفـة؛ حيـث أخـذ علمـاء الأنثروبولوجيـا وعلم البحـث الجنائي وعلمـاء الفيزيـاء النفسـية ينطلقـون مـن سـياقات غيـر قابلـة للجـدل وتقـع بيـن الملامـح الظاهريـة والأوضـاع الداخليـة وكذلـك بيـن حـالات الضعـف الجسـماني والحالات العقلية والنفسـية والأخلاقية الشـاذة ذات الصلة بذلك. حيـث قـال "ماركـوس كـراوزه" إن "بـروكا" و"لمبـروزو" افترضا وجـود "علاقة تمثيليـة شـفافة بصـورة مطلقـة"[132] بيـن الجمجمـة والدمـاغ والاسـتعداد النفسـي الداخلـي (مثلمـا فعـل علـم فراسـة الدماغ فـي مطلع القرن التاسـع عشـر. وكان هـذا علـى كل حـال بطريقة نظرية أكثـر ودون المطالبـة بإجراء قيـاس دقيـق). كمـا أن تجـارب "مونسـتربرج" كانـت تنسـب كل ارتفـاع فـي ضغـط الـدم وكل تسـارع فـي ضربـات القلـب إلـى اضطـراب داخلي.

132- Krause (2008), S. 362.

مـن المهـم فـي هـذا الصـدد تأمـل فئـات القيـاس فـي ثقافـة "القيـاس الكمـي للـذات". فقـد أثبتـت "الخطـوة" أنهـا أكثـر وحـدة قيـاس شـيوعًا في السـنوات الأخيـرة. ولـم يعـد مـن الضـروري فـي الوقـت الحاضـر أن ينشـأ جهـاز مخصـوص من أجل حسـاب عددها مثلمـا تفعل أسـاور اللياقة البدنية علـى سـبيل المثـال. فهذه الخاصيـة مُضمَّنـة بالفعل في الإعدادات القياسـية لأجهـزة الهواتـف الذكيـة التي تحظى بأكبـر قدر من الشـعبية. وهو ما يوجد علـى سـبيل المثـال فـي تطبيـق "صحتـي" الموجـود فـي كل أجهـزة الأيفون التـي تـم طرحهـا منـذ طـراز "أيفـون 5 س". وهـذا التطبيـق لا يمكـن مسـح رمزه من شاشـة جهاز الهاتف. أي أن كل مسـتخدمي أجهزة الأيفون الأحدث يحسـبون اليـوم عـدد خطواتهـم يومًا بعد يوم؛ سـواءً تم هذا لغـرض تدريبي بحـت أم بصـورة عابـرة ودون أن تتـم مراقبـة تلـك القيـم أو حتـى ملاحظتها بالأسـاس. لكـن أين نشـأ هـذا الاحتياج لحسـاب عدد الخطـوات للمرة الأولى في سـياقات غير السـياق العسـكري؟ وفي ظل أي ظروف كان من الضروري فـي العلـوم الإنسـانية أن يتم حسـاب وحـدة القياس "خطـوة" حسـابًا دقيقًا ومسـتندًا إلـى أجهزة تقنية؟ توجد في كتاب "مرجـع لقضاة التحقيق" –الذي ألفـه "هانـز جـروس" وأصبـح أحد الكتـب التعليمية المؤسسـة لعلـم البحث الجنائـي وصـدر فـي طبعـات كثيـرة بـدءًا مـن عـام -1893 فقرة أطـول. وقد اقتـرح فيهـا "جروس" على المحققين الشـرطيين أنه "لم يعد يجب عليهم أن يتنزهوا" في المسـتقبل "أي أن يتجولوا شـاردي العقل وأن يسـتمتعوا بذهنٍ

صافٍ بالعالـم الجميـل الذي خلقـه الرب" وإنما يجب على الأرجح –حسـبما كتب "جروس"- أن "تكون معهم في أيديهم في كل طريق للاستجمام أو لأداء الخدمـة خرائـط هيئـة الأركان العامة". وأوضح "جروس"، تطبيقًا على دراسـة حالـة، سـبب أهميـة هـذا الاهتمـام المتواصـل بالطرق والمسـافات بالنسـبة للمحققيـن. "فليضـع أحـد الشـهود تقديرًا لمسـافة هامة. لنقل مسـافة مئتي خطـوة. وليتـم اقتيـاده إلى الهـواء الطلق وعليـه إذًا أن يقول إلى أي مسـافة يتأتـى أن يخطـو الإنسـان عدد مئـة أو مئتيـن أو ثلاثمئـة أو أربعمئة خطوة. وبقيـاس هـذه المسـافات يمكن أن يتم بدقة بعض الشـيء تحديـد هل قدَّر الشـاهد المسـافات بشـكل صحيـح وإلـى أي مـدى حـدث هـذا؟". وأوصـى "هانـز جـروس" علمـاء البحث الجنائي في المسـتقبل بإضفـاء طابع احترافي علـى هذا الحسـاب للمسـافات و"قياس مسـافة" المناطـق المحيطة بمناطق عملهـم "بصـورة مسـبقة بالفعـل وتدويـن مسـافاتهم من أجل إجـراء تجارب لاحقـة. فعلـى مدار سـنوات، حظيتُ بإطلالة مـن المكتب مناسـبة جدًّا لهذا الغرض وكنت أعرف على سـبيل المثال أن المسـافة حتى ركن المنزل الأيسـر تعـادل خمسًـا وسـتين خطـوة وأن المسـافة حتـى شـجر الحـور تعـادل مئـة وعشـرين خطـوة وحتى برج الكنيسـة مئتين وعشـرة خطـوات وحتى المنزل الصغيـر أربعمئة خطوة وحتى جسـر السـكك الحديدية تسـعمئة وخمسـين خطـوة، وقـد نظَّمـت مـع بعـض الشـهود مـن أجل ذلـك مجموعة تجـارب لا تعـد ولا تحصـى والتـي كانـت باسـتمرار تجـارب تسـفر عن إيضاحـات. ومن

كان مـن الشـهود يأتـي ببضعـة تقديرات صحيحـة إلى حدٍّ ما، كنت أسـتطيع أن أصـدق تقديراتـه الهامـة الخاصـة بالجرائـم. لكـن خلافًـا لذلـك لـم أكـن لأصدقها"[133].

كان عالـم البحـث الجنائـي، الـذي عـاش مرحلـة التحـول إلـى القـرن العشـرين، شـخصًا يعد الخطوات بصورة بشـرية أي كان بمثابة أسـورة لياقة بدنيـة مـن لحـم ودم؛ غير أن هذه الأداة لم تكن تفيـد الحالة الصحية العامة وإنمـا كانت تفيد الشـرطة والعدالة الجنائيـة. ووفقًا لرأى "جروس"، ربما كان سـيصبح مـن الباعث على الشـعور الكبير بالارتياح في هـذا الصدد لو لم يتم عمـل الإحصـاء العـددي المهلـك علـى يـد المحقق بنفسـه وإنما عـن طريق جهـاز تقني مسـاعد. ويمثل كتاب "مرجع لقضاة التحقيـق" مثل هذا الجهاز؛ فقـد عـرض "جـروس" فـي فصـلٍ -كتبه عـن "معدات" عالـم البحـث الجنائي العملـي- محتويـات "حقيبـة الأدلـة الجنائيـة الخاصة بـه" والتي أسـماها في مـا بعد "حقيبة مسـرح الجريمة". حيث كان فيها عـداد آلي للخطوات، عُرِف باسـم "الموقـع 31"، والـذي يـرد وصفـه كما يلـي: "ليس من الضـروري حتمًا وجـود عـداد خطـوات ولكنـه مريـح للغايـة بالطبـع. حيـث يحصـل الإنسـان علـى مثـل هـذه الأدوات، فـي شـكل وحجـم سـاعة جيـب، فـي مقابل سـعر يتـراوح بيـن اثنـي عشـر وسـتة عشـر كرونًـا (أي مـا يعادل سـعرًا يتـراوح من عشـرة إلـى أربعـة عشـر مـاركًا ألمانيًّـا). وعندمـا يكون مـن المفتـرض قياس

133- Gross (1893 /1914), S. 50, S. 37, S. 37.

مسافة أكبر، فإنه يتم ضبط كل المؤشرات (مؤشر الألف خطوة ومؤشر المئة خطوة ومؤشر الوحدات القياسية للخطوات) على رقم صفر ويتم تثبيت العداد ومن ثمَّ تسير الأمور. حيث يوجد في الجهاز مطرقة صغيرة مثبتة بصورة مرنة ووزنها ثقيل والتي تسقط مع الاهتزاز الناتج عن كل خطوة وتدفع مؤشر الوحدات القياسية للخطوات نحو رقم واحد مرةً أخرى. وبعد مئة خطوة يدور هذا المؤشر حول نفسه لمرة واحدة وعندئذ يشير مؤشر المئة إلى رقم واحد ونفس الأمر يحدث من ثمَّ مع مؤشر الألف خطوة". لقد طرح "هانز جروس" في ما بعد سؤالًا عن الموضع المثالي في جسد قاضي التحقيق والذي ينبغي حفظ الجهاز الصغير فيه. واقترح ارتداء الجهاز مثل ساعة جيب. وأضاف "جروس" أنه: "من أجل جعل الاهتزاز حيويًّا وآمنًا، يصبح من الأفضل وضع العداد في الحذاء الشتوي بدلًا من وضعه في جيب الصديري ومن ثمَّ لن يترك الجهاز أي خطوة دون أن يحسبها. وينطبق هذا الأمر بصفة خاصة عندئذ عندما يسير الإنسان على أرضٍ وثيرة (أرض رملية أو أرض أحد المروج الخضراء أو أرض بها طحالب أو على ثلوج... إلخ) أو عندما يطأ الأرض عمومًا محدثًا صوتًا أكثر انخفاضًا وبرشاقةٍ متزايدة. من المفهوم أن الإنسان يحصل بواسطة ذلك على بيانات موثوق بها بصورة أكبر مما يحصل عليه عن طريق الإحصاء العددي البشري للخطوات. ويمكن للإنسان –أيضًا- أثناء السير أن يوجه انتباهه لأمرٍ أكثر أهمية مما يحدث عندما يضطر الإنسان إلى التركيز على الإحصاء

العـددي البشـري بشـكل متواصـل"[134]. ومثلمـا يضـع الرواد من مسـتخدمي أجهـزة شـركة "نايكـي+" فـي الوقـت الحاضـر عـدَّاد الخطـوات الخـاص بهـم والمعتمـد علـى نظـام "جي بـي إس" في المـكان المخصص لذلـك في حذاء الركـض الرياضـي، فقـد كان قراء "جـروس" يجوبون بخطواتهـم -بين محققي الشـرطة- المناطـق التـي يمـرون بهـا وهـم يضعـون جهـاز عـدٍّ الخطـوات المُطـوَّر حديثًـا فـي أحذيتهـم الشـتوية. أي أن "الخطوة" أصبحـت في مطلع القـرن العشـرين أمـرًا خاضعًـا للحسـاب الدقيـق في سـياقٍ علمـي وأصبحت أهـم عناصـر أحـد المواقف الاسـتثنائية والـذي يمكن أن تتحول فيـه الأماكن لتصبـح مسـارح جريمـة ويمكن فيـه لأي نقطة تفصيلية غيـر مهمة أن تصبح حلقـة حاسـمة فـي سلسـلة الأدلة التـي تشـير لارتكاب جريمـةٍ ما.

تواجـد فـي هـذا الوقـت مجـال ثـانٍ للعلـوم الإنسـانية؛ أي موقـف اسـتثنائي ثـانٍ، وضـع فئـة "الخطـوة" كذلـك فـي بـؤرة الاهتمـام. لكـن علـى العكـس مـن تحقيقـات البحـث الجنائـي، لا تعـد "الخطـوة" هنـا بمثابـة أداة لإدانـة أشـخاص منحرفيـن وإنمـا تعبيـرًا عـن المنحـرف ذاتـه. لقـد وصـف الأطبـاء النفسـيون فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر ومطلـع القـرن العشـرين مـرارًا وتكـرارًا أحـد أنـواع المعانـاة النفسـية

134- Gross (1893 /1914), S. 160, S. 164 /65,

لقد ورد ذكر عداد الخطوات الآلي حتى في الطبعة الثانية من كتاب "مرجع لقضاة التحقيق" الصادرة عام 1894.

وأطلقــوا عليــه اســم "وســواس الإحصــاء العــددي القهــري" أو "إدمــان الإحصــاء العــددي" أو "هــوس الحســاب" وهــو أحــد أشــكال ظهــور تلــك المجموعــة مــن أعــراض المــرض النفســي التــي أســماها الطبيــب النفســي "كرافــت إيبينــج" فــي عــام 1867 بـ"الوســاوس القهريــة" والتــي ســيحللها "كارل فيســتفال" بعــد ذلــك بعشــر ســنوات تحليــلاً منهجيًّــا للمــرة الأولــى. إذا كان المقصــود بالوســاوس القهريــة –وفقًــا للتعريــف الكلاســيكي لـ"فيســتفال"- مثــل تلــك التخيــلات التــي "تبــرز فــي مقدمــة الوعــي رغمًــا عــن رغبــة الشــخص المعنــيّ ولا يتأتــى طردهــا وتعــوق وتفســد المســار الطبيعــي لأفــكاره"[135]، فــإن الاحتيــاج الجــارف، والــذي لا يتأتــى التحكــم فيــه، للإحصــاء العــددي المســتمر يعتبــر واحــدًا مــن أكثــر المظاهــر المزعجــة لتلــك الوســاوس. إن دراســات الحالــة التــي أجريــت علــى المصابيــن بمــرض "هــوس الحســاب" تصــف الإحصــاء العــددي القهــري لــلأوراق النقديــة والكلمــات المنطوقــة أو عــدد المــارة فــي الشــارع. غيــر أن أحــد أكثــر أشــكال ظهــور هــذا المــرض شــيوعًا فــي الدراســات الأخلاقيــة للأطبــاء النفســيين يتمثــل فــي الإحصــاء العــددي للخطــوات. ويختلــف مــرض "هــوس الحســاب" فــي رأي "كارل فيســتفال" بوضــوح عــن "الأفــكار المتخيلــة فعليًّــا" وصــار يُعتبــر فــي تشــخيصات مــرض الشــيزوفرينيا فــي مطلــع القــرن العشــرين مــن ثــمَّ بصــورة متزايــدة جــزءًا لا يتجــزأ

135- Krafft-Ebing (1867), S. 19; Westphal (1877 /1892), S. 393.

من هذا المرض[136].

فقد ذكر "جيورج يواخيم" على سبيل المثال في رسالة الدكتوراة الخاصة به والتي حملت عنوان "عن الوساوس القهرية" وصدرت عام 1892 التاريخ المرضي للسيدة "أوج. جيه" البالغة من العمر واحدًا وثلاثين عامًا والمنحدرة من برلين والتي أصبحت بعد انفصالها عن زوجها "في حالة بؤس بالغ"؛ حيث قال: "منذ ذلك الوقت، ظهر لديها وسواس قهري غريب والذي ما زال يصيبها بصفة دائمة. فكانت تنقب في الأشياء التي تقع عيناها عليها وتقوم بإحصاء عدد الأجزاء المتكونة منها [...] وعندما كانت تطأ الرصيف في الشارع، كان عليها دائمًا أن تضع قدميها على بلاط الرصيف وتحسب عدد البلاطات. وعندما كانت لا تتبع هذا الوسواس القهري، كان يعتريها شعور بالاضطراب الكبير للغاية وبالانزعاج". وبعد ذلك بثلاثين عامًا، أورد "فالتر يارايس" ذكر مجموعة من الحالات المشابهة وذلك في إطار أعراض مرض الشيزوفرينيا. حيث قال عن مريض اسمه "كارل فيه"، كان عمره تسعة عشر عامًا: "كان حتمًا عليه في نزهاته أن يحسب عدد خطواته حتى تصل إلى رقم ستة ومن ثمَّ يبدأ مرة أخرى من رقم واحد". بينما قال عن "ميشيل إس" البالغ من العمر

136- Westphal (1877 /1892), S. 394.

للاطلاع على أهمية الوسواس القهري في الطب النفسي في مطلع القرن العشرين انظر: يارايس (1926).

سبعة وخمسين عامًا أنه: "بدأ بعد سنوات في الإحصاء العددي. لا أعرف كيف أصبحت حاله هكذا. كان في بادئ الأمر يحسب عدد خطواته. وكان الرقم يلعب عندئذ دورًا هامًّا؛ حيث كان دائمًا ما يحسب هل عدد خطواته يقبل القسمة على الرقم أربعة أم لا. وعندما كان الرقم لا يقبل القسمة على أربعة، كان ينتابه شعور بالخوف [...] وعندئذ كان يضطر لأن يحسب عدد خطواته بأن يضيف عدد الخطوات إلى تاريخ اليوم بحيث ينتج عن هذا عددٌ فردي". لقد كتب "يارّايس" في محضر حديثه مع المريض أثناء الكشف النفسي قائلًا: "لقد نهض واقفًا من الكرسي ومضى بضع خطوات نحو اليسار، ثم قال: "يا إلهي، إنه أمر خاطئ! كان ينبغي عليَّ أن أذهب إلى الجهة الأخرى" ثم توَّجه نحو الباب وظل واقفًا أمامه وأخذ يمشي في خطواتٍ قصيرة متقاربة في هذا المكان واجتاز أخيرًا الباب بخطوةٍ كبيرة. وفي طريقه إلى العيادة الخارجية أخذ يحسب عدد درجات السلم. وشعر بسعادةٍ بالغة لأن عددها بلغ ثلاث عشرة درجة"[137].

لقد أوضحت الصور الأدبية المتعددة التي تطرقت إلى الهوس المرضي -أيضًا- قرابة عام 1900 أن أعراض عصر مرض الوهن العصبي قرابة عام 1900 ظهرت في شكل تركيز زائد على "الخطوات". حيث بدأ "ألفرد دوبلن" -والذي كان طبيبًا

137- Joachim (1892), A. 25 /26; Jahrreiß (1926), S. 761, S. 782, S. 783.

نفسـيًّا متدربًـا وكان بسـبب مهنتـه على صلـة بمعالجة هـذه المجال- إحدى أشـهر قصصـه والتـي حملت عنـوان "مقتل زهرة صفراء" وصـدرت عام 1905 بعبـارات: "لم يحسـب السـيد ذو الملابس سـوداء اللون عـدد خطواته واحد، اثنـان، ثلاثـة، حتـى مئـة وبالعكـس إلا عندمـا سـار نحـو أعلـى فـي طريـق شـجر التنـوب الواسـع متجهًـا نحـو "سـانت أوتيليـن"، ثـم نسـي الأمـر". لقد تـم تفسـير التاريـخ المرضـي للتاجـر "ميشـائيل فيشـر" -والـذي قطـع أثنـاء تنزهـه فـي إحـدى الغابات بواسـطة عصا رأس إحـدى الزهـور وأصبح يتخيل بصـورة تتزايـد قـوة دائمًـا أن هـذه الفعلـة تعـد قتـلًا دمويًّـا لأحـد الكائنات الحيـة- فـي أبحـاث علـوم اللغـة الألمانيـة والأدب "علـى أنـه وصـفٌ دقيـق لاضطـراب نفسـي قهـري". إلا أن الاسـتثارة المبالغـة فيها وتشـوه الوعي لدى البطـل أعلنتـا عـن نفسـيهما فـي الجملـة الافتتاحيـة للقصـة؛ وذلـك في ميل "فيشـر" المرضـي نحـو هـوس الحسـاب والـذي تجـدد علـى الفـور بعـد أول اعتـداء قـام بـه علـى الزهـرة بالعصـا أثنـاء تنزهـه فـي الأدغـال: "بعـد وقتٍ قصيـر أصبح مـن جديد على وشـك أن يحسـب عـدد خطواته: واحـد، اثنان،

ثلاثة"[138].

منذ الأوصاف الأولية للوساوس القهرية والسلوكيات القهرية حاول الطب النفسي أن يجد إيضاحات لهذا المرض المتعلق بـ"الدقة المبالغ فيها"، حسبما ذكر أحد أوائل المرضى في ألمانيا في نهاية الستينيات من القرن التاسع عشر. وكتب "كارل فيستفال" عام 1877 قائلًا: "لا يتضح من ملاحظاتي أن التجاوزات الجنسية من أي نوع (ومن بينها ممارسة العادة السرية) تلعب دورًا شائعًا بصورة خاصة في علم الأسباب المرضية"[139]. لكن اهتمام التحليل النفسي الشائع بالأمراض القهرية في نهاية القرن التاسع عشر يتعارض مع هذا الرأي. حيث كرَّس "فرويد" بعضًا من مقالاته الأولى للظاهرة التي أسماها "الطقوس المزعجة" للإحصاء العددي ولسلوكياتٍ قهرية أخرى. وفسر في مقاله، الذي حمل عنوان "مقاومة الاضطرابات النفسية العصبية" وصدر عام 1894، هذه الاضرابات باعتبارها محاولة فاشلة لنسيان استثارة جنسية سابقة وأضاف أن "جعل

138- Döblin (1911 /2013), S. 95; Marx (1997), S. 55 (انظر Duytschaver [1973]), Döblin (1911 /2013), S. 60.

لم يكن "ميشائيل فيشر" والذي كان يحسب عدد خطواته باستمرار هو البطل الوحيد المصاب بعدم استقرار في أعمال دوبلن ففي رواية "دوبلن" التاريخية الضخمة "18 نوفمبر" ورد عن البطل "فريدريش بيكر" أنه "كم كان يحسب عدد خطواته ويراقبها ويستدير سريعًا نحو الوراء من جديد ليرى ما الذي يدور وراء ظهره" (نقلًا عن Schäffner [1995], S. 44).

139- نقلاً عن Greisinger (1868 /69), Westphal (1877), S. 405.

التصـورات الصعبـة تصـورات آمنـة" ربمـا يظهر لـدى المريض إمـا في صورة أعـراض جسـدية هيسـترية أو يبقـى مقتصـرًا علـى الجانب النفسـي باعتباره اضطرابًـا قهريًّـا. وبشـكلٍ لا لبـس فيـه، ورد بعـد ذلـك بعاميـن –أيضًـا- فـي مقـال بعنـوان "ملاحظات أخـرى عن مقاومة الاضطرابات النفسـية العصبية": "يمكـن التعبيـر عن طبيعة الاضطرابات النفسـية القهرية بصيغة بسـيطة: إن الوسـاوس القهريـة تعـد بمثابة اتهامـات متحولة في كل مـرة ومتكررة ناتجة عـن الشـعور بالكبـت وهـي الاتهامـات التـي تتعلق دائمًـا بفعلٍ جنسـي تم أداؤه فـي فتـرة الطفولـة وصاحبه شـعور بالمتعة"[140].

لطالمـا ظـل الإحصـاء العـددي الدقيـق للغايـة الـذي يجريـه الشـخص لخطواتـه يُعتبَـر في الفترة قرابة عام 1900 إما بمثابة عملية كبت فاشـلة أو فـي إطار رأي الطبيب النفسـي الفرنسـي "كولييه" والـذي كان يرى أن مرضى الصـرع والاكتئـاب ربمـا يسـتفيدون "أحيانًـا" مـن هـوس الحسـاب "باعتباره وسـيلة ليتحرروا من أفكارهم المقبضة. وينشـأ بالتدريج من الفعل التعسفي بالأسـاس رغبـة جامحة لإجـراء عمليات حسـابية عديمـة الجـدوى"[141]. على كل حـال، فـإن هـذا النشـاط يتواجـد تمامًـا فـي ظـل التبعيـة للآخـر بشـرط

140- Freud (1896 /1952), S. 391, Freud (1894 /1952), S. 63, Freud (1896 /1952), S. 386.

141- Cullere, Alexandre, Les Epileptiques arithmomanes (1890), نقلاً عن وترجمة Donath (1918), S. 56.

ألا يتـم استخدام هـذا النشـاط فـي إعـادة التأهيـل لارتـكاب جريمـة مـا. ولـذا لـم يكـن مـن قبيـل العبـث أن تعـد مصطلحـات "السـلوكيات القهرية" و"الوسـاوس القهريـة" و"الأوضـاع القهريـة" بمثابـة مصطلحـات متخصصـة تشـخيصية ذات صلـة بذلـك. إن الدافع للإحصاء العـددي المتواصل هو ذلك الدافـع الـذي يغلـب علـى الفـرد ويهـدده بـأن يسـلبه سـيطرته علـى جهـاز الإدراك والتصـور لديـه. وعـلاوةً علـى ذلـك يمكـن للإنسـان –أيضًـا- ألا يأمن لنتائـج الإدمـان الحسـابي الذاتـي، وهـو مـا كتبـه "ليوبولـد لوفنفيلـد" عـام 1904 فـي أفرودتـه الأكثـر شـمولًا حتـى ذلك الوقـت والتي تناولـت موضوع الاضطرابـات القهريـة. ففـي تاريـخ حالـة أحـد المرضـى "الـذي كان يحسـب عـدد مـرات ابتلاعـه لريقـه وعـدد ضربـات قلبـه" ورد: "إن الإحصـاء العددي لضربـات القلـب كان [...] محـض تخيـل؛ لأن نتيجة هذا الإحصـاء العددي لم تتطابـق مـع عدد ضربـات القلب الفعلي"[142]. أي أن الطب النفسـي لم يكن يعتـرف فـي فتـرة التحول نحـو القرن العشـرين حتى بموثوقيـة عملية حصر البيانـات التـي كان يقـوم بهـا المرضـى بهوس الحسـاب.

إن الإحصــاء العــددي الجماعــي للخطــوات فــي الثقافــة الرقميــة وإمــداد النــاس فــي الوقــت المعاصــر بصــورة أساســية بتطبيقــات "صحتــي" فــي أجهــزة الهواتــف الذكيــة وأســاور شــركة "فيتبيــت" التــي توضــع فــي معصــم اليــد لــم يعــد أمــرًا جبريًّــا وإنمــا قــرارًا يتخــذه

142- Löwenfeld (1904), S. 230 /31.

الشخص بمحض إرادته. فالاستعداد المرضي الداخلي تحوَّل إلى رغبة للتمتع باللياقة البدنية، كما تحول "كبت الاتهامات المتكررة" بالمفهوم الجنسي إلى برنامج للتمكين الذاتي. لقد رأى "فرويد" أن "مراقبة الأعداد" القهرية التي يقوم بها المضطربون نفسيًّا تعد بمثابة "تدابير يتخذونها للتكفير عما اقترفوه"[143]. لكن عن أي ذنوب ينبغي أن يكفر ملايين مستخدمي الأجهزة التي يمكن ارتداؤها والمتمتعين بالوعي الصحي في الوقت الحاضر؟

القياس والتصنيف والتمييز العنصري:

لقد أدى تركيز بؤرة اهتمام تقنيات القياس في العلوم الإنسانية على معرفة الانحرافات في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى ظهور السعي الملحوظ بأشكالٍ متعددة إلى الإساءة إلى سمعة قطاعات كاملة من السكان وإقصائها عن طريق إجراء قياسات كمية لأجساد أفرادها. فقد كرَّس المؤرخ المعرفي "ستيفن جاي جولد" دراسته، التي حظيت بالشهرة وحملت عنوان "الإنسان الخاضع للقياس بشكل خاطئ" والصادرة قبل خمسة وثلاثين عامًا، لهذه المحاولة ذات الأثر القوي. وقد وجهَّت هذه الدراسة انتقادًا جوهريًّا غاضبًا لنظريات الحتمية البيولوجية لـ"بروكا" و"لمبروزو" والآباء المعرفيين

143- Freud (1896 /1952), S. 391.

لاختبـارات الـذكاء فـي القـرن العشـرين. حيـث سـعى "جولـد" "إلـى التنديد بالمخاطـرة الكاملـة فـي تصنيـف الجماعـات الإنسـانية تبعًـا لأهميتهـم البيولوجيـة، علـى الوضـع الـذي هـي عليـه، وذلـك باعتبـار هـذه المخاطـرة غيـر ذات أهميـة وغيـر أمينـة مـن الناحيـة العقليـة وضـارة لأقصـى درجـة". وكانـت تحليلاتـه تـدور فـي تلـك الأثنـاء فـي المقـام الأول حول اسـتنتاجين مضلليـن جوهرييـن يحدثـان عنـد قيـاس نسـبة الـذكاء وفقًـا لمـا يجـري في علـم قيـاس الجماجـم وعلم النفس الذي يجري قياسـات كمية وذلك حسـبما ذكـر "جولـد". يتمثـل هـذان الاسـتنتاجان مـن ناحية فـي الممارسـة العلمية عنـد "تحويـل المفاهيـم المجردة إلى أمـور جوهرية" ومن ناحيـة أخرى في أسـلوب "تصنيـف الاختلافـات المعقـدة وفقًـا لمقيـاس متدرج يتصاعد شـيئًا فشـيئًا". إن هـذا التقليـص المـزدوج لظاهـرة متغايـرة مثـل الـذكاء علـى أنها "شـيء متماثل" -يمكن من ثمَّ أن توضع له أرقام بصورة ملموسـة وفي إطار تدرجـاتٍ مـا- ربما يـؤدي إلى "القياس الخاطئ للإنسـان" وهو عنوان دراسـة "جولـد". إلا أن "سـتيفن جـاي جولـد" اعتبـر حـالات القصـور المنهجية هذه منطقيـة طالمـا أن علم قياس الجماجم أو اختبار الـذكاء الجمعي لـ"جودارد" و"تيرمـان" لا يـدوران على أي حـال حول محاولة الوصـول لمعرفة موضوعية وإنمـا حـول التأكيـد العلمـي علـى الأحـكام الاجتماعيـة المسـبقة و"إيضـاح الاستنتاجات البديهية". حيث قال إن الترتيب "أبيض-أسود-قرد" أو "العفيف-المجرم-القـرد" يتواجـد بصـورة ثابتـة منـذ البدايـة بالفعـل فـي إطـار فكـر

"بـروكا" و"لمبـروزو" المتأثـر بنظريـة الداروينيـة الاجتماعيـة وذلـك قبـل أن تقـدم مجموعـة كبيـرة مـن القياسـات دلائـل مزعومـة علـى وجـود فرضيـة أساسـية ذات دوافـع أيديولوجيـة[144].

عندمـا طـرح مسـلك "جولد" مـن ناحيته أسـئلة منهجية أيضًا؛ بأن سـعى كذلـك للبرهنـة علـى افتـراض مبدئـي عـن طريـق مجموعـة مـن الدلائـل وحـاول فـي بعـض المواضع أن يتغلب ببسـاطة على نتائج القيـاس التاريخية المنتقـدة عـن طريـق نتائـج قيـاس أدق، توصـل لهـا هـو بنفسـه؛ كان كتابـه بمثابـة مرجعيـة هامـة للقضايا المطروحـة هنا. فبادئٍ ذي بـدء، أوضح كتابه الاختلافـات القائمـة بيـن علـوم القيـاس العظيمـة المتواجـدة فـي العقـود قرابـة عـام 1900 وبيـن تقنيات الإدراك الذاتـي في الثقافـة الرقمية. فصحيح أن مـن يقومـون اليـوم بالقيـاس الكمـي للـذات يتأملـون أنفسـهم باعتبارهم "خـدم يتبعـون لأرقامهـم"[145] أي مثـل الباحثيـن الذيـن وصفهـم "جولد". إلا أن اسـتخدام هـذه القيـم القياسـية فـي إيضـاح الترتيـب الاجتماعـي الطبقي لا يلعـب هنـا أي دور علـى الإطـلاق. يتضـح هـذا الفـارق بصفـة خاصـة فـي مصطلح "الاسـتعداد الفطري الداخلي". فبالنسـبة لعلماء علم قياس الجماجم والأمريكييـن الذيـن قامـوا بتعميـم اختبار الـذكاء، تعد الطبائـع البيولوجية – والجينيـة أيضًـا بعـد النجاحـات التي حققها علـم الوراثة- لكل إنسـان بمثابة

144- Gould (1981 /1994), S. 132, S. 18 /19, S. 74 /75.

145- نفس المرجع السابق، ص 19.

العامل الحاسم في تطوره ووضعه الاجتماعي. إن *كيان* مرتكب الجرائم أو التلميذ، الذي يعاني من مشكلات ما، يعد كل شيء وهو الكيان المتمثل في شكل جمجمته وحجم مخه وتركته القانونية. أما *المصير*، *الذي يؤول إليه* الإنسان ويتأثر بالعوامل الديناميكية الخارجية، فيتأتى إغفاله. ولذلك فقد وصف "جولد" علوم القياس، التي حلَّلها، بمفهوم جميل وهو مفهوم "نظريات الحد"[146]. تقول هذه النظريات إن الاختلافات القابلة للقياس الكمي بين العرقيات والأجناس أو المجموعات السكانية لا تعد فطرية فحسب وإنما غير قابلة للتغيير أيضًا. إن هذا التصنيف الطبيعي، والذي لا يمكن تجاوزه بالنسبة للفرد، يخالف كل مبادئ ثقافة القياس الكمي للذات والتي تهتم بالإزاحة الدائمة للحدود وبالوصول بها إلى الدرجة المثالية أي بالتصور الواهم المحدق يومًا بعد يوم وخطوة فخطوة عن وجود حياة أكثر صحة وأكثر انجازًا وحافلة بصورة أكبر.

من تثبيت الحدود بين الجماعات استنادًا للبيانات إلى توسيع الحدود بين الأفراد استنادًا للبيانات: يبدو أن هذا المنحنى العريض يميز بين علوم القياس السابقة ومَن يقومون بالتتبع الذاتي في الوقت الحاضر. ومع ذلك فإنه عند تأمل كلا الجانبين بصورة أدق تلتفت الأنظار إلى وجود بضعة تشابهات بينهما من حيث الأساليب والدوافع. وهي التشابهات التي تجعل المسافة

146- نفس المرجع السابق، ص 164.

بيـن الجانبيـن تتقلـص مـن جديـد. حيـث تصبـح فئـات تصنيفيـة واردة فـي كتـاب "جولـد" مثـل "مؤشـر الجمجمـة" و"نسـبة الـذكاء" محـل انتقـاد حاد؛ لأنهـا تُحـوِّل ظاهـرة متعـددة الأوجه إلى "كيـان قابل للقيـاس"[147]. ألا يمكن اعتبـار تصـورات مثل نقـاط برنامـج "فيتاليتي" وهـو برنامج التأميـن الجديد الخـاص بشـركة "جنرالـي" أو نقـاط نظـام "هيلـث سـكور" الـذي طرحتـه الشـركة السويسـرية "داكادوو" بمثابـة مثـل تلـك الاختـزالات؟ إن الكيانـات المعقـدة وذات الشـكل المختلف من شخص لآخر مثل "الصحـة" أو "الحالة المزاجيـة" تظهـر هنـا بوصفهـا كميـة محـددة قابلـة للقيـاس بدقـة وتصلـح لـكل شـخص علـى حدٍ سـواء. أي أنـه يمكن بحـق وبصورة مماثلـة أن ينطبق كلا "الاسـتنتاجين المضلليـن" المنهجييـن والمتمثليـن في "التشـيؤ" و"قابلية القيـاس المتـدرج" -واللذيـن حـاول "جولـد" تتبعهمـا فـي سـبيل القيـاس التاريخـي لنسـبة الـذكاء- اليـوم أيضًـا علـى قيـاس الصحـة والحالـة العامـة الجيدة.

فــي هــذا النطــاق، انتقــل أيضًــا الاعتنــاء بالفــرد -والــذي قــاده للوهلـة الأولـى مشـروع القيـاس الكمـي للـذات- فـي اتجـاه الوصـول إلــى مجموعــة مــن الأفــراد. إن الأمــر لا يتعلــق -مثلمــا كان لــدى "بـروكا" و"لمبـروزو" و"جـودارد"- حـول المشـروعية البيولوجيـة للأقليـات الاجتماعيــة مثــل النســاء وذوي البشــرة الســوداء والمجرميــن والفقــراء.

147- نفس المرجع السابق، ص 173.

فمـن المفتـرض أن تتيـح البرامـج التأمينيـة وبرامـج التأميـن الصحـي الجديـدة المسـتندة إلـى الإدراك الذاتـي الرقمـي التحديـد والتمييـز الأدق بيـن مجموعـات الأصحـاء ومجموعـات المرضـى ومَـن يتلقـون تدريبًـا جيـدًا والمنهكيـن وبيـن مـن يدركـون قيمـة الوقايـة والمتهاونيـن فـي ذلـك. حيـث نتجـت تدرجـات هرميـة جديـدة، لا يُفتـرَض أنهـا تمثـل تصنيفـات طبيعيـة، لكنهـا تتطابـق فـي جانـب مهـم مـع علـوم القيـاس السـابقة؛ ألا وهـو جانـب إغفـال العوامـل الاجتماعيـة والاقتصاديـة. فقبـل مئـة عـام أعـرب "لويـس تيرمـان"، والـذي طـوَّر اختبـار ذكاء "سـتانفورد بينيـه"، عـن اقتناعـه بـأن "الحـدود الطبقيـة تحـددت علـى أسـاس الـذكاء الفطـري"[148]. وعندمـا قـدم "جـاري وولـف" مفاهيمـه الأربعـة "نحيـف" و"غنـي" و"سـعيد" و"ذكـي" وجعلهـا الأهـداف الرئيسـة للتتبـع الذاتـي، فإنـه افتـرض كذلـك –أيضًـا- وجـود مرجعيـة حتميـة لذلـك فـي داخـل الإنسـان. ولـم تعـد الطبائـع الجسـدية –حسـبما اعتقـد "تيرمـان"- وإنمـا الإرادة الحتميـة هـي الأقـوى مـن كل قـوة اجتماعيـة. ففـي الحجـج، التـي سـاقها "تيرمـان"، يظـل مـن يتسـم بمسـتوى منخفـض مـن الـذكاء فقيـرًا وغبيًّـا. أمـا فـي الحجـج، التـي سـاقها "وولـف"، فـإن الفقيـر والغبـي هـو الشـخص الـذي لـم يبتكـر اسـتعدادًا مـا للإنجـاز أو نظامًـا ما لـلإدراك بدرجة كافيـة؛ إنهـا بالتأكيـد ليسـت مواقـف مختلفـة بصـورة قاطعـة. فالداروينيـة الاجتماعيـة الخاصـة بمـن يجـرون قياسـات للجمجمـة والدمـاغ تبـدو

148- نفس المرجع السابق، ص 201.

اليـوم نوعًـا مـن الداروينيـة العقلانيـة. وبهـذا المعنـى، لـم يكـن مـن قبيـل الصدفـة أن يسـتوحي أحد أحـدث الإعلانات الدعائية لشـركة "فيتبيت" فكرة تكويـن أجهـزة التتبـع الذاتي الخاصة به من اللوحة الشـهيرة التي تسـتعرض تاريـخ نظريـة التطـور وتعرف باسـم "مسـيرة التقدم".

إذا كانـت أكثـر شـركات الثقافـة الرقمية تأثيـرًا تكترث حقًّا بخلق إنسـان جديـد، فـإن عنصـر الإعـلان يوضـح هـذه المطالـب إيضاحًـا بالغًـا بصـورة تفـوق اللهـو المحـض. وتقود جماعة مـن يقومون بالقيـاس الذاتي مثل هذه التأصيـلات التاريخيـة إلـى وضـع حـرج. فمـن المعـروف أن الأمـر يتعلق هنا بمجتمـع، يعـج بالحساسـية السياسـية الأخلاقيـة وترافقهـا مبـادئ مناهضـة للعنصريـة العرقيـة والعنصريـة الجنسـية. إلا أن هذه الحساسـية واصلت في مطلـع القـرن الحـادي والعشـرين اللجـوء إلى ممارسـات للقياس، نشـأت في أواخـر القـرن التاسـع عشـر باسـم العنصريـة الجنسـية والعنصريـة العرقيـة والتمييـز العنصـري الاجتماعي.

الاستبطان وإنتاج البيانات:

عندمـــا وضـــع "جـــاري وولـــف" فـــي بيانـــه التأسيســـي لحركـــة "القيـــاس الكمـــي للـــذات" حـــدودًا بيـــن قيـــاس الجســـم و"الاتجـــاه الإنســـاني الأدبـــي المســـهب" للتحليـــل النفســـي ووضـــع التســـجيل

التقنـي لـ"أكثـر الأفكار والتصرفات التافهة والهامشـية" فـي مواجهة تعبيرات هـذا الاتجـاه اللغويـة المحفـورة فـي طبقـات الوعـي العميقـة، فإنـه أعـاد بذلـك صراعًـا منهجيًّـا عـن معرفـة الإنسـان وهـو الصـراع الـذي احتـدم فـي السـنوات قرابـة عـام 1900. لقـد اسـتعرض "فرويـد" و"برويـر" فـي الحـالات المرضيـة الأولـى لديهـم قـوة "العـلاج بالحكـي" والـذي يشـفي مـن الأعراض المرضيـة الجسـدية الهيسـتيرية وذلـك بـأن يسـتدعي المحلـل النفسـي الذكريـات المناسـبة والحكايـة المناسـبة فـي نفـس المريـض ويتمكـن بذلك مـن حـل عقـدة الاضطـراب النفسـي لديـه. إن الـذات تعـد في هـذا التصور العلاجـي بمثابة مجموعة من انطباعات السـيرة الذاتيـة التي تمت معالجتها بصـورة أفضـل أو أسـوأ. ويكمـن فـن التحليل النفسـي في الوصـول إلى أصل الانطباعـات "المكبوتـة" فـي الماضـي عبـر وسـيط اللغة.

إلا أن التعامـل الهرمينوطيقـي مـع مـا يعتمـل فـي قـرارة نفـس الإنسـان وهـذا المنظـور الرأسـي لأسـراره وألغـازه تعـارض فـي العلـوم الإنسـانية فـي فتـرة التحـول إلـى القـرن العشـرين مع إجـراء أفقـي، تمتع على الأقـل بتأثير مـا. فالفـروع العلميـة مثـل علـم النفـس التجريبـي ومـدارس علـم النفـس التقنـي والمذهـب السـلوكي المنبثقـة عـن ذلـك لا تعبـأ كثيـرًا بالوصـول عـن طريـق اللغـة لقـرارة نفـس الإنسـان أو بأصـول الاضطرابات التـي ترجع إلـى السـير الذاتيـة، وإنمـا بإنتـاج وتسـجيل التعبيرات الجسـدية السـطحية. أي أن القيـاس حـلَّ محـل اسـتبطان المريـض وحـلَّ إنتـاج ذبذبـات الجسـم

والبيانـات محـل إنتـاج الذكريـات والعبـارات. كمـا حـلَّ رد الفعـل الفـوري علـى المثيـرات محـل الثـورات المتأخـرة علـى التعقيـدات المسـتترة. إلا أن ردود الأفعـال والذبذبـات هـذه تعـد دقيقـة للغايـة لدرجـة أنـه لـم يعد من الممكـن فـي أغلب الأحوال تسـجيلها بالحواس البشـرية. فعلى سـبيل المثال كتـب "هوجـو مونسـتربرج" عـام 1914 أن "الدليـل علـى أن أبسـط التقلبات الشـعورية –أيضًـا- تظهـر فـي تغيـرات الـدورة الدمويـة والحركـة اللاإراديـة للعضـلات ونشـاط الغـدد الجلديـة" يحتـاج إلـى أدوات تقنيـة مسـاعدة من أجـل "جعـل" التعبيـرات الجسـدية المعبرة عـن الانفعـالات النفسـية "قابلة لـلإدراك، حيثمـا قـد تُفلِـت ربمـا مـن الوعـي المعتـاد لمن يسـعى للكشـف عنهـا"[149]. ولذلـك تعـد المسـاعدة، التي تقدمهـا الأجهزة والوسـائط التقنية، حتميـة منـذ البدايـة مـن منظـور علـم النفـس المنشـغل بالقيـاس الكمـي للـذات. حيـث يجـب علـى أجهـزة تسـجيل نبـض القلـب وأجهـزة تسـجيل ضغـط الـدم وأجهـزة قيـاس التنفـس القيـام بتلـك المهمـة التـي لا يحتـاج المحلـل النفسـي فيهـا سـوى إلـى آذان وقلـم وورقـة. فبالدرجـة، التـي تفقد بهـا العلـوم الإنسـانية –أيضًـا- الإيمـان بـأن الإنسـان قـد يمكنـه مـن تلقـاء نفسـه وعـن طريـق وسـائل الذاكـرة واللغـة أن يبـوح بالحقيقـة، يرتفـع الجهـد التكنولوجـي مـن أجـل جمـع هـذه الحقيقـة مـن الإِشـارات المتجزئة

149- Münsterberg (1914 /1920), S. 236, S. 507; Münsterberg (1908 /1923), S. 82.

التي يرسلها جسده.

وبالإضافة إلى علم النفس التقني التي ابتكرها "مونستربرج" فإن علم النفس السلوكي الشائع في الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الوقت يعد أحد عناصر النقد اللاذع للغاية والموجه للتعامل الهرمينوطيقي مع ما يعتمل في قرارة نفس الإنسان. فبينما تحرص المدرسة التجريبية التابعة لـ"فيلهلم فونت" منذ السبعينيات في القرن التاسع عشر على إجراء قياسات دقيقة لانفعالات الوعي الإنساني، فقد خطا "جون واطسون" مؤسس المذهب السلوكي خطوةً أخرى وألغى فئة الوعي بالأساس. حيث ورد في مقاله الذي حمل عنوان "علم النفس: كيف يراه علماء المذهب السلوكي" والصادر عام 1913: "يبدو أن الوقت قد حان لأن يضطر علم النفس للتخلي عن كل صلة له بالوعي البشري وألا يحق له مجددًا الاستسلام للوهم بأن يجعل حالات الوعي موضوعًا يتعرض له علم النفس بالمراقبة". كما كتب أن قدرة المدرسة التجريبية على التجديد ربما تكون قد تمثلت "فقط في أنها استبدلت كلمة "الروح" بمسمَّى "الوعي"". لقد سعى "جون واطسون" ببساطة إلى أن يضع البحث البراجماتي عن سلوكيات الإنسان ونشاطاته في مواجهة هذا البحث عن جوهر للإنسان سريع الزوال ويتم وصفه بصورة نفسية. فتعرض بالدراسة -شأنه في ذلك شأن علماء علم النفس التجريبي- إلى العلاقة بين "المؤثر" و"رد الفعل" والعلاقة بين الدوافع الخارجية والتحولات

الداخليـة للسـلوكيات البشـرية، لكـن دون أن يطالـب بتسـليط الضـوء علـى مـا يعتمـل داخل الإنسـان وإنمـا أظهر فحسـب الاهتمام بالنماذج السـلوكية المتكـررة. إن المذهـب السـلوكي لا يسـعى سـوى لمراقبة وقيـاس التأثيرات ولا يعبأ بأصـل هـذه التأثيـرات فـي الانفعـالات الذاتيـة للشـخص الخاضـع للتجربـة. فقـد قـال "جـون واطسـون" عـن هـذا العلـم الجديـد: "إن هدفـه الموضوعـي يتمثـل فـي التنبـؤ بالسـلوك والتحكم فيـه"[150].

إن الطريقـة المنهجيـة السـامية للمذهـب السـلوكي -والـذي ظـل لمدة عقـود إحـدى أكثـر مـدارس علـم النفـس تأثيـرًا فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة- تعـد مرادفـة لنقد طـرق تمثيل علـم النفس ذي التوجـه اللغوي. حيـث تـرى وجهـة النظـر هـذه أن العبـارات تنقـل رسـائل عـن الأوضـاع الداخليـة للإنسـان لكنهـا تثير الريبـة؛ حيث تبـدو ثقافة اللغـة بمثابة طريق طويـل يتأتـى اختصـاره مـن أجـل نقـل صـورة مناسـبة للعلاقـات اللحظيـة بيـن المؤثـر ورد الفعـل. لقـد أكـد "بورهـوس فريدريـك سـكينر" (ويرجـع الفضـل قطعًـا إلى دراسـاته فـي مسـيرة الارتقاء الكبيـرة للمذهب السـلوكي بـدءًا مـن الثلاثينيـات مـن القـرن العشـرين) مـرارًا وتكـرارًا علـى وجـود هذا التبايـن بيـن مـا يعتمـل فـي قـرارة النفـس مـن عواطـف والتعبيـر اللغـوي عنهـا. حيـث كتـب قائـلًا: "يمكننـا أن نفهـم المشـاعر ببسـاطة باعتبارهـا

150- Watson (1913 /1968), S. 17; Watson (1925 /1930), S. 22; Watson (1913 / 1968), S. 13.

تعبيـرًا عـن ردود أفعـال علـى مؤثـرات إلا أن الروايـات المنقولـة عنهـا تعـد نتيجـة للاحتمـالات اللغويـة المميـزة التـي يهيئهـا مجتمـع مـا". وأضـاف أنه بسـبب ذلـك لا يجـب أن يمثل "مفهـوم العاطفـة أو الإدراك" القابل للصياغة وإنمـا "عمليـة اختيـار المؤثـرات" القابلـة للقيـاس موضوعًـا يبحثـه علـم النفـس.[151]

تلتفـت الأنظـار هنـا بوضـوح إلـى علاقـات ارتبـاط الأسـاليب الحاليـة للقيـاس الكمـي للـذات بوجهـات نظـر علـم النفـس التقنـي والمذهـب السـلوكي. فاللغـة تمثـل لمـن يجـرون قياسـات ذاتيـة اليـوم -أيضًـا- وسـيطًا قاصـرًا لمعرفـة الإنسـان. حيـث يتعيـن علـى أسـاور اللياقـة البدنيـة والسـاعات الذكيـة وتطبيقـات القيـاس الكمـي للحالـة المزاجية للشـخص أن تقـدم معلومـات عـن المسـتخدم عـن طريـق بيانـات تعبيراتـه الجسـدية. لقـد وصـف "أولريـش راولـف" المكانـة الراسـخة، التـي تمتـع بهـا علـم النفـس الـذي كان يجـري قياسـات كميـة قرابة عـام 1900، ذات مـرة بجملة: "أن ينصـرف الإنسـان عـن قضايـا الجوهـر ويتوجـه نحـو قضايـا التأثيـر"[152]. إن هـذا الوضـع علـى وجـه التحديـد يدفـع ثقافـة التتبـع الذاتـي بمـا فيهـا مـن عمليـات تسـجيل والموجـودة فـي كل مـكان نحـو الأمـام، ولكـن هـذا يتـم علـى كل حـال باختـلافٍ هـام، يعـد محوريًّـا بالنسـبة لصـورة الإنسـان المتكونـة عـن طريـق الإدراك الذاتـي الرقمـي. حيـث يؤكـد علمـاء

151- Skinner (1974 /1978), S. 40, S. 22.

152- Raulff (1985), S. 39.

المذهب السلوكي مثل "واطسون" و"سكينر" مقالاتهم باستمرار على أن انتقال اهتمام علم النفس من "الوعي" إلى "السلوك" قد ارتبط بنقدٍ لاذع للذات المستقلة. فكتب "سكينر" أن مذهب علم النفس الخاص به لم ينص على تصور وجود "فاعل قائم بذاته". وأضاف أنه يجب بالأحرى اعتبار الإنسان بمثابة نقطة التقاء "تؤثر عليها أوضاع جينية وظروف بيئية كثيرة تأثيرًا مشتركًا". وأبرز "سكينر" أنه: "لا مجال في نظريتنا العلمية لذاتٍ، ربما تكون المنبع الأصلي لتصرفاتها أو الملهم لها"[153]. يمثل هذا تناقضًا لافتًا للنظر في ثقافة التتبع الذاتي؛ حيث إن هذه الثقافة تعتنق المبادئ النظرية المعرفية لعلم النفس التقني والمذهب السلوكي وتتأمل الإنسان باعتباره مُنتجًا لبيانات سطحية، يجب أن يظل باطنها مبهمًا، إلا أنها تستنتج من ممارساتها العملية استنتاجات مختلفة تمامًا عن وضع الذات. وينبغي أن يتحول "القياس الكمي للذات" بإلحاحٍ خاص إلى "المنبع الأصلي لتصرفاته أو الملهم لها" وذلك عن طريق أن تنشئ الذات بنفسها قياسات ضغط الدم ونبض القلب والحركة وتنظمها. وهو ما أقره "سكينر". يتضح هنا على وجه التحديد حالة الارتباك الذي يميز -أيضًا- تحول قيود القدم الإلكترونية إلى جهاز هاتف ذكي مزود بنظام "جي بي إس". فمجموعة الأجهزة التقنية تكاد تكون متطابقة وتظل وظيفتها الأساسية في التسجيل قائمة. إلا أن أدوات المراقبة

153- Skinner (1974 /1978), S. 175, S. 191, S. 253 /54.

السابقة تحوَّلت إلى آلات لتمكين الذات. ويتضح هذا التقارب التاريخي بين أساليب تحديد الفرد لموضعه تقنيًّا وأساليب إجراء قياسات للجسم -أيضًا- في أن "رالف شفيتسجيبيل" والذي كان -كما وصفنا- تلميذًا لـ"سكينر" قد طوَّر في نهاية الستينيات من القرن العشرين النماذج الأولى لقيود القدم الإلكترونية بمعنى "التحكم في السلوك" والذي صاغه "جون واطسون" بالفعل باعتباره الهدف الأسمى للمذهب السلوكي. أي أن الأجهزة والتقنيات والخصوم المنهجيين للتبع الذاتي (مثل التحليل النفسي) تصطف في صف تاريخي معرفي لا جدال عليه. ولم يكن من قبيل العبث أن تروج شركة تأمين "جنرالي" لبرنامج "فيتاليتي" الخاص بها بعبارات أنه يعد "نموذج تأميني فريد ويستند إلى السلوك"[154] إلا أن هذا كان مصحوبًا بوعدٍ مضاد وهو دعم استقلالية المستخدمين عن طريق توجيهها في إطار المذهب السلوكي.

ارتبط هذا التناقض بالسؤال عن التعقيدات المنهجية للقياس الذاتي. ففي الفروع العلمية، التي تتبع ثقافة التتبع الذاتي بديهياتها، يتم النظر إلى الوحدة الموجودة بين درجة القياس وموضوع القياس باعتبارها وضعًا يدعو للارتياب وربما يكون

154- Presseservice.pressrelations.de /generali-group-partnerschaft-zwischen-generali-und-discover-zur-einfuehrung-des-innovativen-produkts-vitality-in-europa-581548.html.

مستحيلًا. وقد شدَّد "هوجو مونستربرج" مرارًا وتكرارًا على حتمية وجود تعليمات يقدمها محترفون عند إجراء أي تجربة في إطار علم النفس التقني. وكتب أن "الإنسان العادي، الذي لم يتلقَّ تدريبًا" لا يمكنه أن يجري أي قياسات. كما ورد بشكلٍ قاطع في المحاضرة التمهيدية لـ"جون واطسون" التي ألقاها عن المذهب السلوكي عام 1925: "سرعان ما ستجد أن المراقبة الذاتية لا تعد على سبيل المثال أسهل طريق وأكثر طريق طبيعي لدراسة علم النفس وإنما تعد بالأحرى طريقًا خاطئًا. ليس بإمكانك أن تراقب في نفسك سوى الشكل الأكثر بدائية لرد الفعل. وعلى العكس من ذلك، سرعان ما ستدرك أنك تدرب نفسك سريعًا على إيجاد سبب لسلوك جارك وذلك عن طريق مراقبة ما يفعله"؛ إنها وجهة نظر، مثَّلها "بورهوس فريدريك سكينر" بالطريقة ذاتها الخالية من اللبس: "هناك اختلاف في عملية المعرفة الذاتية بين الذات التي تقوم بعملية المعرفة والذات التي تتم معرفتها. كما أن هناك اختلافًا في عملية التنظيم الذاتي بين الذات المتحكمة والذات المتحكم فيها"[155].

لم تتطرق مثل هذه المناقشة المنهجية للمبادئ بالأحرى إلى التتبع الذاتي في الوقت المعاصر. فما من شك يخالج مصنعي

155- Münsterberg (1914 /1920), S. 216; Watson (1925 /1930), S. 31; Skinner (1974 /1978), S. 252.

على الرغم من هذا الرفض الأساسي فقد أجرى "مونستربرج" بعض القياسات الذاتية أيضًا. (Münsterberg 1908 / 1923, S. 120 / 121).

التطبيقـات ومسـتخدميها فـي أن أسـاليب القيـاس فـي أجهـزة الهواتـف الذكيـة والتطبيقـات المرتبطـة بهـا تقـدم بيانـات موثـوق بهـا وقابلـة للاسـتخدام. إلا أن الفـروع الطبيـة المتخصصـة المعنيـة تعـارض هـذه الثقـة الجمعيـة بـكل وضـوح. ومـن المحتمل أن يكـون الباحثـون المتخصصون في علـم النـوم قـد قدمـوا أكثـر انتقـاد لاذع، تـم توجيهـه فـي الوقـت الحاضـر إلـى أجهـزة وتطبيقـات حركـة القيـاس الكمـي للـذات. فكمـا سـبق وأن ذكرنـا، تتمثـل إحـدى وظائـف أسـاور اللياقـة البدنيـة الشـائعة –منهـا علـى سـبيل المثـال أسـاور شـركة "فيتبيـت" وتطبيقـات متخصصـة مثـل "سـليب بـوت" "Sleep Bot" و"ووك ميـت" "Walk Mate" و"سـليب أز أندرويـد" "Sleep as Android" و"سـليب أدفايسـور" "Sleep Advisor"- فـي تسـجيل جـودة ومقـدار النـوم. وطبقًـا لأوصـاف المنتجيـن فـإن القياسـات تكتمـل دونمـا أي جهـد أو تكلفـة؛ حيـث يكفـي وضـع جهـاز الهاتـف الذكـي فـي الليـل بالقـرب مـن الجسـد أو ارتـداء أسـورة لياقـة بدنيـة فـي الـذراع. وعـن طريـق حـركات المسـتخدم ينشـأ فـي الصبـاح سـجل غنـي بالمعلومـات عـن مراحـل نـوم المسـتخدم الأكثـر عمقًـا أو الأكثـر اضطرابًـا. إن التوصيـة المكتوبـة علـى الموقـع الإلكترونـي للشـركة تنـص علـى: "فلتسـجل نومـك بجهـاز تتبـع شـركة "فيتبيـت" وتسـتخدم التطبيـق فـي مـا بعـد لتـرى كيـف نمـت بصـورة جيـدة وتراقـب تطـور عمليـة النـوم لديـك

وتحدد أهدافك من النوم من أجل أن تحسن روتينك الليلي".[156]

لقد كثر مؤخرًا الحديث عن قصور تقنية التسجيل هذه. فكل ما تستطيع أجهزة استشعار أساور اليد أو التطبيقات أن تسجله، يتمثل في حركات الجسد طوال الليل التي توثق مدى الراحة أثناء النوم على شكل منحنيات وجداول. أي أنها تعد -بالمقارنة بالأبحاث التي يتم إجراؤها في إطار علم النوم من الناحية الطبية منذ تطبيق إجراء قياسات ذبذبات المخ واكتشاف مرحلة "نوم حركة العين السريعة" في منتصف القرن العشرين- بمثابة شبكة ذات ثغرات ضيقة وحادة. حيث ورد بالفعل في المرجع الأول، الذي تناول وضع مواصفات قياسية نمطية لأبحاث علم النوم وأصدرته وزارة الصحة في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1968، أنه يجب من أجل ضمان جودة الفحص العلمي لكل مريض على الأقل "تسجيل رسم كهربائي للدماغ ورسم كهربائي لعضلات الذقن ورسمين كهربائيين لحركتي العينين"[157]. وفي مقابل ذلك، لا يمكن إنكار قوة الإقناع المتواضعة لبيانات التتبع الذاتي. لكن ما يثير الاهتمام أكثر من اكتشاف هذا التناقض بصورة جديدة ربما يكون السؤال لماذا يتواصل نجاح الأجهزة والتطبيقات بصورة كبيرة هكذا بينما يعرف المستخدم أنها تفتقر –أيضًا- للدقة. يبدو أن هناك اشتياقًا عامًّا للتسجيل في

156- fitbit.com /de /app.

157- Rechtschaffen /Kale (1968), نقلاً عن Penzel (2014), S. 213.

الثقافة الرقمية وميلًا نحو إدارة الذات بوسائل علمية والتي تجعل المعرفة تطغى على الموثوقية الهشة بالقيم القياسية. وعلاوةً على ذلك، فقد نقل هذا الاشتياق للتسجيل آراءً أخرى ذات تأثير كبير إلى تقنيات جديدة، ظهرت في الأيام الأولى من العصر الرقمي. فعلى سبيل المثال اشتدت قوة الخوف من احتمالية أن تضر الأجهزة بالصحة بفعل "إشعاعها" في فترة التحول للألفية وذلك أثناء النقاش حول العلاقة بين إشعاعات الهاتف المحمول وصحة الإنسان. حيث توجد مثلًا في الموقع الإلكتروني لبرنامج تتبع النوم "سليب أز أندرويد" النصيحة: "يجب أن يظل الهاتف المحمول بجوار رأسك طوال الليل لكي يعمل التطبيق بصورة صحيحة". وهي جملة، ربما كانت لتحشد قبل خمسة عشر عامًا جحافل من النقاد الثقافيين القلقين والمبادرات الشعبية. أما اليوم فقد تغلبت الرغبة في القيام بالقياس الذاتي على الخطر الكامن في القوة الإشعاعية التقنية.

كشف النقاب:

ربما يكون من اللائق أن نرجع للمرة الأخيرة إلى مقال "جاري وولف" الصادر عام 2010 من أجل إيضاح سؤال لماذا تستند حركة "القياس الكمي للذات" إلى علوم، تصف وضع الذات الخاضعة للقياس بأنها سلبية لأقصى قدر ممكن. فقد استشهد "جاري وولف" في هذا المقال بشخص كان يجري تتبعًا ذاتيًا

ويضع منذ سنوات بدقة قائمة في إحدى الصحف الإلكترونية عن مرات اشتهائه لاحتساء الكحول ويتحدث عن أن إجراء الحساب الصادق في مقابل قاعدة بيانات يعد أسهل من إجرائه في مقابل أشخاص آخرين. لقد علَّق "وولف" على شهادة هذا الرجل بعبارات: "ربما يكون خداعك لإحدى الماكينات أمرًا غبيًّا أيضًا"[158]. وحددت هذه المقولة ملامح العلاقة السلسة بالأساس مع الحقيقة في ثقافة التتبع الذاتي. فعندما يكون الشخص القائم بالقياس هو نفسه الشخص الخاضع للقياس، فإنه لا يوجد ثمَّة سبب لوجود شكوك حول كون الشخص الخاضع للتجربة مستعدًّا لإنتاج بيانات موثوق بها؛ حيث يكون ما يعتمل في قرارة نفسه من انفعالات منسجمًا مع الإشارات الصادرة من جسده. ويكون القائم على الفحص وموضوعه شريكين متواطئين معًا.

إلا أن علاقة التوطؤ هذه تتضمن واحدًا من الاختلافات الفاصلة بين الرغبة في الإدراك الذاتي في الوقت الراهن ومرجعياتها العلمية. وعلى العكس من ذلك فإن العلاقة بين أجهزة القياس ومرتكبي الجرائم وبين علماء علم النفس التقني والمريض وبين عالم الإلكترونيات السلوكية والشخص الخاضع للقياس تتسم بالتناحر. فقد كان من المفترض أن تعلن الأجهزة والطرق المنهجية، التي تم تطويرها في الفترة قرابة عام 1900، عن معرفة مستترة. لقد كتب "هوجو مونستربرج" قائلًا: "إن الأطباء

158- Wolf (2010), S. 11.

وكذلـك رجـال القضـاء لديهـم اهتمـام –فـي ظـل ظـروف محـددة- بالإعلان عـن الأفـكار أو الحـالات المزاجيـة الكامنـة"[159]. فخلـف هـذا السـتار، تقـع حقيقـة الاضطـراب النفسـي أو الذنـب أو الهويـة المخفيـة والتـي لا يفصـح عنهـا الأشـخاص الخاضعـون للفحـص مـن تلقـاء أنفسـهم وإنمـا يتـم الإعلان عنهـا عـن طريق تركيبـة طول عظامهـم أو مخططات ذبذبات أجسـامهم. أي أن علـوم القيـاس تهتـم دائمًـا بدحـض ذات الأشـخاص الخاضعيـن للاختبـار. حيـث يتعيـن علـى قطـر الجمجمـة أو نبـض القلـب أن يثبـت مـا لا يقولـه اللسـان. غيـر أن حركـة "القيـاس الكمـي للـذات" لا تعـرف هـذه المواجهـة علـى وجـه التحديـد. فالتعبيرات الجسـدية ومضمون الأفـكار يتطابقان دائمًا مـن حيـث خطابهمـا البلاغي.

عندمـا يتسـاءل الإنسـان، كيـف وصـل الأمـر فـي نهايـة القـرن التاسـع عشـر إلـى ازدهـار أجهزة الكشـف عـن الحقيقـة، فـإن الحديـث الضخم عن عـدم موثوقيـة أقـوال الشـهود يلعـب دورًا محوريًّـا. فقـد دفع هـذا الحديث التحالـف بيـن علـم النفـس التطبيقـي والعدالـة الجنائيـة نحـو الأمـام. ففـي المقـام الأول يعـد كتـاب "مرجـع لقضـاة التحقيـق" لـ"هانـز جـروس"، بمـا يضمـه مـن إيضاحـات كثيـرة بشـأن علم النفـس الجنائـي وعلم قـراءة الأدلة الجنائيـة، أثـرًا ناتجًـا عـن أزمـة شـهادة الشـهود قرابـة عـام 1900. كمـا كتب "هوجـو مونسـتربرج" أيضًـا: "ليـس مـن قبيـل المبالغـة القـول بأنـه قـد

159- Münsterberg (1914 /1920), S. 237.

تكوَّن منذ وقتٍ قريب علمٌ خاص، ينشغل فقط بمدى موثوقية الذكريات"[160]. ويتمثل الإسهام البحثي لعلم النفس التقني في المقام الأول في بناء أساليب وأجهزة، لا تحتاج من جديد إلى هذا الافتقار للموثوقية، أي "وسائل بديلة لإيجاد الحقيقة"[161]، تعد أكثر متانة من المقولات الهشة للشهود أو من اعترافات المشتبه بهم التي يتم انتزاعها تحت تأثير التهديد والممارسة الفعلية للعنف. لقد كتب "مونستربرج" قائلًا: "إن الحياة اليومية لأي فرد تتيح الفرصة لمراقبة كيف تفصح المشاعر عن نفسها بغير قصد وكثيرًا ما يتم هذا ضد مقصد الأفراد في تصرفهم وسلوكهم اللاإرادي أو في الوظائف التي يمكن إدراكها في نظام الأوعية الدموية الخاص بهم أو في غددهم. عندما نرى كيف يحمر وجه شخص ما أو يصاب بالشحوب أو كيف تترقرق الأعين بالدموع أو يتلعثم الكلام أو ترتعش اليد عند سماع اسم محدد، فإننا نعتبر هذا بمثابة علامة تشير إلى انفعال داخلي"[162]. أي أن الأمر يتعلق بعلم موثوق به لدراسة التواصل اللغوي والذي يستند -كما كانت الحال لدى "بروكا" و"لمبروزو" قبل أقل من نصف قرن- إلى علاقة تمثيلية واضحة بين الإشارات الجسدية والأوضاع النفسية الداخلية. غير أن هذا لم يعد موجودًا بمعنى وجود استعداد

160- Münsterberg (1908 /1923), S. 45 /46.

161- Raulff (1985), S. 36.

162- Münsterberg (1914 /1920), S. 506 /07.

بيولوجـي غيـر قابـل للجدل، والـذي كان "مونسـتربرج" يرفضـه، وإنما أصبح متصلًا بحالـة نفسـية عابرة فـي لحظة توجيه السـؤال.

وانطلاقًا مـن الاقتنـاع بـأن شـحوب وجـه الشـخص الخاضـع للتجربـة واحمـراره ومعـدل نبضـات قلبه وسـرعة تنفسـه تعد إشـارات أكيـدة ويمكن ترجمتهـا بدقـة لما يعتمل في قرارة نفس الشـخص مـن انفعالات، فقد صمَّم "هوجـو مونسـتربرج" –حسـبما وصـف في كتابـه الصادر عـام 1908 بعنوان "عـن موقـف الشـهود"- جهـازًا لكشـف الكـذب وهـو أقـدم نمـوذج بدائـي لآلـة كشـف الكـذب الحديثـة. حيـث كان مـن المفتـرض أن تتضـح الحقيقة المكبوتـة والخطأ المسـتتر، أي تلك التعقيدات الداخلية التي سـعى "فرويد" لأن يتتبعهـا ويحلهـا في الوقت نفسـه عـن طريق بعض الحكايـات. علمًا بأن شـفرة ترجمة هـذه الآلة واضحة؛ فالتـرددات المنتظمـة والمنحنيات الهادئة تعنـي الاسـتقامة والبـراءة. أمـا أي تعثـر أو ذبذبـة عنيفـة فتثيـر الارتيـاب وتشـير إلـى وجـود انقسـام داخلـي. صحيـح أن "هوجـو مونسـتربرج" كان حـذرًا للغايـة لدرجـة أنـه وضـع فـي اعتبـاره خطـر حـدوث تفسـير خاطـئ وأثبـت أنـه "يمكـن إسـاءة تفسـير أعـراض الاضطـراب المجـرد –وهـو مـا يشـعر بـه إنسـان بريء أيضًـا في جلسـة المحاكمـة- واعتباره أنـه دليل على ارتـكاب خطـأ". وعلـى الرغـم من هـذا الحصـر، فقـد رأى "مونسـتربرج" في جهـاز كشـف الكـذب جهـازًا أكثـر مصداقية مـن "المحاولات" السـابقة على

سبيل المثال "لانتزاع حقيقة ما يدور في نفس المتهم"[163] وهي المحاولات التي كانت تكتمل باللجوء للتعذيب.

لقد عمل "هوجو مونستربرج" -حتى وفاته في عام 1916- بانتظام خبيرًا نفسيًّا في المحاكمات. وفي الأعوام قرابة فترة اندلاع الحرب العالمية الأولى، واصل باحثون مختلفون دراسات "مونستربرج" عن جهاز كشف الكذب. وقد حظيت تلك الدراسات بشهرة واسعة بدءًا من ثلاثينيات القرن العشرين عن طريق استخداماتها المذهلة في النظام القضائي الأمريكي. إن سمعة "جهاز كشف الكذب" آنذاك كانت سمعة جهاز لا يعرف اللين ويكشف أكثر الأسرار المحفوظة على الرغم من كل محاولات مقاومة ذلك. ووفقًا لذلك فقد انخفض استعداد المشتبه بهم أو الشهود المثيرين للريبة لأن يتعرضوا لهذا الاستجواب الجسدي. (ويقال إن "ريتشارد نيكسون" قد قال في بداية فضيحة "ووترجيت": "صحيح أنني لا أعرف شيئًا عن جهاز كشف الكذب، إلا أن الناس يخافون منه خوفًا هائلًا")[164] حيث يجب ربط المذنبين في ماكينة الكشف عن الحقيقة عن طريق حشد قوى مشتركة. ولا يمكن تصور إجراء القياسات في هذا السياق إلا بوصفها مخاطرة يتم فرضها بصورة جبرية وتخرج عن إرادة الشخص الخاضع للتجربة.

163- Münsterberg (1914 /1920), S. 502 (S. 512), S. 502.

164- نقلاً عن Raulff (1985), S. 33.

إن ظهـور الأجسـام البشـرية هكـذا يتعـارض أكبـر تعـارض يمكـن تصـوره مـع ذلـك الطقـس الآخـر المترسـخ فـي الوقـت نفسـه لإيجـاد الحقيقـة والمتمثـل فـي جلسـة التحليـل النفسـي. لقـد وضـع "أولريـش راولـف" هذيـن المشـهدين الرمزييـن مـن مشـاهد العلـوم الإنسـانية فـي مطلـع القـرن العشـرين بعضهمـا بجـوار بعـض فـي فقـرةٍ عظيمـة مـن مقالـه الـذي كتبـه عـن "هوجـو مونسـتربرج". حيـث يسـتلقي المريـض علـى الأريكـة فـي غرفـة الفحـص الخاصـة بالمعالـج النفسـي ومـن خلفـه يجلـس المحلـل النفسـي فـي كرسـيه ويسـجل ملاحظـات. إنهـا أوضـاع جسـدية مريحـة ومعـدات وثيـرة وليـس هنـاك تواصـل بالأعيـن أو تواصـل جسـدي مباشـر بيـن الأشـخاص المشـتركين فـي المشـهد. ومـن ناحيـة أخـرى، فـإن مشـهد الفحـص بجهـاز كشـف الكـذب يتـم فـي غرفـة متواضعـة التأثيـث وبهـا إضـاءة حـادة وبهـا قطـع أثـاث تـؤدي وظائـف مـا. ويجلـس رئيـس التحقيـق والشـخص الخاضـع للتجربـة قبالـة بعضهمـا وربمـا يمسـك الموظفـون بالشـخص الخاضـع للتجربـة بإحـكام وبينهمـا يوجـد الجهـاز الـذي يرتبـط بالشـخص الخاضـع للقيـاس عـن طريـق توصيـلات كثيـرة. لقـد كتـب "راولـف" عـن هـذا المشـهد الرمـزي الثانـي قائـلاً: "إذا كنـت لا تسـتطيع أو لا تريـد قـول الحقيقـة، هـل سـوف تفرزهـا علـى الأرجـح؟ لا يجـب أن نقـول هنـا إن اللغـة لـم تعـد تلعـب أي دور. فهـي لـم تعـد فقـط لغـة صـراع طويـل مـن أجـل الوصـول إلـى المغـزى وإنمـا أصبحـت علـى الأرجـح لغـة تشـريحية لفظيـة؛ فمثـل المشـارط الصغيـرة أو الأدوات الطبيـة الصغيـرة، يتـم اقتيـاد الكلمـات الرئيسـة

باتجـاه جسـد مـا، يجـب وخـزه بحيـث يخـرج منـه إفـراز الحقيقـة"[165].

يتضـح، مـن منظـور حياتنـا اليـوم، أن "أولريـش راولـف" قـد تمكـن ودونمـا تـردد مـن إخـراج هـذه المواجهـة بيـن المشـهدين فـي مقالـه، الـذي يرجع تاريخـه إلـى زهـاء ثلاثيـن عامًـا، باعتبارهـا تضـادًّا بيـن الاختيـار والإجبـار وبيـن المحادثـة والاسـتجواب. إن التحليـل النفسـي يجـرى بالاتفـاق بيـن الطبيـب والمريـض. أمـا الفحـص بجهـاز كشـف الكذب فيعـد صراعًـا، يجب فيـه علـى المذنـب الـكاذب أن يخضـع إلـى القـوة الحقيقيـة للجهـاز. وفـي عصـر "القيـاس الكمـي للـذات" يواجـه أسـلوبان -يتـم أداؤهمـا بطريقـة تحكميـة- بعضهمـا بعضًـا فـي تلـك الأثنـاء. فمثلمـا يأتـي الزبائـن إلـى عيـادة المحلـل النفسـي فـي المعتـاد بصـورة طوعيـة ويتعاونـون معـه، فـإن مـن يجـرون القيـاس الذاتـي يربطـون مـن تلقـاء أنفسـهم أسـاور يـد "فيتبيـت" باهظـة التكاليـف حـول أيديهـم. فصحيـح أن الإنسـان يشـعر - حسـبما كتـب "جـاري وولـف"- أنـه كائـن ناقـص، لكـن حتميـة اسـتخدام أجهـزة القيـاس لـم تعـد تنتـج عـن الافتقـار إلـى الصـدق أو الافتقـار إلـى الاسـتعداد لـلإدلاء باعترافـات وإنمـا عـن قلـة الاهتمـام باللياقـة البدنيـة للشـخص وحالتـه الصحيـة العامـة.

شهود الادّعاء:

165- Raulff (1985), S. 42.

رغمًا عن كل الطلبات الملحة للذات المستقلة؛ إن آليات الإدراك الرقمي الذاتي تصبح من ثمَّ دائمًا في أوضح صورة لها عندما تدخل البيانات، التي يتم إنتاجها بصورة فردية، في سياقٍ معرفي أكبر، يتجاوز الفرد. وقد اتضح ذلك في برامج احتساب النقاط وتقديم مكافآت تبعًا لذلك في شركات التأمين وشركات التأمين الصحي في الوقت الراهن. فلعلَّ إجراءات التتبع الذاتي تتيح للفرد حالة صحية عامة أفضل أو قدرة أعلى على الأداء لكن في الوقت نفسه فإن البيانات، التي يتم جمعها، تنتشر -ليس بسبب سوء الاستخدام وليس بسبب الإهمال- وإنما لأن ممارسة "القياس الكمي للذات" تتأسس منذ البداية على أكبر قدر ممكن من التشابك. ففي مجال التأمين، تبوح البيانات التي يتم إدخالها بمقولاتٍ دقيقة عن الحالة الصحية للمستخدم. أي أن قيم القياس تصوغ نوعًا من الحقيقة عن "حالته الطبيعية" مما يوضح التأصيلات التاريخية للتتبع الذاتي في العلوم الإنسانية والتي ترجع حتى القرن التاسع عشر. لكن يوجد منذ وقت قصير مجال آخر لاستخدام أساور اللياقة البدنية والذي يوضح هذه التأصيلات التاريخية بصورة أكبر؛ حيث ينقل هذا المجال "الحقيقة" بالمفهوم الشرطي ومفهوم القانون الجنائي –الذي كان يدور في أذهان من يجرون قياسات للبشر مثل "بيرتيون" و"مونستربرج"- إلى عصر "القياس الكمي للذات". فقد وصلت أجهزة شركة "فيتبيت" إلى نطاق القضاء.

ففي نهاية عام 2014، تم النظر في دعوى تعويض في مدينة

"أوتـاوا" تقدمـت بها مدربة لياقة بدنية، لم تعد تسـتطيع ممارسـة مهنتها منذ تعرضهـا لحـادث مـروري قبـل أربعـة أعـوام. وانـدرج ضمـن أدلة الإثبـات في الدعـوى –أيضًـا- جهـاز تتبـع خـاص بصاحبة الدعـوى أنتجته شـركة "فيتبيت"؛ والـذي "كان مـن المفتـرض أن تعـرض" بياناتـه الحاليـة –حسـبما ورد فـي تقرير المحاكمـة- "أن مسـتوى أدائهـا أصبـح يقـل بصـورة مسـتمرة عـن أقرانهـا في الفئـة الوظيفيـة والعمريـة وأنهـا تطالب بالحصول علـى تعويـض"[166]. وعلاوةً علـى ذلـك، فقـد توافـرت للمحاميـن بيانـات مقارنـة شـاملة خاصـة بشـركة كانـت تقـدم لشـركات التأميـن تقييمًـا عـن بيانـات التتبـع الذاتـي الخاصـة بمجموعـة عملائهـا. واسـتطاع المحامـون بسـبب ذلـك أن يبرهنـوا بطريقـة إحصائيـة علـى الضـرر الصحـي الـذي لحـق بموكلتهـم. كانـت هـذه القضيـة، التـي دارت وقائعهـا فـي كنـدا والتـي تم حسـمها فـي النهاية لصالـح المدعية، علـى مـا يبـدو أول عمليـة تقـاضٍ علـى مسـتوى العالـم، تتـم فيهـا الاسـتعانة ببيانـات أسـاور اللياقـة البدنيـة الرقميـة كدلائـل. إن الحكـم في هـذه القضية يبـدو -مـن ناحيـة- دليـلًا علـى الاسـتقلالية الجديـدة التـي أصبـح مـن يجرون قياسـات ذاتيـة يتمتعـون بهـا؛ لأن جهـاز استشـعار شـركة "فيتبيـت" قـد عـزَّز مـن مشـروعية الدعـوى بموثوقيـة أكبـر ممـا كان قـد يسـتطيع تقريـر أحـد الخبـراء الطبييـن أن يفعلـه؛ حيـث كان الخبراء الطبيون حتـى ذلك الوقت هم أصحـاب الـرأي الفاصل فـي قضايا مشـابهة[167]. إلا أن هـذه القضية تمثل بهذا

166- Crawford (2014).

167- Olsen (2014).

-مـن ناحيـة أخـرى- عتبـة مهمـة فـي الثقافـة الرقميـة عندمـا أوضحـت أن البيانـات الشـخصية لإحدى أدوات التتبع الذاتي يمكـن أن تتحول في أي وقت مـن وظيفـة اللعـب البريئـة الخاصـة بحسـاب السـعرات الحراريـة ليصبـح لها وضـع جـاد، يتمتـع بـه أحـد الأدلة المهمـة مـن الناحيـة القانونية. لقـد نبهت "كيـت كروفـورد"، التـي تابعـت القضيـة صحفيًّـا فـي نهايـة عـام 2014، إلـى هـذا التغيـر المهـم. حيـث كتبـت أنـه قد تم ضـم أسـورة شـركة "فيتبيت" في التحقيـق الـذي جـرى فـي "أوتـاوا" –بنـاءً علـى أمر مـن المسـتخدمة- حقًّا إلا أن "البيانـات، التـي تنتجهـا الأجهـزة، قـد يمكـن اسـتخدامها مـن قبل شـركات التأميـن مـن أجـل تجنـب مطالبـات التعويـض عـن العجـز وكذلـك مـن قبـل المدعيـن بشـكلٍ عـام والذيـن يتوافـر لهـم بصـورة مفاجئـة مصـدر جديد من مصـادر الأدلـة ذات الموثوقيـة"[168]. لقـد تحولـت أسـورة "فيتبيـت" الملونـة، التـي توضـع علـى الـذراع، إلـى أداة تسـجل، على سـبيل الاحتيـاط، كل خطوة يخطوهـا مـن يرتديهـا مـن أجـل أن يصبح من الممكـن إثبات إدانتـه في حالة قيامـه بانتهـاك مـا أو وجـوده فـي موقـف مثيـر للريبـة ذات يوم.

وقـد وقعـت مثـل تلـك القضيـة للمـرة الأولـى فـي أبريـل عـام 2015. فقـد أعلنـت سـيدة مـن ولايـة "بنسـلفانيا" عـن أن هنـاك شـخصًا مجهـولًا انقـض عليهـا أثنـاء نومهـا فـي منـزل رئيسـها فـي العمـل واعتـدى عليهـا جنسـيًّا. وعندمـا أصبـح مـن المعلـوم أثنـاء إجـراء تحقيقـات الشـرطة

168- Crawford (2014).

أنها كانت ترتدي في تلك الليلة أسـورة "فيتبيت"، وافقت على اقتراح السـماح بتحليـل البيانـات التـي سـجلتها الأسـورة. إلا أن تسـجيل الذبذبـات الصـادرة مـن جسـدها قـد كشـف بشـكلٍ لا لبـس فيـه أنهـا كانت يقظـة ونشـيطة في السـاعات التـي قيـل إن الجريمة قد وقعـت فيها؛ فتم رفض الدعـوى القضائية وتـم الحكـم علـى المدعيـة بغرامـة ماليـة بسـبب تقدمهـا باتهـام خاطـئ. "لا تكـذب أبـدًا وأنـت ترتدي أسـورة "فيتبيـت""، هكذا بـدأ أحـد التعليقات على هـذه الدعـوى في مدونـة تقنية أمريكيـة. إن أدوات التتبع الذاتـي تعد أجهزة كشـف كـذب ذات قدرة شـاملة وتعمل دونمـا ثغرات. وهي القـدرة التي ربما كان يمكـن لـ"هوجـو مونسـتربرج" أن يحلـم بها فقط. وفي حيـن أنه كان يتم علـى مـدار القـرن العشـرين ربـط المذنبيـن الخاضعيـن للقيـاس بالتوصيلات والأسـاور بصـورة جبريـة فحسـب، فـإن الملايين من عمـلاء شـركات "فيتبيت" و"جوبـون" و"نايكـي +" وشـركات أخـرى يرتـدون عـن طيـب خاطـر أجهزتهم المحمولـة التـي تشـير إلـى الحقيقـة. "لقـد أصبـح الجهـاز بمثابة شـاهد على المدعيـة نفسـها"[169]، هـذا مـا ورد في ملخص قضيـة "بنسـلفانيا". وحتى وإن تأتـى بصـورة معتـادة نسـيان أصـل أشـكال اسـتخدام أدوات التسـجيل الذاتي الجديـدة، فإن شـروط اسـتخدامها القديمـة تظهر للحظات في بعـض الأحيان.

169- bgr.com /2016 /04 /20 /fitbit-fitness-tracker-legal-case /, fusion.net /story /158292 /fitbit-data-just-undermined-a-womans-rape-claim /

4

الخوف من تسجيل البيانات والرغبة في تسجيلها: عمليات إعادة هيكلة صورة الإنسان

مأساة التعداد السكاني:

في ربيع عام 1987، تشكلت في ألمانيا إحدى أكبر الحركات الاحتجاجية في تاريخ الجمهورية الاتحادية، حيث تكوَّنت في البلديات والمدن مجموعات مبادرة وصل عددها إلى ألف وخمسمئة مجموعة، نسقها حزب الخضر، واحتشد مئات الآلاف في المظاهرات. وتمثل سبب هذه الاعتراض الجماعي في التعداد السكاني الذي كان من المفترض أن يبدأ إجراؤه يوم 25 مايو من العام ذاته. "لم يسبق أن أثار أي مشروع قدمه من يحكمون "بون" مقاومة كبيرة هكذا وأعمالًا عدوانية كبيرة هكذا"[170] هذا ما كتبته صحيفة "دير شبيجل" عن عملية الحصر المزمع إجراؤها لقرابة خمسة وعشرين مليون أسرة على أيدي ستمئة

170- Anonym (1987a), S. 30

ألـف شـخص، تطوعـوا للقيـام بالتعـداد. كانـت أعمـال المقاومـة، التي جرت فـي الأسـابيع السـابقة علـى ذلـك متنوعـة ومبتكـرة. ففـي عشـية إحـدى جـولات الـدوري الألمانـي "البوندسـليجا"، رسـم مجهولـون علـى نجيـل أرض الملعـب الفيسـتفالي فـي مدينـة "دورتمونـد" بخـطٍّ مميـز عبـارة "قاطعـوا التعـداد السـكاني". وهـي العبـارة التي لم يكـن من الممكن إزالتها بين يوم وليلـة ولـذا تمـت تكملتها بإضافة كلمـة "لا" إليها قبل صافـرة بداية المباراة. وذلـك في سـبيل جعـل الملعـب المتعرض للتلـف يصبح على الأقل مسـاحة للدعايـة للحـدث المقبـل، كمـا التقى في برلين الغربية نشـطاء في الشـريط الحـدودي للمدينـة المقسـمة ولصقـوا فـي حـدثٍ سياسـي اسـتبيانات حصر البيانـات الخاصـة بهـم على سـور برليـن غير مبالين بـكل التهديـدات بفرض عقوبـات ماليـة. وقـدَّم عـدد لا حصر له من المنشـورات والكتيبـات الدعائية لمجموعـات المبـادرة سلسـلة مـن النصائح لمناهضـي التعـداد السـكاني ممـن لـم يكونوا يريـدون المخاطرة بالإقـدام على مقاطعة التعداد السـكاني بشـكل صريـح، ومـن هـذه النصائح كيـف يسـتطيعون أن يعوقـوا القـراءة الآليـة للاسـتمارات عـن طريـق قص طـرف الاسـتمارات أو على الأقـل تلطيخ أوراق الاسـتمارات ببقـع قهوة.

لقــد انطلقـــت كل هـــذه الطاقـــة الاحتجاجيـــة؛ لأن عمليـــة حصر البيانـــات المرجـــوة جعلـــت الكثير من أســـس دولة القانون المتأسســـة علـــى أســـاس الدســـتور مطروحـــة للنقـــاش، ففـــي مقدمـــة الكتاب

الاسترشـادي "مـا عسـاك أن تفعـل ضـد التعـداد الدقيـق للسـكان وإحصـاء السـكان؟" -والـذي باعت شـركة شـحن "تسـفاي تاوسـاند أوند أينـس" مئتين وخمسـين ألـف نسـخة منه حتـى أبريـل عـام -1987 تحدث الناشـرون على سـبيل المثال عن "شـبكة مراقبة ذات فتحات ضيقة، سـرعان ما سـتخيم على كل المواطنيـن والمواطنـات" وعـن أن "الهـدف مـن هذا يتمثل فـي المراقبة التامـة للجميـع وتوجيـه السـلوك فـي المسـتقبل. إن الشـرط الأساسـي لهـذا يكمن في التسـجيل الشـامل لكل بيانات الشـعب". كما ورد في موضعٍ لاحق على نحوٍ مشـابه تمامًا: "إن تجميع بيانات شـعب جمهورية ألمانيا الاتحادية بأكملـه يمثـل القاعـدة المادية للسـيطرة الاجتماعية الكاملة، والسـيطرة تعد الخطـوة الأولـى نحو التلاعـب". لقد تجمعت في هذا الكتيـب كل المفردات اللغويـة الأساسـية لنقـد التعـداد السـكاني في أضيـق حيز ممكـن وأصبحت تتكـرر صفحة تلو الأخرى: "التسـجيل" و"السـيطرة" و"المراقبـة" و"التلاعـب". حيـث كان مناهضـو التعـداد السـكاني يشـعرون بالقلـق مـن أنـه يمكن عن طريـق عمليـة حصـر البيانات للكيان الـذي يعمل بتقنيات الشـرطة وتقنيات الإدارة والمسـمى بـ"الدولـة" أن يتعامـل بصـورة نهائيـة مـع الفـرد باعتبـاره كائنًـا سـلبيًّا. حيـث كتـب ناشـرو الكتيـب -مسـتعينين باسـتعارة مجازيـة شـائعة الاسـتخدام- قائلين: "وهكذا سـنصبح جميعًا تقريبًا مثل دُمى مسـرح العرائـس دون أن نلاحـظ هـذا". وأضافـوا: "يجـب علينـا أن نقـاوم إجـراءات الدولـة التـي تنحـط بنـا لمكانـة دُمـى مسـرح العرائـس التـي يتحكـم فيهـا

أشخاص آخرون"[171].

لقد استأنفت احتجاجات عام 1987 نزاعًا، بدأ قبل أربع سنوات بالفعل، بكثافة كبيرة. فوفقًا للخطة الزمنية الأصلية، كان من المفترض أن يبدأ التعداد السكاني –أول تعداد سكاني بعد عام -1970 بالفعل في 27 أبريل عام 1983. إلا أن "قانون التعداد السكاني"، الذي أقره البرلمان الألماني "البوندستاج" بالإجماع، قد أدى إلى حدوث مقاومة هائلة من الشعب قبل أسابيع من يوم الاقتراع بالفعل. فوفقًا للتحليل التشخيصي، الذي قدمه رئيس مكتب الإحصاء الاتحادي الألماني بذهول، فقد تحولت عملية الإحصاء السكاني "إلى موضوع للنقاش العلني إلى حدٍّ ما، وهو أمر لم يتوقع أحد من المشاركين في عملية الإحصاء السكاني حدوثه"[172]. وحتى مارس عام 1983، تم رفع ما يربو على ألف ومئتي دعوى دستورية في المحكمة الدستورية الاتحادية الألمانية. وهي الدعاوى التي رأت في التعداد السكاني وشيك الحدوث امتهانًا للحقوق الأساسية مثل "تطوير الشخصية بحرية" و"التعبير عن الرأي بحرية". وتم قبول دعوى، تقدمت بها محاميتان وأحد طلاب القانون والمنحدر من مدينة "هامبورج". وفي الثالث عشر من أبريل –أي قبل أسبوعين من

171- Rottmann / Strohm (1986), S. 7, S. 136, S. 9, S.11 /12

للاطلاع على أرقام مبيعات الكتاب انظر: Anonym (1987b), S. 46

172- Koppenstedt (1983), S. 7

بداية التعداد السكاني المخطط لها (وكان القائمون على عملية التعداد السكاني قد بدؤوا بالفعل في توزيع استبيانات التعداد السكاني في بعض البلديات)- أوقف قضاة مدينة "كارلسروه" إجراء التعداد السكاني بسبب مخالفته الدستورية للقانون الأساسي المتعلق بهذا الصدد.

لقد ارتبط الحكم النهائي للقضاة والصادر في ديسمبر عام 1983 بمدى توافق عملية الحصر السكاني مع "التدابير التكميلية للحقوق الأساسية والتي تسعى لتنفيذ وتنظيم عملية حصر البيانات". وهكذا، كان الحكم يستوجب وجود "الحق الشخصي العام" في "ألا يكون من الممكن إنشاء علاقة صلة بين البيانات التي يتم حصرها والأشخاص أو مجموعات الأشخاص الذين يمكن معاملتهم كأفراد". غير أن هذه الصلة أصبحت ممكنة من حيث المبدأ –بالاختلاف عن عملية حصر البيانات السابقة والتي جرت عام 1970- عن طريق "الشروط التقنية الجديدة لعملية حصر البيانات وعملية معالجة البيانات"[(173)]. فربما يمكن للسجلات السكانية التي يتم إدارتها بصورة إلكترونية –ويمكن الربط بينها بدءًا من مستوى البلديات وحتى مستوى الولايات الاتحادية- أن تقارن بين المعلومات الشخصية لأحد المواطنين بشكل عشوائي. وهذا التداخل –الذي ينشده التعداد السكاني بوضوح- لا يتوافق

173- المحكمة الدستورية الاتحادية الألمانية. حكم صادر بتاريخ 13 /12 /1983 https: / /openjur. de /u /268440.html

مع الدستور. ففي الحكم الصادر في ديسمبر عام 1983، انتهى هذا التشكك الدستوري إلى صياغة حق أساسي جديد وهو "الحق في تقرير المصير المعلوماتي" سالف الذكر والذي من شأنه أن يكفل حماية الكرامة الإنسانية في عصر المعالجة الإلكترونية للبيانات أيضًا. لقد وضع هذا الحق الأساسي في ألمانيا -في النهاية- الأساس للخطاب العلني الدائر عن "حماية البيانات" وحدَّد الملامح العامة لقانون للتعداد السكاني، يتعين إعداده بصورة جديدة.

كانت استمارة حصر البيانات عام 1987 متوافقة مع معطيات المحكمة الدستورية الاتحادية الألمانية؛ حيث كانت تتكون من استبيان متعلق بالشخص واستبيان متعلق بالمسكن مصحوبًا ببيانات عن المبنى السكني واستبيان متعلق بالأسرة. فبالمقارنة بالتعداد، الذي كان من المخطط إجراؤه في عام 1983، فقد جرت هنا تصحيحات جوهرية عند تسجيل ومعالجة البيانات. وهكذا لم تعد أسماء أفراد الأسرة وعنوان الأسرة مكتوبين في الجهة الخلفية من صفحة الاستبيان الخاص بالمسكن مثلما كان يحدث قبل أربعة أعوام. وإنما أصبحت أسماء أفراد الأسرة وعنوان الأسرة متواجدين في استبيان جديد منفصل وهو الاستبيان الخاص بالأسرة والذي كان يتم فصله عن باقي الاستبيانات عند ورود الاستمارة إلى السلطات. وحسبما ورد في النص المرافق للاستمارة، فإن الاستبيان الخاص بالأسرة يفيد فقط "في اكتمال

عمليـة حصـر البيانـات، ولا يتـم تخزينـه فـي وسـائط تخزيـن البيانـات الإلكترونيـة مـع بياناتـك الناتجـة عـن الاسـتبيان الخـاص بالشـخص أو الاسـتبيان الخـاص بالمسـكن". وبالإضافـة إلـى ذلـك، يمكـن الآن لمـن يملـؤون الاسـتبيانات أن يسـلموا المظاريـف –التـي اسـتلموها مـن أحـد القائميـن علـى عمليـة التعـداد عنـد بـاب المنـزل- بأنفسـهم إلـى مكاتـب التسـجيل السـكاني. وأصبـح لا يتحتـم عليهـم الآن أن يملـؤوا الاسـتبيانات علـى الفـور وفـي حضـور الشـخص القائـم علـى عمليـة التعـداد، كمـا كان منصوصًـا عليـه عـام 1983. ومـن المفتـرض أن تنطبـق إرشـادات أكثـر صرامـة ومحـددة بدقـة -فـي نهايـة المطـاف- على عمليـة مواصلـة معالجة البيانـات إلكترونيًّـا. ويتـم إخطـار الأسـر فـي غـلاف اسـتمارات التعـداد أنـه فـي كل بلديـة تطلـع "هيئـات حصـر البيانـات، التـي تـم تأثيثهـا بشـكلٍ خـاص، وحدهـا علـى الاسـتبيانات". وأنـه "مـا مـن هيئـة إداريـة أخـرى أو أي مصلحـة أخـرى فـي المدينـة أو البلديـة تطلـع علـى البيانات الشـخصية. ولا يعـود مـن الممكـن أن يتـم نسـب البيانـات المخزنـة لـدى المكتـب المحلـي للولايـة إلـى أي فـرد"[174]. وبشـكلٍ ملحـوظ، أصبحـت النقاشـات الطويلـة، التـي دارت حـول حـق تقريـر المصيـر المعلوماتـي، مميـزة بفعـل أسـلوب عـرض الاسـتمارة الجديـدة، حيـث اتسـم الخطـاب الموجـه إلـى من

174-\ انظر: الاستبيانات في deutsche-digitale-bibliothek. De /item /UBKXLYCVA5QTY4B 7CX2FWXLXBM7OOCLD

كل الاستشهادات المنقولة من استمارات حصر المعلومات عام 1987 ترجع إلى هذه الصور:

كانـوا يملـؤون الاسـتبيانات فـي عـام 1987 بأسـلوبٍ بلاغـي، هـدّأ مـن شـعورهم بالاضطـراب.

لكـن أي معرفـة بالضبـط تلـك التـي كانـت الدولـة تطالـب بهـا وكانـت تثيـر فـي الثمانينيـات قـوة مقاومـة جماعيـة بهـذه الدرجـة؟ لقـد مثلـت الأسـئلة، التـي كان عددهـا يبلـغ بحـدٍّ أقصـى ثلاثـة وثلاثيـن سـؤالًا -وكان منهـا ثمانيـة عشـر سـؤالًا فـي "الاسـتبيان الخـاص بالشـخص" وأحـد عشـر سـؤالًا فـي "الاسـتبيان الخـاص بالمسـكن" وأربعـة أسـئلة إضافيـة متعلقـة بـ"بيانـات المبنـى السـكني" وهـي أسـئلة موجهـة لمالـك المبنـى السـكني أو لحارسـه- تهديـدًا هائـلًا لقطاعـات مـن الشـعب. وقـد أدت مقاومـة هـذا التهديـد فـي الأسـابيع، التـي سـبقت يـوم الخامـس والعشـرين مـن مايو عام 1987، إلـى حـدوث اعتـداءات وهجمـات بالقنابل علـى مبانٍ إداريـة، كانت نمـاذج الاسـتمارات مخزنـة فيهـا، وذلـك فـي أماكن عديـدة من بينهـا مدينتا "ليفركوزن" و"فرايبورج". ولذلك تمت حماية مكاتب التسـجيل السـكاني في مـدن ولاية "هيسـن" "كأنهـا مبنى خزانة سـبائك الإيداع الأمريكيـة"[175] وهو مـا ذكـره المسـؤول المكلـف بحمايـة البيانـات فـي الولايـة في شـهر مارس. ولـو قـرأ الإنسـان اليـوم –أي بعـد ثلاثيـن عامًا مـن الاحتجاجات- اسـتمارات حصـر المعلومـات مـرة أخـرى، سـوف ينشـأ لديه تأثيـر باعث على التشـوش

175- Anonym (1987a), S. 31; Anonym (1987a), S. 30; der Pressespiegel in Universität Duisburg Gesamtschule (1988)

والارتباك. لأن الأسئلة الواردة في "الاستبيان الخاص بالشخص" وفي "الاستبيان الخاص بالمسكن" تتصف بنوعٍ من التحفظ بصورة أكيدة. فبالإضافة إلى البيانات، التي تتضمنها أي بطاقة إثبات شخصية، يجب تقديم بيانات عن التعليم المدرسي والفئة الوظيفية والمسلك الوظيفي وكذلك عن حجم الشقة وأثاثها وقيمتها الإيجارية. وعلى الأرجح تمثلت أكثر معلومة حميمية، طالبت بها "الاستبيان الخاص بالشخص"، في السؤال الرابع عشر: "كم من الوقت تحتاج في المعتاد من أجل الذهاب إلى العمل أو المدرسة/ الجامعة؟". وبعد عَقدٍ واحد فقط من التعداد السكاني، طالبت أولى الشبكات الاجتماعية مستخدميها بقدر آخر من البيانات الشخصية. فعلى سبيل المثال، حددت مذكرة براءة الاختراع لموقع "سيكس ديجريز" -كما سبق وأن ذكرنا- أن المستخدم ينبغي عليه أن يودع في "ملفه الشخصي" "عنوان (عناوين) البريد الإلكتروني واسم العائلة والاسم الأول والاسم المستعار والوظيفة ومحل السكن والهوايات والقدرات المميزة والكفاءات التخصصية وخلافه"[176]. وبمقارنة هذين الأسلوبين في الحصول على المعلومات يتجلى بوضوح العنصر الفارق الذي أثار اهتمام هذا الكتاب. فعندما تم في كتيب "ما عساك أن تفعل ضد التعداد الدقيق للسكان وإحصاء السكان؟" التحذير من

176- انظر الفصل الأول.

إجـراء "التسـجيل الشـامل لـكل بيانـات الشـعب"[177] وعندمـا امتـلأت كل مناطـق عبـور المشـاة وكل الأسـواق فـي ألمانيـا بمتظاهريـن مناهضيـن لـ"دولـة المراقبـة" فـي ربيـع عـام 1987 وعلى مدار شـهور عديـدة، اكتملت هـذه الاحتجاجـات على أسـاس مجموعة من البيانات المسـجلة التي لا يكاد يوجـد أي أثـر لسـطحيتها اليـوم؛ فـكل عضـو جديد علـى موقع "فيـس بوك" يبـوح عنـد إنشـاء "ملـف شـخصي" بمعلومـات متعـددة عن نفسـه.

مـاذا حـدث في هذا الوقت القصير؟ كيف يتسـنى تفسـير تغيـر التعامل الأساسـي مـع طـرق التسـجيل الخاص بالـذات بصـورة جذرية إلى هـذا الحد فـي غضـون جيـل واحد؟ لـم يعـد "التسـجيل" يعتبر اليـوم في المقـام الأول بمثابـة عمليـة مضايقـة واضطهـاد أو بمثابـة تقنيـة لتمكيـن مرجعيـة مـا مثـل مرجعيـة "الدولـة" أو "الشـرطة" وإنمـا أصبـح بالنسـبة لأغلـب النـاس بمثابـة فعـل إنتاجـي. فمـا اسـتطاع الحشـد الثائـر مـن مناهضـي التعـداد السـكاني إدراكـه فـي تصورهـم المفـزع عـن "المراقبـة"، قـد حقـق اليـوم نجاحًـا باعتبـاره فضيلـة اجتماعيـة مـن فضائـل "التواصـل". وفـي إطـار هـذا الأمـر، شـهد أيضًـا علـم الدلالـة فـي مجـال الشـفافية انقلابًـا فـي المعنـى. فالانطباعـات، التـي تتصـف بالشـفافية، لـم تعـد تشـير في غضـون ذلك إلى تهديـدٍ مـا وإنمـا أصبحـت تعبيـرًا عـن مبـادئ عرقيـة أو بيئيـة نموذجيـة.

177- Rottmann / Strohm (1986), S. 7

ولـم يعد الحديث يدور عن "الإنسـان الزجاجـي"[178] والذي كان حاضرًا طوال الوقـت ضمـن المفـردات اللغوية ذات المعنـى النقدي في فتـرة الثمانينيات مـن القـرن العشـرين، حيـث أصبح هـذا النعت اليـوم بالأحرى علامـة جودة، حيـث تحمـل العلامـة التجاريـة لأحـد المنتجيـن فـي "براندنبـورج" اسـم "معمـل الألبـان الزجاجي".

الشرطة بوصفها عاملًا محفزًا على عملية تسجيل بيانات الأشخاص:

لـو أجرينـا قياسًـا للمقاومـة التـي جابهـت إجـراء التعـداد السـكاني عـام 1987 بالاسـتعانة بالمعاييـر القياسـية لـدورة البيانـات فـي الوقـت الحاضـر، فسـوف ينتـج عـن هـذا تقريبًا اسـتعراض زمني لسـبب تلـك المقاومة. حيث تبـدو الأصـوات المنفعلـة علـى منصـات النقـاش والمسـيرات الاحتجاجيـة، التـي كانـت تجـوب الشـوارع، كأنهـا كانـت آثـار لهيسـتريا جماعيـة فـي مواجهـة حـالات التقصـي عـن مصـادر التدفئـة فـي الشـقة أو عـن وسـيلة المواصـلات العامـة المفضلـة، لكـن مـا مصـدر انبعـاث الشـعور بالخـوف؟ مـن الواضـح أن مناهضـي إجـراء عمليـة حصـر البيانـات قـد عبـروا عن عدم وجـود حاجـة ملحـة للأسـئلة الـواردة فـي الاسـتبيانات. فعلـى سـبيل المثال، أثبـت مقـال نقـدي صـادر فـي مـارس عـام 1987 أن "البيانـات الفرديـة

178- إن وصف "الإنسان الزجاجي" هنا يعد استعارة تشير لعملية مراقبة منظمة تتم لمجموعة كبيرة من الأشخاص. (المترجمة)

المنبثقة من التعدادات السكانية تتسم بالتأكيد بالسذاجة". أي أن قيمة المعلومات القائمة بذاتها لم تكن موضوعًا للنقاش قبل ثلاثين عامًا بالفعل. فالتهديد كان مرتبطًا بالأحرى بإمكانية إجراء عملية كاملة لحصر البيانات. فوفقًا لما ذكره المقال النقدي، فإن تفاهة الأسئلة "تغطي على [...] الأهمية الخطيرة التي تكمن في إمكانيات الربط عن طريقها والتي تؤدي وظائف متعددة"[179]. فتسجيل البيانات، الذي يمكن إجراؤه عن طريق أجهزة الكمبيوتر، يمكن أن يؤدي إلى تجزئة مجموعة البيانات المسجلة أو تنقيحها أو مقارنتها أو تجميعها من جديد. وكان المقاطعون للتعداد السكاني يرون أن الخطر الحقيقي يكمن في هذا النمو المتفاقم للمعلومات الذي لا تتأتى السيطرة عليه. كما أنهم لم يصدقوا التأكيدات الرسمية التي أفادت بأن الحق الأساسي الجديد في "تقرير المصير المعلوماتي" قد أدى لنشأة قنواتٍ ضيقة وحدود مستقرة لعملية معالجة البيانات. فعلى سبيل المثال، اعتبرت الحركة المقاومة لإجراء التعداد السكاني أن ما ورد في غلاف استمارات الإحصاء السكاني بأن "الإفصاح عن الفرد الذي ملأ" الاستبيانات الخاصة بشخصه وبالمسكن، يعد "أمرًا مستبعدًا من الناحية العملية"، بمثابة مناورة بحتة تهدف للتهدئة. حيث ذكر كتيب شركة الشحن "تسفاي تاوساند أوند أينس" أنه "يمكن في أي وقت تحديد هوية الشخص الذي ملأ

179- Anonym (1987a), S. 53

الاستبيان"[180] عن طريق الرقم المتسلسل.

وبإلقاء نظرة على الماضي، فإنه يجب الربط بين الخوف المرضي من تسجيل البيانات –الذي أصبح اليوم أمرًا غريبًا- والوضع الخاص لوسائل الإعلام في السبعينيات والثمانينيات. فقد اتضحت للمرة الأولى آنذاك في سياقات إدارية مختلفة عملية تجميع الوثائق المتفرقة مثل الملفات وبطاقات الفهرسة والاستمارات ومحاضر التسجيل في "قاعدة بيانات" إلكترونية. وقد أثار هذا التوحيد لبيانات الأفراد -التي كانت متغايرة في ما سبق وكانت وظائفها وحدود تطبيقها غير معلومة- شعورًا بالقلق غير محدد المعالم. ولذلك فإن التعدادين السكانيين المعلن عنهما في عامي 1983 و1987، لم يكونا سوى ساحتين بارزتين بشكلٍ خاص لممارسة نقدٍ، كان موجهًا في هذه الأعوام إلى تغيرات إدارية متنوعة. فبالتوازي مع عملية الإحصاء السكاني الذي تم إجراؤه عام 1987، على سبيل المثال كان من شأن بطاقة إثبات الهوية، التي يمكن لأجهزة الكمبيوتر قراءة بياناتها، أو عملية ربط البيانات بين الشرطة والسجل المركزي للمرور في "فلينزبورج" أن تثير نزاعات سياسية شبيهة. كما شمل الاحتجاج على عملية التعداد السكاني أيضًا الشعبية التي تمتعت بها تقنيات الوسائط الجديدة ومنها التليفزيون المتصل بشبكة سلكية والنصوص المثبتة على شرائط الفيديو والنصوص المرئية المكتوبة على

180- Rottmann / Strohm (1986), S. 126

الشاشـات. فقـد ورد علـى سـبيل المثـال فـي أحـد منشـورات المقاطعـة في مقـال تحـت عنـوان "العالـم السـلكي الجديـد" والـذي يحمـل فـي طيـات العنـوان بالفعـل الشـعور الديسـتوبي بالقلـق: "مـن يشـارك فـي التعـداد السـكاني، سـوف يتـم تسـجيل بياناتـه أو بتعبيـر آخـر: أينمـا توجـد نصـوص مرئيـة علـى إحـدى الشاشـات، توجـد مشـكلة متعلقـة بالبيانـات". كما كتب ناشـرو الكتيـب الاسترشـادي "مـا عسـاك أن تفعـل ضـد التعـداد الدقيـق للسـكان وإحصـاء السـكان؟"، والـذي باعتـه شـركة شـحن "تسـفاي تاوسـاند أونـد أينـس"، بأسـلوبٍ تعبيـري حميمـي: "فـي عصـر التلفزيـون المتصـل بشـبكة سـلكية والنصـوص المرئيـة المكتوبة على الشاشـات، يصبح السـلوك الاسـتهلاكي قابـلًا للمراقبـة والتوجيـه [...] ويمكـن التلاعـب بالمسـتهلكين والمسـتهلكات بصـورة أكثـر فعاليـة وأكثـر اسـتهدافًا"[181].

إلـى مـاذا يرجـع علـى وجه التحديـد هذا الاقتـران المفزع بيـن مفهومي "التسـجيل" و"تجميـع البيانـات" فـي الثمانينيات من القرن العشـرين؟ إن ما يلفـت الأنظـار فـي بادئ الأمر إلى أي مـدى اهتم مناهضو التعداد السـكاني بـأن تكـون الجرائـم، التـي اقترفتهـا النازيـة، بمثابـة مرجعية لموقفهـم. ففي عـام 1983، لـم تكن نهاية الحـرب العالمية الثانية قد انتهت إلا قبل جيل من الزمـن. وكثيـرًا مـا كان الاسـتقبال النقدي لعمليـة الإحصاء السـكاني المزمعة تصاحبـه إشـارات إلـى عمليـات التسـجيل الوحشـية التـي قامـت بهـا الدولة

181- Rottmann / Strohm (1986), S. 9; Wermann (1987), S. 38

النازية، فعندما نشر "جوتس علي" و"كارل هاينز روت" عام 1984 دراستهما النقدية تحت عنوان "التسجيل الكلي"، والتي تناولت الشروط التقنية الإدارية لإبادة اليهود، كان عنوانها الفرعي "الإحصاء العددي للسكان وتحديد الهوية والإقصاء في النازية" يشير بالفعل إلى الأهمية المعاصرة المميزة لذلك الموضوع. فقد تم في المقدمة وفي الفصل الختامي الربط بصورة وثيقة بين أطروحة المؤلفين -التي كان من الممكن البرهنة عليها بمواد علمية كثيرة ومفادها أن أفضل الممارسات العملية لتسجيل البيانات، والتي تم إجراؤها بدءًا من العام 1933، قد أتاحت اضطهاد وقتل اليهود الأوربيين- والتعداد السكاني المزمع إجراؤه في عام 1983. حيث كتب "علي" و"روت" قائلين: "ألا يكمن في عملية تجريد الإنسان ليصبح مجرد رقم اعتداء جوهري على كرامته؟ ألم يكن هناك إغراء بتقويم الإنسان وجعله أكثر نقاءً بينما تحول الإنسان ذات يوم ليصبح ملفًّا شخصيًّا له سمات مميزة؟" وقد اعتبر المؤلفان هذين السؤالين الاستنكاريين بمثابة تلخيص لتحليلاتهما التاريخية وبالمثل بمثابة تعليق تضامني للاحتجاج على الإحصاء السكاني الراهن. كان من الممكن في غضون ذلك توجيه النقد المبدئي لعمليات التعداد السكاني باعتبارها -"اعتداءات موجهة ضد الخيال الاجتماعي"- بصورة تتزايد إلحاحًا؛ لأن المؤلفين كانا يعرفان بسبب خبراتهما كمؤرخين، إلى أين يمكن أن تؤدي هذه الإجراءات الخاصة بتسجيل البيانات. حيث أفادت النتيجة الرئيسة لأبحاثهما بأن:

"عمليـة تسـجيل اليهـود وإقصاءهـم بصـورة بيروقراطيـة بـدأت فـي ألمانيـا بإجـراء تعـداد سـكاني فـي السـادس عشـر مـن يونيـو عـام 1939"[182] لقـد أوضـح "جوتـس علـي" مـرة أخـرى فـي عـام 1987 كـم أن الدراسـات التـي جـرت عـن الإدارة النازيـة قـد ارتبطـت ارتباطًـا وثيقًـا بالأحـداث الراهنـة وذلـك عندمـا نشـر ملخصًـا لكتاب "التسـجيل الكلـي" في كتيـب دعائي عن مقاطعـة التعـداد السـكاني[183]. ولذلـك فقـد ظهـرت الدولة النازيـة في هذا السـياق بوصفهـا مرجعًا هامًّا يشـار إليـه؛ لأنها توضح الأخطـار الخفية لطرق التسـجيل فـي الوقـت الحاضـر فـي مرحلـة تطبيقهـا بـلا أي قيـود. وتـؤدي الإشـارات العديـدة لـ"الرايخ الثالـث" فـي الكتيـب الدعائـي "مـا عسـاك أن تفعـل ضـد التعـداد الدقيـق للسـكان وإحصـاء السـكان؟" هـذه الوظيفـة ذاتهـا علـى وجـه التحديـد، فسـقوط كل حـدود دولـة القانون بين السياسـة والإدارة والشـرطة -وهـو مـا كان ناشـرو الكتيـب الدعائـي يتخوفـون مـن حدوثـه بسـبب إجراء التعـداد السـكاني والمعالجة التعسـفية للبيانات- كان علامـة مميـزة لبدايـة ديكتاتورية النازيـة، وعندما تم وضع دسـتور جمهورية ألمانيـا الاتحاديـة، كتـب ناشـرو الكتيب الدعائـي: "كان هناك اتفـاق أن مثل هـذا الوضـع لا يجـوز أن يحـدث أبـدًا مـرة أخـرى. ويبـدو أن هـذا كلـه قـد أصبـح الآن طـي النسـيان"[184].

182- Aly /Roth (1984), S. 16, S. 17, S. 67

183- Aly (1987)

184- Rottmann / Strohm (1986), S. 8

أي أن الجرائم النازية كان لها أثر في ما بعد على مناهضة عمليات التعداد السكاني في الثمانينيات من القرن العشرين، لكن نظرًا لأن هناك عمليات حصر للبيانات قد جرت في جمهورية ألمانيا الاتحادية في أعوام 1950 و1956 و1961 و1970 بالفعل، والتي تم تنفيذها جميعًا دونما أي مقاومة ملموسة، فإن هذه المرجعية الصادمة لم تكن المعيار الفاصل في الخوف من تسجيل البيانات. من المؤكد أن هناك تغيرًا ما قد طرأ على إدراك "عملية تجميع البيانات" بين عامي 1970 و1983 وهو التغير الذي أدى إلى نشأة حالة تشكك جماعي تجاه إجراءات التسجيل، وهذا التغير يرتبط بصلةٍ ما –كما سبق وأن ذكرنا- بمستجدات العصر في مجال تقنية وسائل الإعلام وأماكن استخدامها السابقة.

في أي سياقات ظهرت للرأي العام المعرفة التي أنتجتها أجهزة الكمبيوتر عن الفرد، للمرة الأولى؟ ومَن الأفراد الذين يقدم تسجيل بياناتهم وتحديد هوياتهم مبررًا لضبط وتهيئة المعدات الإلكترونية باهظة التكلفة وواسعة النطاق في الهيئات الحكومية؟ يجب أن نضع هذه الأسئلة نصب أعيننا في سبيل أن نفهم الحساسية العالية التي تحدث عند إعادة نقل البيانات. ففي عام 1968 نشر "هورست هيرولد" –والذي كان قد تم تعيينه مؤخرًا رئيسًا للشرطة في "نورنبرج"- مقالًا بعنوان "أسس تنظيمية للمعالجة الإلكترونية للبيانات في نطاق الشرطة". وقد شدَّد في هذا المقال على "أن عمل الشرطة لم يتمثل منذ قديم الأزل سوى

فـي خلـق البيانـات ومعالجتهـا والاسـتفادة منهـا وكذلـك نقلها". آنـذاك، كان هنـاك قرابـة خمسـة عشـر مليـون ملـف مخزنيـن فـي أرشـيفات الشـرطة الاتحاديـة الألمانيـة؛ ولـم تكـن الملفـات مرتبطة بعضهـا ببعض. وقـد اعتقد "هيرولد" أن هذا يعد تشـرذمًا معيبًا لوضع البيانات، يعوق مكافحة الجريمة بصـورة فعالـة. كمـا رأى أنـه بسـبب ذلـك كانـت فعاليـة الشـرطة مسـتقبلًا تعنـي إحـداث ترابـط مكتمـل قـدر الإمـكان بيـن هـذه الوثائـق المنفصلـة بعضهـا عـن بعـض. حيث إن هنـاك حاجة لـ"إجراء حصر شـامل لكل البيانات المتعلقـة بالمجرميـن والجرائـم بشـكل منهجـي ومعتمـد علـى الماكينـات". فالشـرط الأهـم للكشـف الناجح عن ملابسـات الجرائم لا يتمثـل في عبقرية كبـار المحققيـن فـي الربـط أو فـي اجتهـاد أي شـرطي دوريـة منفـردًا وإنما فـي المعالجـة الفعالـة للمعلومات. وتنطبق على "هورسـت هيرولـد" العالم المتخصـص فـي مجـال البحـث الجنائـي ذي التوجـه الماركسـي الاجتماعـي مقولـة أن "وجـود الآلـة يحـدد الوعـي الشـرطي"[185]. فكثيرًا مـا كانت هناك فـي الماضـي أوصـاف لقيـام "هورسـت هيرولـد" بتوسـيع الطـرق المنهجيـة للبحـث الجنائـي فـي عهـده اعتمـادًا علـى أجهـزة الكمبيوتر وبوصفه رئيسًـا لمكتـب الشـرطة الجنائيـة الاتحاديـة وموقفـه المحـوري فـي مناهضـة إرهـاب جماعـة الجيـش الأحمـر. ومـن قطـع للسـياقات، التـي تـم التطـرق إليهـا بالبحـث هنـا، أن التغييـرات التقنيـة القديمـة فـي الشـرطة الجنائية –

185- Herold (1968), S. 244 /45, S. 243, S. 240

ومنها على سبيل المثال بناء قاعدة البيانات "إنبول" بدءًا من عام 1972- كانت تحرص على أن يتم الربط منذ البداية بين المعرفة المتكونة عن الأفراد في ألمانيا والمستندة إلى أجهزة الكمبيوتر ومطاردة المجرمين. إن التسجيل الإلكتروني للأشخاص يعد بذلك مرادفًا للتضييق الأمثل لنطاق الاتهام والتحقق منه. فمن كان يتم "تخزين" بياناته، كان يصبح بالفعل عرضة لأن يقع في قبضة قوة الشرطة. وهذه القبضة أخذت تزداد ثباتًا؛ لأن "البحث الجنائي المتشابك" الذي أجراه "هيرولد" لم يمضِ بصورة إيجابية فحسب بوصفه بحثًا معدلًا بصورة إلكترونية عن مشتبه بهم محددين ومعروفين بالفعل. وإنما كان التجديد الرائد بدءًا من أواخر السبعينيات يكمن بالأحرى في اقتفاء أثر مجرمين مجهولين أيضًا، لم يكن من المعروف عنهم سوى تفاصيل منفردة عن سلوكياتهم. وذلك بالاستعانة بالمعالجة، التي تجريها أجهزة الكمبيوتر، لقوائم الأسماء والبيانات الشخصية وعن طريق تنقيح هذه البيانات بشكل تدريجي. كان الأمر يتعلق بالقدرة –والتي وصفها "هيرولد" بنفسه بـ"البحث الجنائي المتشابك السلبي"- على "تقليص مخزون البيانات، الذي تحفظه الشرطة ويتعين فحصه، ليقتصر على باقي المشتبه بهم وذلك عن طريق القيام بعمليات حذف لبعض البيانات"[186]. وفي هذه الممارسة العملية لعملية التحقيقات يمكن لأي معلومة هامشية عن أي شخص

186- Herold (1985), S. 85

-لـم يكـن يلفـت الانتبـاه حتى ذلـك الوقـت- أن تصبح مؤشـرًا يبرر الاشـتباه فيـه. إنهـا طريقـة شـرطية تسـعى لإحـكام قبضتهـا والتـي تحصـل -وفقًـا لتخوفـات مناهضـي إجـراء التعداد السـكاني- على بيانات شـاملة عن طريق اسـتبيانات حصـر البيانات.

"أشـكال اسـتبدادية شـمولية للتحـول الرقمـي"[187] هذا مـا رآه النقاد عن طبيعـة الإحصـاء السـكاني الذي يتـم إجـراؤه بالاسـتعانة بأجهـزة الكمبيوتر. وقـد ازدادت قـوة هذا الشـعور بالخوف فـي منتصف الثمانينيـات من القرن العشـرين بفعـل الصـور الأدبيـة التي يبـدو أنها قدمـت بعض التنبـؤات بهذا الشـأن. لقـد بـدا أن أشـهر ديسـتوبيا فـي القرن العشـرين -والتي تـم تأليفها فـي السـنوات التالية للحـرب العالمية الثانية- أصبحـت حقيقة قبل قليل من التحقـق الفعلـي للمسـتقبل الـذي وصفتـه. فروايـة "1984" للكاتـب "جورج أورويـل" -والتـي حملت هذا الاسـم؛ لأن الأديب انتهـى من تأليف مخطوطها فـي نهايـة عـام 1948 (وربمـا لـو كان الإلهـام قـد تعطـل لديه قليـلًا لحملت الروايـة عنـوان "1994")- كانـت مرجعيـة حاضـرة فـي كل مـكان فـي حركـة مقاومـة إجـراء التعـداد السـكاني وكان لا يجـوز تقريبًـا أن يغيـب ذكرها في أي مقـال أو فـي أي كتيـب دعائـي، لا سـيّما أن عملية حصر البيانات وشـيكة الحـدوث أصبحـت تعتبـر مـرارًا وتكـرارًا فـي ربيـع عـام 1983 بمثابـة تنفيذ لتصورات الرواية الخيالية المخيفة حدث في موعده المضبوط وفقًا لأحداث

187- Anonym (1987a), S. 31

الرواية. حيث ورد في أحد المجلدات: "إن التعداد السكاني، الذي بدأ إجراؤه في السابع والعشرين من أبريل عام 1983، يعد عاملًا محفزًا -بين الحين والآخر- على الشعور القابع في نفوسنا جميعًا والذي يمزج بين الشعور بالغضب والشعور بالخوف من تحقيق تصور "أورويل" المستقبلي". كما ورد في المجلد ذاته عن نجاح المنشور -الذي حمل عنوان "أجهزة الكمبيوتر تسود البلاد" وشارك في مطلع عام 1983 في إثارة المقاومة المناهضة للتعداد السكاني-: "إن استحضار مشاعر الخوف من دولة المراقبة بمفهوم "أورويل" كان أمرًا محقًّا". وفي اليوم التالي لإيقاف تنفيذ الإحصاء السكاني المزمع عن طريق المحكمة الدستورية الاتحادية الألمانية، حمل التحقيق الصحفي الهام المنشور في صحيفة "زود دويتشه تسايتونج" عنوان "في انتظار عام أورويل". إن التصوير الأدبي لدولة شمولية، تراقب "شاشات العرض" حياة أفراد الشعب في كل ركن فيها، كان يعد بصفة مستمرة إطارًا للتقرير الصحفي النقدي الذي تناول إجراء التعداد السكاني. ووصل الأمر إلى إطلاق مسمى فج على ذلك المبلغ الذي طالبت به سلسلة متاجر السوبر ماركت "بلوس" في ربيع عام 1983 في مقابل أكياسها البلاستيكية والتي كانت تحمل دعاية ترويجية لإجراء التعداد السكاني حيث أطلقت على المبلغ تسمية "قرش أورويل". وقد ظل الكتاب مرجعًا مهمًّا، حظي بشعبية في عام 1987 أيضًا، أي بعد ثلاث سنوات من التاريخ الأساسي لأحداث الرواية. حيث ورد على سبيل المثال

فـي الكتيـب الدعائي لشـركة "تسـفاي تاوسـاند أونـد أينس": " لقـد أصبح ما حـذرت منـه روايـة "1984" لـ"جـورج أورويـل"، أي عالـم المراقبة الشـمولية وعالـم الإرهـاب الفكـري والبيروقراطية وعالم النفاق الرسـمي والتلاعب [...] حقيقة ملموسـة الآن"[188].

دلالة كلمة الشبكة:

دائمًـا مـا كان الشـعور بالفزع من هذا الخضوع لعملية تسـجيل البيانات مقترنًـا فـي تلـك الأثناء بذلك "التشـابك المتوقـع حدوثه في المسـتقبل"[189] والـذي اعتبـر مقاطعـو التعداد السـكاني أنه يمثـل هدف الإحصاء السـكاني الـذي كان يجـرى آنـذاك وأنـه اتضـح بشـكل نموذجـي فـي دولـة "أوشـينيا" التـي تخيـل "أورويـل" وجودهـا فـي روايتـه. كانـت دلالـة كلمتي "الشـبكة" و"التشـابك" فـي الثمانينيـات مـن القرن العشـرين تسـتحضر بشـكلٍ لا لبس فيـه معنـى التهديـد والوعيـد، حيث يشـير المفهومان إلى انتشـار وتحسـين وضـع سـلطة مـا، كانـت آفـاق تأثيرهـا غيـر واضحـة. ولـم يكـن مـن قبيـل العبـث أن كانـت عبـارة "إن الشـبكة الفولاذيـة تخيـم علينـا"[190] هـي شـعار

188- Duve (1983), S. 26, Hubert (1983), S. 259, Süskund (1983), S. 3, Hubert (1983), S. 254, Rottmann / Strohm (1986), S. 25

189- Rottmann / Strohm (1986), S. 7

190- Bölsche (1979 /1983), S. 11

سلسلة مقالات "الطريق إلى دولة المراقبة" والتي تم نشرها بدءًا من عام 1979 في صحيفة "دير شبيجل" في بادئ الأمر ثم ظهرت في منتصف الثمانينيات في نسخ كتب عديدة. ونصت رسالة هذه المقالات على أن من يسقط كفرد في هذا النسيج المتشابك المتضخم من تسجيل البيانات عن طريق أجهزة الكمبيوتر، فإن هذا يعوق تطور شخصيته بحرية ويهدد هويته.

ومن الواضح أن هذه الدلالة لمفهوم "تشابك" قد ظلت سارية أيضًا في السنوات الأولى لظهور شبكة الإنترنت في التخيلات الشعبوية مثلما ظهر في أفلام "هوليوود". فمن جديد، قدم فيلم "الشبكة" للممثلة "ساندرا بولوك" والذي عُرِض في دور العرض عام 1995، الدور القوي الذي يلعبه مرض جنون الارتياب والمعروف باسم "البارانويا" في علاقة الفرد بمجموعة الوسائط الإلكترونية بكل عواقب ذلك. فبطلة الفيلم تعمل متخصصة في البرمجيات واسمها "أنجيلا بينيت" وتزداد عزلتها الاجتماعية بنفس مقدار زيادة كثافة استخدامها للكمبيوتر. لم يعد لهذه السيدة الشابة أي روابط أسرية (فالأب قد اختفى والأم المصابة بفقدان الذاكرة تقبع في إحدى دور رعاية المسنين) وهي تعمل من المنزل لصالح شركة برمجيات في مدينة أخرى وترتدي أثناء ذلك بدلة ركض رياضي. وقد جعلت حياتها الجنسية مقتصرة على محادثات كانت تجريها عبر شبكة الإنترنت. كما كانت تطلب البيتزا أيضًا عن طريق شبكة الإنترنت وهو ما لم يكن يعتبر في

عـام 1995 بعـد بمثابـة دليـل علـى أنمـاط المعيشـة المتحركـة فـي المناطـق الحضريـة -مثلمـا يحـدث فـي الوقـت الحالـي عـن طريـق تطبيقـات مثـل "ليفيرانـدو" و"دليفـروو"- وإنمـا كان يعتبـر آنـذاك مؤشـرًا علـى العزلـة الشـديدة. وعندمـا اكتشـفت "أنجيـلا بينيـت" -قبيـل قيامهـا برحلـة فـي إحـدى الإجـازات وهـي "أول رحلـة تقـوم بهـا منـذ سـت سـنوات"- فـي قـرص مـرن يخـص رئيـس العمـل الخـاص بهـا سـبيلًا للوصـول إلـى مجموعـة وفيـرة مـن الوثائـق السـرية، أصبحـت هدفًـا لقراصنـة الكمبيوتـر الإرهابييـن الذيـن يتلاعبـون بأسـعار الأسـهم والبورصـات. كان يجـب علـى هـذه المجموعـة أن تسـتحوذ علـى القـرص المـرن الفاضـح للأسـرار (لـم تكـن وسـائط تخزيـن البيانـات التـي يمكـن الوصـول إلـى البيانـات المخزنـة عليهـا دون التقيـد بمـكان، ومنهـا "كلاود" علـى سـبيل المثـال، قـد اخترعـت بعـد فـي منتصـف التسـعينيات). وعندمـا فشـلت المجموعـة فـي ذلـك، بـدأ القراصنـة شـيئًا فشـيئًا فـي محـو هويـة السـيدة مـن أجـل وضعهـا تحـت الشـعور بالضغـط؛ فأصبحـت "أنجيـلا بينيـت" -التـي تعرضـت لسـرقة كل الوثائـق التـي تثبـت هويتهـا- غيـر مسـجلة فجـأة فـي الفنـدق المكسـيكي المطـل علـى الشـاطئ. وعندمـا أرادت أن تطلـب اسـتخراج تأشـيرة سـفر مـن السـفارة، حصلـت علـى سـجل بيانـات إنسـانة أخـرى تدعـى "روث ماركـس" ولـم تسـتطع العـودة إلـى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة إلا بهـذا الاسـم. وبعـد عودتهـا إلـى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وجـدت أن سـيارتها، التـي كانـت توقفهـا فـي المطـار، قـد اختفـت وأن هنـاك سـيدة أطلقـت علـى نفسـها اسـم

"أنجيـلا بينيـت" وأخلـت منزلهـا وعرضتـه للبيـع. إن الفيلـم يعـرض منذ الآن فصاعـدًا تجربـة مـاذا يمكـن لشـخصٍ مـا، يعيـش في عزلـة وليس لـه تواجد سـوى فـي نطاقـات أجهـزة الكمبيوتـر، أن يفعـل مـن أجـل التأكيـد علـى هويتـه فـي حقيقـة الأمر؟ لم تكـن "أنجيلا بينيـت" -والتي كانـت تعمل منذ وقـتٍ طويـل فـي غرفـة مكتـب داخـل منزلهـا- لديهـا أي أصدقاء فـي "لوس أنجلوس" سـوى إنسـان واحد بصفة شـخصية وهو معالجها النفسـي السـابق والـذي اعتبـر مـع ذلـك أن حكاية تبديـل هويتها تعد هـلاوس. تمكن خصوم "أنجيـلا بينيـت" مـن الدخـول علـى أجهـزة الكمبيوتـر الخاصـة بالشـرطة ومـن الوصـول إلـى بيانـات خاصـة بالتأميـن الصحـي وأجـروا تغييـرات فـي بصمـات الأيـدي المسـجلة هناك وسـجلات السـوابق. وعندما تم فـي النهاية إلقـاء القبـض علـى "أنجيـلا بينيـت" بعد طلـب من أجهـزة البحـث الجنائي، كانـت كل سـمات تحديـد هويتهـا متطابقـة فـي عملية الكشـف عـن الهوية الجنائيـة مـع المجرمـة "روث ماركس". حتـى إن المحاميـة المنتدبة من قبل المحكمـة اعتبـرت أن كل الأوصـاف التـي أدلت بهـا المعتقلـة لا تعدو كونها أعـراض لمـرض جنـون الارتيـاب والمعـروف باسـم "البارانويا".

ونظـرًا لأن فيلـم "الشـبكة" كان أحـد أفـلام الإثـارة فـي "هوليـوود" والـذي جـاءت بنيتـه بصـورة تقليديـة وانتهـى نهايـة سـعيدة، فقـد اسـتطاعت البطلـة فـي آخـر دقيقـة أن توضـح المشـاكل التـي تورطـت فيهـا. فأثبتـت إدانـة مجموعـة الإرهابييـن عبـر الواقـع الافتراضـي،

والتـي أسسـها رئيـس العمـل الخـاص بهـا، وأن "روث ماركـس" الحقيقيـة قد لقـت حتفهـا وتمـت إعـادة تأهيل "أنجيـلا بينيـت". إلا أن حالـة الفيلم هذه المثيـرة للاهتمـام والمتعلقـة بتاريخ الوسـائط الإلكترونية ترتبط بسـؤال عن أي خيـالات تلك التي اسـتحضرتها كلمة "التشـابك" -والتـي انبثق منها عنوان الفيلـم- عـن البيانـات التـي كانـت تنتجهـا أجهـزة الكمبيوتـر في عـام 1995 وأي علاقـة تتطـور بين الاندماج الاجتماعي لشـخصٍ ما وبين درجة نشـاطاته عبـر شـبكة الإنترنـت. كان مـن شـأن كل شـيء فـي طريقـة تصويـر بطلـة الفيلـم أن يقـود إلـى معرفة أن الشـخص الـذي يمكن إثبات عمليـات تفاعله مـع الآخريـن عـن طريق بيانـات الكمبيوتر وحدهـا، يخاطر بكيانـه ووجوده. فعلـى الشـاطئ المكسـيكي، حيثمـا كانـت "أنجيـلا بينيـت" -التـي تسـتحي مـن النـاس- تجلـس وبصحبتها جهـاز كمبيوتر محمـول مفتـوح، خاطبها أحد أعضـاء العصابـة للمـرة الأولى قائـلًا: "إن أجهزة الكمبيوتر هـي حياتكِ، أليس كذلـك؟" فأجابتـه: "أجـل، إنها مخبأ مثالي". كانت شـبكة الإنترنـت تبدو بعد فتـرة قصيـرة مـن انتشـارها العـام ما زالت شـبكة غيـر اجتماعيـة؛ حيث كان مـن الممكـن أن يفنـى الأشـخاص، الذيـن يمـرون بتقلبـات نفسـية، ذواتهـم فـي النسـيج المتشـابك للبيانـات. لقـد قالـت "أنجيـلا بينيـت" ذات مـرة لمحاميتهـا المنتدبـة مـن قبل المحكمة: "إن عالمنا بأسـره مخـزن في أجهزة الكمبيوتـر". لقـد اسـتعانت بمفـردات لغويـة تذكرنـا بالكتيبـات الدعائيـة لمناهضـي التعـداد السـكاني. "وهنـاك يوجد هـذا الظل الإلكترونـي الصغير

لكل فرد منا ورجاؤه الوحيد فقط يتمثل في أن يتم التلاعب به".

بريق عملية جمع البيانات:

فـي ذلـك الوقـت علـى وجـه التحديـد، أي عندمـا تـراءت فـي دور عرض السـينما مقاومـة "سـاندرا بولوك" لعمليـة إلغاء وجودها، بـرز بوضوحٍ متزايد جانـب دلالـي آخـر لـ"الشـبكة" الإلكترونيـة، أي فهم جديد لكلمة "تسـجيل" والتـي لـم تعـد تتعلـق بالوضع المتـأزم للهويـة التي توجهها البيانـات وإنما بقدرتهـا الإنتاجيـة. حيـث تأسسـت أولـي منصـات للبحـث عـن شـريك على شـبكة الإنترنـت ومنهـا علـى سـبيل المثـال match.com ونشـأت مذكـرة بـراءة اختـراع موقـع "سـيكس ديجريـز" واحتفـت كتـب "هـاورد رينجولـد" و"نيكـولاس نيجروبونتـي" و"شـيري تـوركل" بالوجـود الحـر فـي المجتمعات الافتراضيـة والـذي يحـدده الفـرد بنفسـه. إن عمليـة "نقـد شـبكة الإنترنـت" الأوربيـة السـابقة التـي أجراهـا "جيـرت لوفينـك" و"بيـت شـولتس" وآخرون والتـي اتخذت موقفًا معارضًا حاسـمًا من حالات تمجيـد "الفضاء الافتراضي"، الـذي لـم يقتـرب منـه أحـد، كانـت تشـبه مـا فعلـه رواد شـبكة الإنترنـت فـي "شـمال كاليفورنيـا" علـى الأقـل مـن حيـث التأكيـد بمثـل تلـك الدرجـة مـن التصميـم علـى المشـاركة الفعالـة فـي "شـبكة الإنترنـت". حيـث قـال "لوفينـك" فـي نهايـة عام 1996 أن "نقد شـبكة الإنترنت يتخـذ موضعًا داخل

الشبكة وداخل البرمجيات والأسلاك"[191] إن شبكة الإنترنت لا تؤدي في فترة نهضة الثقافة الرقمية إلى وجود أفراد منعزلين لديهم رهبة مرضية من التواصل الاجتماعي مثل "أنجيلا بينيت" وإنما إلى وجود مواطنين لديهم التزام تجاه مجتمعاتهم أي "مواطني الإنترنت" اليقظين وهو ما تنص عليه إحدى الكلمات الجديدة التي أصبحت تتمتع بالشعبية في النصف الثاني من التسعينيات. وعندما يتم فهم عبارة أن تكون "متشابكًا" اليوم بمعنى كونها عملًا أدائيًّا وأنها لم تعد وضعًا يخضع فيه الفرد لتوجيه من آخرين وكذلك فهمها بمعنى كونها موهبة تواصلية، لا يمكن من دونها إتمام الترقي الوظيفي أو خوض حياة اجتماعية متحققة، فإن هذا الاقتران الدلالي، الذي لا يختلف عليه أحد، يشير إلى نقطة الانتقال بين العصور والتي لا تكاد ترجع إلى أكثر من عشرين عامًا. حيث إن "شبكة الإنترنت" المتكونة من البيانات المرتبطة بصورة إلكترونية لم تعد تخيم على الناس كأنها ناقوس فولاذي ولم تعد تبعثهم على الصمت وإنما أصبحت تبدو في الخطابات البلاغية المهمة للثقافة الرقمية – سواءً من الناحية الموجَّهة على أساس السوق أو الناحية النقدية- عاملًا محفزًا أي بنية تحتية يمكن تشكيلها. أي يمكن القول بأنه يندرج ضمن العلامات المميزة للخطابات التي تدور عن "التشابك"

191- Lovink (1997)

للاطلاع على تاريخ حركة نقد شبكة الإنترنت انظر: (Apprich 2015)

و"تسـجيل البيانـات" فـي السـنوات العشـرين الأخيـرة أنهـا أصبحـت خاليـة بصـورة ملحوظـة مـن جنـون الارتيـاب والمعـروف باسـم "البارانويـا".

تتضـح دقـة هـذا التحـول عندمـا يربـط الإنسـان بيـن الشـعور بالانزعاج والمترسـخ بعمـق مـن إجـراءات دورة البيانـات -حسـبما أخـذت تتشـكل علـى سـبيل المثـال بصـورة علنيـة مـرارًا وتكـرارًا في ألمانيـا فـي الثمانينيات مـن القـرن العشـرين- والمعاييـر السـلوكية القياسـية الموجـودة فـي وقتنـا الحاضـر. لقـد تـم فـي عـام 2011 إجـراء تعـداد سـكاني، شـمل الاتحـاد الأوربـي، دونمـا أي احتجـاج يُذكـر. وهو أول تعداد سـكاني يتـم إجراؤه منذ التعـداد السـكاني فـي ألمانيـا عـام 1987. لقـد أصبحـت الطـرق المنهجيـة اليوميـة لتجميـع البيانـات عن الذات على هيئة ملفات شـخصية في وسـائل التواصـل الاجتماعـي وتحديـد المـكان تقنيًّـا فـي الهاتـف الذكـي وإجـراء قياسـات للجسـم عـن طريـق الهاتـف المحمـول تتمتـع بقـدر مـن البديهيـة فـي قطاعـات واسـعة مـن الشـعب ممـا يجعـل المعلومـات المنشـودة مـن الإحصـاء السـكاني خاليـة مـن أي تهديد. حيـث إن "الذات التي تجري قياسًـا كميًّـا" تستشـعر أن القيـاس والإحصـاء العـددي يعـدان -حسـبما سـبق وأن وصفنـا- مـن عوامـل تأسـيس الهويـة، فعندمـا ورد علـى الموقـع الإلكتروني لشـركة "فيتبيـت" أن أسـورة "فليكـس" "تتبـع كل جوانـب يومـك"، لـم يعـد تسـجيل البيانـات المتوافـر في كل مـكان يعتبر بمثابة سـيناريو مرعب وإنما

خدمة يتم أداؤها.

تحـول جوهـري فـي العقليـة الجمعيـة، يرتبـط أخيـرًا وليـس آخـرًا بمرسـل أمـر تسـجيل البيانـات: فـي الثمانينيـات مـن القـرن العشـرين كانـت مطالب بعض الجهـات الحكوميـة فـي الحصـول علـى بيانـات فـي إطـار التعـداد السـكاني قـد أثـارت فقـدان الثقـة لـدى مجموعـة كبيـرة مـن النـاس؛ فـأن تقـوم الدولـة بتسـجيل بياناتـك، كان مرادفًـا للبـوح باللـب الجوهـري لشـخصيتك وفقـدان الكرامـة الإنسـانية عبـر نمـاذج الرمـوز الشـريطية وكذلـك التعـرض لـ"التقويـم" و"التنقيـة"، حسـبما كتـب "جوتـس علـي" و"كارل هاينـز روت" فـي عـام 1984. وعندمـا يطالـع الإنسـان فـي الوقـت الحاضـر "تعليمـات حمايـة البيانـات" لشـركات مثـل "فيس بوك" و"إنسـتجرام" و"سـناب شـات" -والموضوعـة بصـورة متحفظـة والتـي لا يمكـن اسـتحضارها إلا بعد سلسـلة طويلـة مـن النقـرات- يتضـح علـى الفـور أن معالجـة وتمريـر المعلومـات الشـخصية المودعـة فـي "الملفـات الشـخصية" تكتمـل بصـورة متشـعبة علـى نطـاقٍ واسـع ولا تظهـر بالضـرورة بصـورة واضحـة. ومـع ذلـك، فقـد انقلـب الموقـف العاطفي لمسـتخدمي مواقـع التواصل الاجتماعـي (والذين يـكاد عددهـم يصبـح متطابقًـا فـي بلـدان مثـل ألمانيـا والولايـات المتحـدة الأمريكيـة مـع تنامـي إجمالـي عـدد السـكان) تمامًـا وذلـك بالمقارنـة بمشـاعر الرهبـة المرضيـة مـن التعـرض لتسـجيل البيانـات فـي الثمانينيـات مـن القـرن العشـرين. أن تقـوم شـركات عالميـة فـي الثقافـة الرقميـة

بـ"جمـع بياناتـك"، لـم يعـد يثيـر فـي المعتـاد أي مشـاعر خـوف نابعـة مـن مـرض جنـون الارتيـاب والمعـروف باسـم "البارانويـا" وإنمـا أصبـح يثيـر أحاسـيس الانتمـاء والاندمـاج. فالفـرد ليس مهـددًا بالهلاك مثلمـا يحدث في الدولـة الأخطبوطيـة وإنمـا يظهـر فـي مجتمـع المسـتخدمين. ففـي تقنيات وسـائل الإعـلام، لـم يتمتـع ربمـا أي خطـاب بلاغـي تأسيسـي بأثـر مسـتديم مثـل الأثـر الـذي تمتعـت بـه الخطابـات التـي دارت عـن تنمية الـذات وبناء المجتمـع فـي السـنوات الأولـى لظهـور شـبكة الإنترنـت. وهو الأثـر الذي ما زالـت تعتمـد عليـه اليـوم كل فكـرة رئيسـة لـ"مـارك زوكربـرج" وكل مقطـع دعائـي منزلـي لشـركة "إيربيإنبـي". إن الوعـد بالتشـارك فـي "الصفحـات الشـخصية" و"قصـص" وسـائل التواصـل الاجتماعـي يسـلط ضـوءًا مبهـرًا علـى جميـع التعامـلات المتزامنـة بصـورة عابرة، والتـي تتم بين المسـتخدم ومقـدم الخدمـة، حتـى وإن كان مـن الممكـن اعتبـار نموذج عمل الشـركات وحصولهـا علـى البيانـات الشـخصية وبيعهـا لتلـك البيانـات بمثابـة نسـخة منقحـة وغيـر شـفافة لتلـك الممارسـات العملية المؤسسـية لعملية تسـجيل البيانـات. وهـي الممارسـات التي أثـارت في الثمانينيات من القرن العشـرين مقاومـة قويـة للغاية.

إن هـــذه التشـــابكات والتداخـــلات هـــي مـــا جعلـــت تحليـــلات "ميشـيل فوكـو" -بـدءًا مـن تصوراتـه المبدئيـة عـن "البنـى الصغـرى للسـلطة" ووصـولًا إلـى الملاحظـات النظريـة عـن "الحكوماتيـة" فـي المحاضـرات الأخيـرة- ذات فائـدة كبيـرة لدراسـة صـورة الإنسـان فـي

الثقافـة الرقميـة. فلـو كانـت تأمـلات "فوكـو" الفكريـة الرائـدة تشـتمل علــى لفــت الانتبــاه -فــي ذروة النقــد ذي الطابــع الماركســي بقطبيــه الواضحيــن المتكونيــن مــن الظالميــن والمظلوميــن- إلــى أن علاقــات السـلطة لا تنحصـر فـي مـكان مـا وتتواجـد فـي كل مـكان، فـإن اتسـاع نطـاق إجـراءات تسـجيل البيانـات فـي ربـع القـرن الأخيـر قـد أكـد علـى نظرياتـه بطريقـة لا يمكـن التنبـؤ بهـا وذلـك بـدءًا مـن عمليـات حصـر البيانـات التـي تجريهـا هيئـات الدولـة بيـن الحيـن والآخـر ووصـولًا إلـى الاسـتعلام عـن البيانـات والـذي يتمتـع بحضـور طاغٍ فـي شـبكة الإنترنـت. فبعـد عـام 1989، أي بعـد انتهـاء الـدول الاشـتراكية وبنـاء التكتـلات فـي الحـرب البـاردة -واللذيـن حدثـا بالتزامـن معًـا علـى نحـوٍ جديـر بالملاحظـة فـي سـنوات شـيوع الثقافـة الرقميـة- فقـد الـوكلاء التقليديـون والمرجعيات التقليديـة للسـلطة السياسـية فـي أوربـا وشـمال أمريـكا رؤيتهـم. يتجلـى هـذا الانسـحاب أيضًـا فـي الضعـف الواضـح لحـركات المقاومـة المناهضـة لكيـان اسـمه "الدولـة" منـذ تسـعينيات القـرن العشـرين. وفـي الوقـت نفسـه، بـدأت تقنيـات التواصـل الرقميـة، التـي أخـذت تتحـرر مـن القيـود بصـورة متزايـدة والتـي أصبحـت تديرهـا شـركات خاصـة، تتولـى القيـام بتقنيــات تســجيل البيانــات لصالــح الهيئــات الحكوميــة ووســعت مــن نطاقهـا. وبهـذا الفهـم لقـوة النقـد السياسـي، الـذي حـدد حـركات المقاومة فـي الغـرب فـي الفتـرة مـن 1968 وحتـى نهايـة الثمانينيـات، لـم يعـد مـن الممكـن التغلـب علـى هـذه العلاقـات. فلـم تعـد علاقـة مـن يقومـون بعمليـة تسـجيل البيانـات ومـن يخضعـون لتسـجيل البيانـات أو علاقـة

الظالميـن والمظلوميـن علاقـة تضـاد، يمكـن تمييزهـا بوضـوح. حيـث طـورت مجلـة "ويـرد" المتأسسـة فـي "كاليفورنيـا" قرابـة عـام 1993 تحالفًـا غيـر متوقـع بيـن نشـطاء الإنترنـت المنحدريـن مـن الثقافـة المضـادة فـي "كاليفورنيـا" والسياسـة المتحفظـة ذات التوجـه الليبرالـي فـي السـوق. لقـد تقـارب هـذان المجـالان رغبـة في أن تلعـب المصالح الحكوميـة دورًا دفاعيًّا قـدر الإمـكان عند تأسـيس البنـى التحتية الرقميـة[192]. أي أن تسـجيل بيانات النـاس عـن طريق أجهـزة الكمبيوتر قد ازداد بصورة متعـددة إلا أن الاندماج الاجتماعـي والسياسـي لـدورة البيانـات الشـخصية قـد تشـكل بطريقـة لـم يكـن مـن الممكـن التكهـن بها.

رواية "1984" من منظور اليوم:

لـو قـرأ الإنسـان روايـة "1984" للأديـب "جـورج أورويـل"، والتـي كانـت تعـد المرجعيـة الديسـتوبية الإلزاميـة لهـذا العصـر، مـرة أخـرى مـن الواقـع المعاصـر لوسـائل الإعـلام، سـوف يتجلـى هـذا الانفصال بشـكلٍ خـاص. فمن المثير للدهشـة مـدى اقتراب وابتعـاد –بالمثل- تصورات "أورويـل" الخيالية عـن حاضرنا. فعندما رأى حشـد منتقـدي إجراء التعداد السـكاني قبل ثلاثين عامًـا أن تنفيـذ "دولـة المراقبـة"، التـي تخيلهـا "أورويـل"، أصبـح أمرًا وشـيك

192- للاطلاع على هذا التطور انظر: Turner (2006), S.212-222

الحـدوث، كانـت تطـورات تقنيـات وسـائل الإعـلام قد عـززت بالتأكيـد -منذ ذلـك الوقـت- مـن هـذه المخـاوف. فقـد ازدادت فـي مطلـع القـرن الحادي والعشـرين كثافـة تواجـد شاشـات عـرض متشـابكة فـي كل شـقة وفـي كل متـرو أنفـاق وفـي كل ناصيـة شـارع بدرجـةٍ، لـم تبلغها فـي روايـة "أورويل" دولـة "أوشـينيا" الخياليـة والتـي تواجدت فـي مرحلـة نهاية العالـم وأنهكتها حـرب اسـتمرت أربعيـن عامًـا. حيـث ورد فـي الروايـة عـن الأجهـزة التي تم ضبطهـا علـى الأقـل فـي مسـاحة مدينـة لنـدن علـى نطـاقٍ واسـع: "كانـت شاشـات العـرض أجهـزة إرسـال واسـتقبال فـي الوقـت نفسـه"؛ حيـث كانت أخبـار الحـزب وتعليماتـه وأغانيـه الحماسـية تصـل إلـى الشـقق "مـن لـوح معدنـي مسـتطيل الشـكل مائـل إلـى الطـول والـذي كان" منحوتًـا "فـي الجـدار مثـل مـرآة معتمـة". كان سـكان المدينـة يسـتطيعون أن "يخفضـوا مـن صـوت" الجهـاز "إلا أنـه لـم يكـن مـن الممكـن إغلاقـه تمامًـا". وكانـت الشاشـات فـي روايـة "1984" تسـجل كل انفعـال، يصـدر عـن أي شـخص (أينمـا كان الإنسـان يتوجـه أيضًـا، كان يقـف أمـام شاشـة عـرض). كان هـذا التسـجيل الشـامل مرتبطًـا بالأمـر الموجه من أجـل إحداث تفاعـل اجتماعي مسـتمر. لقـد كتـب "أورويل" عـن مدونة قواعد السـلوك الخاصـة بكل عضو فـي الحـزب قائـلًا: "كان الإنسـان يتوقـع أنـه يمكـن أن يكـون فـي خطـر، إن لـم يكـن يعمـل أو يتنـاول الطعـام أو ينـام وإن لـم يكـن مشـاركًا فـي عمـل مجتمعـي، أي إن كان يفعـل شـيئًا مـا بـه ميـل لأن ينتهي إلـى الوحدة، حتى

وإن كان يتنـزه بمفـرده"[193]. **لحظة الارتياب في حياة لا تسجلها الوسـائط التقنية، السـبب المرضـي الكامـن فـي "النزعـة نحـو الوحـدة":** لقـد بـدا أن هـذا الافتـراض النظـري والخـاص بالجانـب الاجتماعـي قـد تحقـق بالفعـل فـي المناقشـات التـي دارت فـي عـام 2012 عن عزوف المشـتبه بارتكابهـم لجرائم إطلاق نار بصـورة عشـوائية عـن التواجـد علـى موقع "فيـس بوك".

أي أنـه بالنظـر إلـى المعاييـر القياسـية الراهنـة لتقنيـة وسـائل الإعـلام، كان لروايـة "1984" لـ"أورويـل" قـدرات استشـرافية، مـع أن هـذا قـد حـدث فـي وقـتٍ متأخـر بعـض الشـيء. ويبـدو مـن المنطقـي أن الكتـاب يحقـق نجاحـات فـي المبيعـات فـي أوقـات الأزمـات السياسـية؛ ومنهـا علـى سـبيل المثـال الفتـرة التاليـة لانتخـاب "دونالـد ترامـب" فـي نهايـة عـام 2016. بيـد أن هـذه التشـابهات، التـي تطـرأ بيـن الحيـن والآخـر، لا تتمتـع بأهميـة كبيـرة فـي حـد ذاتهـا. فعلـى الأرجـح تعـد الاختلافـات الجوهريـة فـي السـياق السياسـي ذات دلالـة أقـوى. وهـي الاختلافـات الموجـودة فـي كل علاقـات تقنيـات وسـائل الإعـلام بيـن العالـم الديسـتوبي للروايـة والظـروف الراهنـة. فاليـوم يعيـش جميـع النـاس تقريبًـا فـي أوربـا وأمريـكا الشـمالية (علـى الرغـم مـن التطـورات السياسـية الأخيـرة) فـي ظـل نظـم حكـم ديمقراطيـة حـرة. فـلا وجـود لنظـام حكـم شـمولي يعتمـد علـى المراقبـة وربمـا يسـيطر علـى تصرفـات وأفـكار رعيتـه بالاسـتعانة بتقنيـات تواصليـة

193- Orwell (1949 /2011), S. 9, S. 8, S. 136, S. 102

جبرية ويقابل أي تجاوز بعقابٍ شديد. ففي واقع وسائل الإعلام في مطلع القرن الحادي والعشرين، حلت جهات إرسال للبيانات وجهات إمداد بها أكثر تحفظًا محل كيان "الدولة" المستبد وذي الوجود الملموس بصورة ملحوظة في رواية "أورويل" بوصفه مركزًا لدورة البيانات. تتمثل هذه الجهات في سلسلة من الشركات العالمية التي يديرها القطاع الخاص. وعلى الأرجح تقدم أرشيفاتها وبنياتها التحتية ونطاقاتها معلومات أكثر شمولًا عن كل فرد مما قد يتاح لأجهزة الاستخبارات وهي الشركات التي لا يعد موقفها من المستخدمين بمثابة علاقة سلطوية[194].

إن أماكن ممارسة السلطة في رواية "1984" تعد واضحة للعيان في كل وقت ويمكن تحديد موقعها بدقة وهي المباني الأربعة الضخمة لـ"الوزارات" والتي تذكرنا بالأماكن التمثيلية ذات المعمار الاشتراكي والنازي والتي "يختلف" شكلها في صورة مدينة لندن "بصورة مثيرة للدهشة عن كل ما رآه الإنسان سواه"؛ ففي هذه الأماكن "يتوزع الجهاز الحكومي بأكمله".[195] إن الهيكل الشخصي لهذا الجهاز يتنظم في نسق من الدوائر أحادية المركز والتي يقبع "الأخ الأكبر" في مركزها وتضم مجموعة أعضاء "الحزب الداخلي" -الذين يتمتعون بامتيازات

194- لقد عالج الكاتب "ديف إيجرز" هذا التحول في روايته "الدائرة" الصادرة عام 2014 بصورة أدبية، انظر: Eggers 2014

195- Orwell (1949 /2011), S. 10

حصريـة وتتـاح لهـم أيضًـا خاصيـة الإرسـال عبـر شاشـات العـرض- وأيضًـا الحشـد الكبيـر مـن الشـعب المهمـش والمظلـوم والـذي يتبـع "الحـزب الخارجـي" والـذي ينتمـي إليـه أيضًـا بطـل الرواية "وينسـتون سـميث". يعد اسـتخدام الوسـائط الإلكترونيـة في هذا النظام ذي التـدرج الهرمي أمرًا واردًا باعتبـاره إجـراءً رقابيًّـا تقـوم بـه مرجعيـة اسـتبدادية مطلقـة؛ حيـث ورد في الروايـة عـن تاريـخ "أوشـينيا": "لقد انتهـت أي حياة خاصة بتطـور التلفزيون ومواصلـة تطـوره التقنـي والذي أتاح أن يتم الاسـتقبال والإرسـال بالجهاز في الوقـت نفسـه. حيـث كان مـن الممكـن أن يبقـى أي مواطـن أو علـى الأقـل أي شـخص، يتمتـع بأهميـة كافيـة لأن تتـم مراقبتـه، تحـت أعيـن الشـرطة وبرامـج الدعايـة الرسـمية لمـدة أربـع وعشـرين سـاعة يوميًّـا". إن عمليـة تسـجيل البيانـات تتطابق لـدى "أورويل" مـع عمل التحقيق الشـرطي. وهذا التطابـق ينتهـي إلـى صورة إنسـانية ذات طابع موحد تمامًا. فبنظام شاشـات العـرض "أتيحـت للمـرة الأولى إمكانية لإرغـام جميع أفـراد الرعية ليس على الطاعـة المطلقـة لإرادة الدولـة فحسـب وإنمـا أيضًا على اعتنـاق رأي موحد مطلق"[196].

إن مـــن شـــأن نظـــام الحكـــم المعتمـــد علـــى المراقبة فـــي رواية "1984" أن يمحـــو أي تطـــور فـــي شـــخصية الفـــرد؛ ففـــي "أوشـــينيا" كان يعيـــش "ثلاثـــة مليـــون شـــخص لهـــم الوجـــه ذاتـــه بصـــورة

196- نفس المرجع السابق ص 248 /249.

أبديـة"[197]. كانـوا يحتسـون شـوربة الكرنـب ذاتهـا ويرتدون المعطـف ذاته، وكانـت شاشـات العـرض توقظهـم فـي الصبـاح الباكـر فـي الوقـت نفسـه وكانـوا يتمسـكون بالأفـكار الإلزاميـة ذاتهـا. لقـد صمـم "جـورج أورويل" في روايتـه شـمولية وصلـت فيهـا تقنيـة وسـائل الإعـلام إلـى حالـة قصـوى ذات طابـع فاشـي وسـتاليني. إلا أن هـذا التصـور المسـتقبلي المفـزع علـى وجه التحديـد، والـذي اتضـح بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة (والذي تمتـع بفعالية فـي الثمانينيـات أيضًـا)، لـم يتحقـق. فتسـجيل البيانـات المتواجـد فـي كل مـكان فـي مطلـع القـرن الحادي والعشـرين لم يعد أمـرًا جبريًّـا وإنما عملية طوعيـة تتعلـق بوسـائل الإعلام، حيـث حلَّت حتميـة تحقيق الأفـراد لذواتهم محـل حتميـة تمتـع الأفـراد بطابـع موحـد. فـإن كان قـد قيـل عـن شاشـات العـرض فـي روايـة "1984" إنهـا كانـت "حساسـة بدرجـة كافيـة لدرجـة أنها تسـجل نبضـات القلـب" فـإن الأجهـزة التـي يمكـن ارتداؤهـا والسـاعات الذكيـة تتولـى فـي الوقـت الحاضـر أداء هـذه المهمـة. وهـذا انطلاقًـا مـن الرغبـة الجمعيـة فـي إجراء قيـاس كمي للـذات. يعد عضو الحـزب في رواية "أورويـل" ذو الوجـه الممتقع والذي تحكمه إجراءات فكرية قسـرية موحدة وأنهكتـه المراقبـة المسـتمرة، رمـزًا للحيـاة، التـي يتـم تسـجيل بياناتهـا. مـن يكـون ربمـا مثـل "وينسـتون سـميث" فـي الثقافـة الرقمية؟ هل هو الشـاب الـذي يجلـس إلـى طاولـة فـي المقهـى وكان يصور نفسـه منـذ دقائـق بينما

197- نفس المرجع السابق ص 92.

يتخـذ جسـده الوضعيـة المعروفـة لذلـك -حيـث يمـد ذراعيـه ويضـع رأسـه بصـورة أفقيـة- ويرتـب هـذه الصـور بلمسـات سـريعة مـن يـده فـي قصتـه علـى موقـع "إنسـتجرام" مـن أجـل أن يـزود متابعيـه بصـور جديـدة؟ أم من يمـارس رياضـة الركـض فـي المتنـزه وهـو يضـع شـريحة التتبـع فـي الحـذاء ويرتـدي أسـورة "فيتبيـت" ويقـوم بتحميـل صـور مضمـار الركـض ومعـدل ضربـات القلـب مـن أجـل أن يـراه الأشـخاص المتواجـدون علـى شـبكة "المجتمـع" الموجـودة علـى شـبكة الإنترنـت؟

لـم تعـد عمليـات تسـجيل البيانـات فـي الوقـت الحاضـر تسـتنزف الهويـة وإنمـا تحـدد تشـكيلها وتمثيلهـا. تتمثـل أحـد طـرق النظـام الاسـتبدادي فـي روايـة "أورويـل" فـي حرمـان النـاس مـن جميـع الذكريـات الشـخصية. فعقوبـة تأليـف المذكـرات كانـت الإعـدام. لقـد نُقِـل عـن "وينسـتون سـميث" أنـه دون اسـتحضار للسـيرة الذاتيـة الشـخصية "يفقـد مسـار الحيـاة ملامحـه الدقيقـة"[198]. فـكان تجنـب الحظـر المفـروض علـى الذكريـات وتسـجيل الانطباعـات الذاتيـة بخـط اليـد، يعد بالنسـبة له شـكلًا مـن أشـكال المقاومـة الداخليـة، شـأنه فـي ذلـك شـأن لقاءاتـه مـع حبيبتـه "جوليـا". فلـم يكـن مسـموحًا لأعضـاء الحـزب أن ينجبـوا سـوى عـن طريـق التلقيـح الصناعـي وكانـت الشـهوة الجنسـية تعد في دولـة "أوشـينيا" بمثابة "جريمـة فكريـة". وكان الفعـل الجنسـي المكتمـل يعتبـر فـي النهايـة أكثـر

198- نفس المرجع السابق ص 42.

إمكانيــة مباشــرة للتعبيــر عــن الاعتــراض الشــديد، فقيــل ذات مــرة عــن "وينســتون" و"جوليــا": "كان عناقهمــا مثــل معركــة حربيــة وشــعورهما بالنشــوة بمثابــة انتصــار. كان هــذا ضربــة موجهــة للحــزب"[199]. إنــه ربــط وثيــق لا ينفصــم بيــن التحــرر الجنســي والسياســي، ســاهم بالتأكيــد فــي أن تحظــى الروايــة بالشــعبية بعــد عــام 1968. فمــن حيــث المبدأ، كان النشــاط التخريبــي عنــد "أورويــل" يعنــي دائمًــا إيجاد مــلاذات لا يصل إليهــا الارتباط القائــم بيــن شاشــات العــرض والميكروفونــات. وكان نطــاق الإنســانية يتمثــل -بالنســبة لأخلاقيــات الروايــة- فــي نطــاق الأشــخاص غيــر الخاضعيــن للتســجيل والأشــياء غيــر الخاضعــة للتســجيل. فبعــد أحــد لقــاءات الحــب الســرية (كمــا كان مفترضًــا) مــع "جوليــا" قال "وينســتون" بشــكلٍ قاطع: "لن يكــون بإمكانهــم إحــكام قبضتهــم علــى مكنــون نفســكِ. عندمــا تشــعرين أن الأمــر يســتحق أن تبقــي إنســانة. فحتــى وإن لــم تســتطيعي أن تصلــي لأي شــيء علــى الإطــلاق بذلــك، فإنــك ســتكونين عندئــذ قــد انتصــرتِ عليهــم". كمــا ورد فــي الروايــة عــن جواســيس الحــزب الداخلــي: "إنهــم يســتطيعون أن يفضحــوا كل شــيء حتــى أدق التفاصيــل عمــا فعلــه النــاس أو قالــوه أو فكــروا فيــه. غيــر أن مكنــون نفــس الإنســان، والــذي تعــد انفعالاتــه غامضــة علــى الإنســان نفســه، يظــل مــن المســتحيل الوصــول إليــه"[200]. إن الفــرد

199- نفس المرجع السابق ص 155.

200- نفس المرجع السابق ص 203.

لا يستطيع أن يحافظ على كرامته الإنسانية إلا في المناطق التي تبتعد عن نطاق التسجيل الإلكتروني للبيانات. إنه مبدأ رئيس أو بديهية إنسانية، اتفق عليها أيضًا مناهضو إجراء التعداد السكاني بعد ذلك بخمسة وثلاثين عامًا. لقد انتهى وجود هذا التضاد في البرامج المهمة للثقافة الرقمية في الوقت الحاضر وفي نظريات القياس الكمي للذات ومنها على سبيل المثال شعارات المشاركة على شبكة الإنترنت. فأصبح جوهر الإنسان متمثلًا في ما يمكن جمع البيانات عنه وما يمكن التواصل به عن طريق الوسائط الإلكترونية. وأصبحت الأنا ملفًّا شخصيًّا.

أما التصورات المستقبلية المخيفة في رواية "1984" فقد ظلت في الثقافة الشعبوية في القرن الحادي والعشرين بمثابة شعارات وأنواع تُستخدَم بصورة ساخرة. فمن المعروف أن برنامج "الأخ الأكبر" يعد منذ عرض نسخته الهولندية للمرة الأولى في عام 1999 والعرض الأول في التلفزيون الألماني بعد ذلك بعام من برامج المراقبة التلفزيونية والذي يتقدم في كل موسم عشرات الآلاف من المتسابقين للالتحاق به (حتى وإن كان اهتمام الرأي العام به قد قلَّ في غضون ذلك لدرجة أن قاطني المنزل المعزول أصبحوا يحيون حياة بائسة ويدخلون في طي النسيان، شأنهم في ذلك شأن فنان الجوع بطل إحدى قصص "كافكا" والذي كان يقبع في ركنٍ ناءٍ في السوق التي تقام سنويًّا). إن إحدى النقاط الأخرى، التي يتم الرجوع فيها إلى

رواية "أورويل"، تتمثل في نهاية الرواية حيث أعمال التعذيب الوحشية سيئة السمعة التي مارسها الحزب في غرفة رقم 101 التابعة لـ"وزارة الحب" والتي كان جميع سكان "أوشينيا" يخشونها والتي اضطر "وينستون سميث" للتعرض لها بعد أن أعرب عن استنكاره لها: "إن أفظع ما في العالم ينتظر الإنسان في غرفة 101"، هكذا قال "أوبراين" رئيس الحزب الغامض عندما أحضروا له "وينستون" في غرفة التعذيب. "إن أفظع ما في العالم يختلف بالطبع من شخص لآخر. فيمكن أن يتمثل في الدفن على قيد الحياة أو الموت حرقًا أو غرقًا أو على الخازوق أو خمسين طريقة أخرى للموت. هناك حالات يصبح فيها هذا الأمر تافهًا تمامًا وليس مميتًا". دخل أحد أفراد الحراسة إلى الغرفة وبصحبته "شيء من قبيل الأواني أو السلال" وذلك من أجل التحضير لتعذيب "وينستون". "كان قفصًا من السلك ذا شكل مستطيل وبه مقبض للحمل مثبت بالأعلى. وكان هناك في الناحية الأمامية شيء مثبت يشبه قناع المبارزة والذي تتجه ناحيته المقعرة نحو الخارج. وعلى الرغم من أن القفص كان يبتعد عنه بمسافة ثلاثة أو أربعة أمتار، كان بمقدوره أن يرى أنه كان مقسمًا بالطول إلى قسمين وأن في كل قسم منها كان هناك حيوان ما. جرذان [...] "ليس بإمكانك أن تفعل هذا"، صاح بها بصوتٍ حاد متقلب. "أبدًا! لا!"" بدأ "أوبراين" في تشغيل آلة التعذيب وثبَّت المذنب وألبسه القناع المزود بفتحات واسعة وقرَّب القفص منه مباشرةً. "اعتراه من جديد الشعور بالذعر.

لقـد أصبـح ضريـرًا وعاجزًا ومخبـولًا..."[201]. لم ينقل لنا أحـد هل كان مبتكرو البرنامـج التليفزيونـي الناجـح "أنـا نجـم – أخرجونـي مـن هنـا!" يعرفـون الفصـل قبـل الأخيـر مـن روايـة "1984" عندمـا صاغـوا شـكل مشـهد الرقـص الاسـتعراضي لـ"اختبـارات الغابـة" وهـي عبـارة عـن صناديق زجاجيـة، تزداد براعـة تصميمهـا مـن موسـم لآخـر، والتـي يتـم شـد رأس المتسـابق المختار أو جسـده بأكملـه إليهـا وتمتلـئ مـن ثـمَّ بالجـرذان والفئران والحشـرات. إن التشـابه فـي البنـاء بين هذا المشـهد والفصـل قبل الأخير مـن رواية "1984" لافـت للنظر. وبينما يتم إنقاذ "وينسـتون سـميث" فـي الثانية الأخيرة من أن تلمسـه الحيوانـات في الحقيقة وذلك بأن يبوح بسـر حبيبتـه "جوليا"، يصمد نجـوم مشـهد "اختبارات الغابة" فـي البرنامج التلفزيونـي ويتصدون للتحدي ويَعرضـون عنـد رجوعهـم إلـى المعسـكر النجوم التـي جمعوهـا بفخر وهي النجـوم التـي تضمـن لنزلاء البرنامـج الحصول على طعام وشـراب أفضل. لقد انتشـر فـي الغرفة 101 هذا النظام الآلي، حسـبما قـال "أوبراين"؛ أي التهديد المهلـك بالمـوت على الخازوق أو غرقًا على سـبيل المثـال. صحيح أن ضحية هـذا التهديـد "وينسـتون سـميث" قد نجا جسـديًّا من تلك العملية -حسـبما يعـرض الفصـل الأخير مـن الروايـة - إلا أن رغبته في التحـرر وكيانه الداخلي قـد انخمـدا. أمـا مشـاهدو البرنامـج التليفزيونـي "أنـا نجـم... أخرجوني من

201- نفس المرجع السابق ص 341-343.

هنـا!" فقـد أصبحـوا فـي الموسـم الخامـس عشـر للبرنامـج يسـتقبلون صـور الصناديـق الزجاجيـة، والتـي توضـع بهـا رؤوس المشـاركين فـي البرنامـج وتغطيهـا الجـرذان، باعتبـار هـذا أمـرًا روتينيًّـا، كمـا أصبـح الصحفيـون المتخصصـون فـي البرامج التلفزيونيـة المنتمية لـ"ثقافة القمامة" يتناقشـون عمـا إذا كان الموسـم الحالـي مـن البرنامـج قد أصبـح في النهايـة أيضًا يقدم اسـتمتاعًا أكثـر ممـا كان يحـدث فـي السـنوات السـابقة.

الوصم وتصميم الذات:

إن أشـكال التمكيـن تبـدو اليـوم بطريقـة متنوعـة كأنهـا طـرق للتعبيـر عــن الذاتيــة؛ إنــه تحــول وصفتــه الفصــول الســابقة بنــاءً علــى ظــروف مختلفـة. فالملـف الشـخصي تحـوَّل مـن أداة لتحقيق الانضباط إلى أسـلوب لتقديـم صـورة الـذات. كمـا أن تقنيـات تحديـد أماكـن الأفراد –والتـي كانت معروفـة حتـى قبـل أقـل مـن عشـرة أعـوام فـي سـياق الشـرطة والعدالـة فـي أغلـب الأحـوال- تبـدو اليوم شـرطًا لا غنـى عنه فـي الصفقـات التجارية والألعـاب المجتمعيـة أو بدايـة علاقـات الحـب. وفـي الختـام، فـإن إجـراء قياسـات للجسـم –والـذي كانـت تدفعهـا فـي تاريـخ العلـوم الإنسـانية كذلـك الرغبـة فـي تسـجيل بيانـات الأشـخاص المنحرفيـن- تُقـدِّم فـي صورة "الأجهـزة التـي يمكـن ارتداؤهـا" و"التطبيقـات الصحيـة" وعـد بالتمتـع بكيـان مسـتقل يحـدده الفـرد بنفسـه. لقـد نزعت كل هـذه الطـرق الخاصة

بالتتبع الذاتي عن الممارسة العملية لـ"تسجيل البيانات" -والتي ظلت قبل ثلاثين عامًا دافعًا للاعتراض الجماعي- طابعها المفزع. فلم تعد هناك مرجعية استبدادية غامضة، تجمع البيانات عن السير الذاتية للأفراد وعن مواضعهم وتعبيرات أجسادهم. بل بالأحرى، أصبح من يسجلون البيانات هم بالضبط من يتم تسجيل بياناتهم وأصبحوا يدفعون عملية "المراقبة السائلة" نحو الأمام والتي وصفها "زيجمونت باومان" و"ديفيد ليون" قبل بضع سنوات بأنها علامة مميزة للحاضر[202]. إن الثقافة الرقمية تتيح لمعاصريها بلا شك الاختيار أن يتخذوا قراراتهم. فبالمقارنة بالعالم، الذي وصفته أعمال الديستوبيا الأدبية في القرن العشرين أو الذي صاغته أنظمة الحكم الحقيقية ذات الطابع المفزع، فإن الناس يظلون هنا يتمتعون بالحرية في عدم إنشاء ملفات شخصية لهم على مواقع التواصل الاجتماعي وأن يوقفوا "الخدمات المتعلقة بتحديد المكان" في جهاز الهاتف الذكي أو ألا يستخدموا جهاز هاتف ذكي على الإطلاق (حتى وإن كانوا يحرمون أنفسهم بذلك الامتناع من مجالات التواصل والقدرة على التصرف والتي يزداد حجمها بصورة دائمة). ومن يود أيضًا أن يتبع التقنيات الأحدث لوسائل الإعلام، يمكن أن يحاول التهرب، بأكبر قدر من اليقظة، من السبل التي تحددها الشركات الكبرى لتسجيل البيانات وتحديد الهوية وتحديد الموقع تقنيًا.

202- Baumann /Lyon (2013)

وهـو الأمـر الـذي تظهـره منتجـات البرمجيـات البديلـة أو المبـادرات التـي يطلقهـا النشـطاء الرقميون. فعلى سـبيل المثال، يقدم كتـاب "التعتيم"، الذي نشـره العالمـان المتخصصـان فـي مجـال وسـائل الإعـلام "هيلين نيسـنباوم" و"فيـن برونتـون" عـام 2015، إطلالـة ممتـازة علـى اسـتراتيجيات "التعتيـم" -وهـي الكلمـة الـواردة فـي عنـوان الكتـاب- علـى البيانـات الشـخصية[203].
لكـن نظـرًا لعمليـات التأجيـل التاريخيـة الجوهريـة، التـي نتجـت فـي ربـع القـرن الأخيـر فـي العلاقـة بيـن بنـاء الـذات وتقنيـات تسـجيل المعلومـات، فقـد أصبحـت هـذه الاختيـارات متواريـة. فحتـى عمليـة كشـف الأسـرار التـي قـام بهـا "إدوار سـنودن" فـي عـام 2013 -والتـي أثبتـت بوضـوح أن الحكومـات وأجهـزة الاسـتخبارات أصبـح لديهـا اليـوم قـدر، لم يكـن معروفًا حتـى وقتهـا، مـن البيانات الشـخصية عـن مواطنيهـا- قد أثارت صـدى قصيرًا ولامباليًـا بشـكلٍ مفاجـئ فـي المناقشـات الدائرة فـي الرأي العـام. ولا يمكن لهـذه المعرفـة أن تتنافـس مـع العناصـر التي يحكيهـا الجانـب "الاجتماعي" وتحكيهـا "عمليـة المشـاركة عبـر شـبكة الإنترنـت". حيـث ينـدرج ضمـن تناقضـات الثقافـة الرقميـة أنـه فـي عصـر تحكم الآخريـن بصورة شـاملة في البيانـات الشـخصية يحتفـي الجانـب الخطابـي البلاغـي للتحكـم فـي الذات بأكبـر نجاحاته.

وهــذا التعبيــر عــن الذاتيــة لا يرتبــط بأشــكال بنــاء الــذات التــي

203- Brunton /Nissenbaum (2015)

توجهها البيانات فحسب وإنما تضم أيضًا المظهر الجسدي المباشر للناس. فمثل مسيرة ارتقاء شكل "الملف الشخصي" في الثقافة الرقمية، أصبح عرض جسد الفرد، أي التشكيل الشخصي لسطحه الخارجي، متواجدًا منذ نحو عشرين عامًا في إطار تقنيةٍ ما، كانت محددة لوقتٍ طويل من أجل وصم الأفراد. إن المقصود بهذا الحديث هنا هو قصة النجاح المذهلة لرسم الوشم. وقد ورد عن هذه الكلمة في أحد معاجم البحث الجنائي الصادر عام 1984: "تكثر رؤية الوشوم لدى البحارة والجنود والعمال والسجناء. وتوجد صالونات مخصصة لرسم الوشم في المدن الساحلية على وجه الخصوص [...] إن الوشوم تثير الاهتمام على صعيد البحث الجنائي بوصفها تعد في المقام الأول علامة لتحديد الهوية عند تقديم وصف للأشخاص. ومن ناحية أخرى، فإنها كثيرًا ما تسمح باستخلاص استنتاجات عن أصل الشخص، الذي يضع وشمًا، ووسطه الاجتماعي"[204].

مارس رسم الوشم وظائف مختلفة في تاريخ مكافحة الجريمة. فحتى أواخر القرن الثامن عشر، كان رسم الوشم له حقًّا معنى الوصم؛ حيث كان يتم وضع وصمة عار للمجرمين المدانين ومنها على سبيل المثال نبات الزنبق المرسوم على كتف "ليدي وينتر" في رواية "الفرسان الثلاثة" لـ"ألكسندر دوما". وقد توقفت هذه الممارسة العقابية في أوربا في العقود الإصلاحية قرابة عام

204- Anonym (1984), S. 221

1800، إلا أن قـوة تأثيـر جسـد المجـرم الموشـوم عـادت مـع بدايـات الأنثروبولوجيـا الإجراميـة فـي منتصـف القـرن التاسـع عشـر. عندئـذ لـم تعـد الرسـومات، التـي تفرضهـا سـلطة الدولـة، هـي مـا تطـور أهميـة هـذه القـوة التأثيريـة وإنمـا الأفـكار الفنيـة الرئيسـة التي يرسـمها المجرم بنفسـه عـن طريـق آلـة حـادة. فـ"سـيزار لمبـروزو"، علـى سـبيل المثال، والـذي كان مـن شـأنه فـي عهـده -بوصفـه كان طبيبًـا يعمـل فـي المحكمـة- أن يفحص بـدءًا مـن السـبعينيات مـن القـرن التاسـع عشـر وشـوم مـا يزيد على سـبعة آلاف سـجين[205]، كان يتطـرق مـرارًا وتكـرارًا فـي نظامـه التصنيفـي الدقيـق بالحديـث إلـى الزخـارف الأساسـية المرسـومة فـي الوشـوم؛ فـكان ينسـب نمـاذج محـددة مـن الزخـارف لأنمـاط محـددة مـن المجرمين ويبرِّر شـيوع عـدد المجرميـن، الذيـن يحملـون وشـومًا، بضعـف الإحسـاس بالألـم لـدى هـذا النمـط مـن البشـر الـذي يعانـي مـن تشـوهات خلقيـة رجعيـة وكذلك بشـعورهم بالملـل مـن البقـاء فـي السـجن. لقـد واصـل "هانز جـروس" هذا النقـاش فـي كتابـه "مرجـع لقضاة التحقيـق". فكتـب أنه صحيح أن الإنسـان لا يحتـاج إلـى أن "يذهـب بأفكاره بعيـدًا" مثلما فعل "لمبـروزو" ومن تبعوه فـي ذلـك والذيـن "اعتبـروا أن رسـم الوشـم يقتـرب مـن كونـه علامـة مميزة للمجرميـن". غيـر أن "جـروس" اتفـق مـع مدرسـة الأنثروبولوجيـا الإجراميـة علـى الأقـل فـي أن هـذا "التشـويه الفظ للجسـد لا يتواجد" فقط سـوى عند

205- Kurella (1892), S. 22

"النـاس الذيـن يختـارون مهنًا ذات طبيعـة حيوية [...] أي فـي أغلب الأحوال لـدى الملاحيـن والجنـود والقصابيـن والعامليـن فـي قـوارب التجديـف وصائـدي الأسـماك وقاطعـي الأخشـاب والحدَّاديـن... إلـخ". ولم يُشِـر "هانز جـروس" إلـى أن كثرة رسـم الوشـوم هـذه ترجع لانعـدام حس فطـري وإنما وضـع "الجانـب الجنسـي الحسـي لهـذه الطبائـع" فـي الصـدارة. "وهـذا هو السـبب أيضًـا فـي أن هـذه الوشـوم لا توجـد بيـن أفـراد الجنـس الأنثـوي إلا لـدى العاهـرات". وفـي الختـام، تعنـي هـذه الآراء بالنسـبة للتوجـه الجنائي أنـه تتأتـى ملاحظـة الوشـوم المرسـومة لـدى المجرميـن "وبالأسـاس أيضًـا لـدى الأشـخاص ذوي الطبيعـة الحركيـة مثـل القتلـة ومـن يرتكبـون جرائـم قتـل عـن طريق الضـرب واللصـوص الهجامين... إلـخ، وكذلك لدى الأشـخاص ذوي التوجهـات الحسـية الشـاذة مثـل القواديـن وممارسـي اللـواط وهاتكي الأعـراض ومنتهكـي الحرمـات. ولكـن نـادرًا مـا نلاحظهـا لـدى المخادعين أو مـن يتسـللون إلـى داخـل المنـازل والمتاجـر لسـرقتها... إلـخ". [206]

لقـد انتهـى فـي نهايـة القـرن التاسـع عشـر رسـم الوشـم باعتبـاره وصمـة عـار يتـم تطبيقهـا بعنـف؛ حيـث رفـض "ألفونـس بيرتيـون" السـؤال عـن سـبب أنـه لـم يُضِـف إلـى نظامـه الأنثروبومتـري مثـل هـذه السـمة المميـزة لـكل المجرميـن الباريسـيين والتـي يتـم وصفهـا قضائيًّـا بقولـه: "إن هـذا التدبيـر يشـبه إعـادة اللجـوء إلـى الوصـم

206- Gross (1893 /1914), S. 346 /47

بصـورة خفيـة للغايـة وأنـا أرفـض قطعًـا هـذه الوقاحـة"[207]. ولـم تعـد هذه الممارسـة إلـى أوربـا فـي القـرن العشـرين مـرة أخـرى أيضًـا باسـتثناء أرقـام السـجناء الموشـومة فـي معسـكر الاعتقـال النـازي "أوشـفيتس". إلا أن الخبـراء الجنائييـن يقصـرون اهتمامهم علـى الموضوعات الفنية للوشـومات المرسـومة علـى بشـرة المجرميـن. وهـو مـا ظهـر فـي المقـال المنشـور في أحـد معاجـم البحـث الجنائـي الصـادر عـام 1984. وبعـد سـنوات قليلـة من هـذا المقـال وفـي أعقـاب عصـر الوصـم والتصنيـف، بـدأت الحقبـة الثالثـة فـي تاريـخ رسـم الوشـوم فـي أوربـا؛ حيـث انتقـل رسـم الوشـوم مـن كونـه رمـزًا مشـبعًا بالمعانـي إلـى كونـه عنصـرًا جماليًّـا خالصًـا من عناصـر تصميم الـذات. ولكـن لـم يعـد الآن المجرمـون أو العاهـرات أو ممارسـو اللـواط أو هاتكـو الأعـراض أو منتهكـو الحرمـات هم من تحمل بشـرتهم خطوطًا كتابية ونمـاذج مصـورة لا يمكـن محوهـا. حيـث أصبـح يمكـن لأي شـخص فـي أي مـكان أن يفعـل هـذا؛ أي علـى سـبيل المثال السـكرتيرة التي تعمـل في أحد المكاتـب أو لاعـب الكـرة المحتـرف الـذي يلعـب في الاسـتاد أو رب الأسـرة المتواجـد فـي حمـام سـباحة غيـر مغطـى. فقـد أصبـح للوشـومات معنـى زخرفـي؛ ولـم تعـد تشـير إلـى سـيرة ذاتيـة لأحـد الأشـخاص المنحرفيـن ولم تعـد تسـمح –مثلمـا كانت الحال قبـل ثلاثين عامًا- "باسـتخلاص اسـتنتاجات عـن الأصـل والمحيـط الاجتماعي".

207- Bertillon (1890), S. 24

إلا أنـه مـن شـأن الزخـارف، التي يتم رسـمها طواعيـةً، أن تحدد في بعض السـياقات انتمـاءً محـددًا أو هويـة محـددة. فعلـى سـبيل المثـال، تطلـب شـركة "نايكـي"، التـي تصنـع المعـدات الرياضية، منـذ منتصف التسـعينيات مـن موظفيهـا الدائميـن فـي متاجرها الرئيسـة أن يقوموا برسـم وشـم صغير لعلامـة "سـووش" فـي مواضـع ظاهـرة مـن أجسـادهم، وهـذه العلامـة هـي شـعار الشـركة. لا يحدث هـذا بصورة جبرية وليس باعتبـاره معيارًا للتوظيف وإنمـا باعتبـاره رمـزًا لتماهـي هويتهـم مـع العلامـة التجاريـة.[208] تتضح في هـذه المطالبـة -أي فـي المطالبـة التـي قـال عنهـا "ألفونـس بيرتيـون" إنهـا: "إعـادة اللجـوء إلـى الوصـم بصـورة خفية"- عمليـة التحول التـي يحاول هذا الكتـاب وصفهـا بصـورة تفصيليـة. حيـث تحولت إجـراءات تسـجيل البيانات القسـرية إلـى عمليـات تطوعيـة لتصويـر الـذات حسـبما يريد الإنسـان. كما تحولـت عمليـات تكميـم الأفـواه التـي كانـت تمارسـها الشـرطة والعدالـة الجنائيـة إلـى رداءٍ فضفـاض مبهـج لعملية التسـويق.

208- انظر: nytimes.com /1994 /05 /22 /magazine /sunday-may-22- 1994-nike-s-tattooed-ekins.html

أو:

polledemaagt.com /blog2010 /11 /14 /remarkable-corporate-culture-nikes-ekin-tattoos /

5

قوة الاستبطان

يمكن اختصار كل ما قيل عن الجوانب سالفة الذكر والمتعلقة بأصل تقنيات تقديم صورة الذات والمعرفة الذاتية في الثقافة الرقمية بعبارة واحدة: إن مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي وخدمات تحديد المكان تقنيًّا والأجهزة التي يمكن ارتداؤها يفعلون هذا *طواعيةً* وهو ما يختلف تمامًا عن المجرمين والمرضي الذين كان يتم إنشاء ملفات شخصية لهم ويتم تحديد أماكنهم وإجراء قياسات لأجسادهم في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين، لكن ماذا تعنى كلمة "الطواعية" على وجه التحديد بالنسبة للوضع الحالي للذات؟ هل يتسنى اعتبار القرارات والإجراءات التي يتم اتخاذها بدافع شخصي بمثابة فعل تحرري إزاء السلوكيات الجبرية والمحددة سلفًا؟ ألا تعني "الطواعية" أيضًا أن يلتزم الفرد من تلقاء نفسه بهذه المعطيات بالفعل قبل أن تتعرض الذات لمشكلاتٍ ما؟

يعد من ضمن العلامات المميزة للواقع المعاصر والأكثر لفتًا للنظر أن عمليات وضع معايير موحدة وقواعد تنظيمية للناس

-والتـي كانـت تتحكـم فيهـا سـلطة الدولـة أو سـلطة علميـة أو سـلطة شـرطية- قـد تحولـت الآن فأصبـح يقـوم بهـا الأفـراد المعنيـون بذلـك. لا يتجلـى هـذا فـي مجـال دورة البيانـات الشـخصية فحسـب وإنمـا فـي سـياقات أخـرى أيضًـا. ففـي مجـال طـب الإنجـاب، علـى سـبيل المثـال، أدت إجـراءات التشـخيص قبـل الـولادة والتشـخيص الوراثـي السـابق علـى إجـراء عمليـة زرع الأجنـة -والتـي تُخضِـع الأجنـة فـي أرحـام أمهاتهـم أو الأجنـة، ممـن تـم تلقيحهـم صناعيًّـا خـارج جسـد الأم ويبلـغ عمرهـم بضعـة أيـام، لفحوصـات تتعلـق بـأي أمـور خارجـة عـن نطـاق المألـوف أو أي خلـل جينـي- إلـى أنـه لـم يكـد يولـد أطفـال مصابـون بأمـراض معينـة ومنهـا متلازمـة داون أو التليـف الكيسـي. وبهـذه الطريقـة، فـإن القـرارات الحـرة والفرديـة للزوجيـن باتبـاع توصيـات الأطبـاء وعلمـاء الوراثـة تحقـق غـرض برامـج تحسـين النسـل تلـك التـي استسـلمت لهـا الـدول الاسـتبدادية فـي النصـف الأول مـن القـرن العشـرين. فقـد أوصـى "ألفريـد بلوتـس"، وهـو أحـد مؤسسـي نظـام "النظافـة العرقيـة" فـي ألمانيـا، فـي عـام 1895 للمـرة الأولـى بـ"التخلـص مـن بعـض حديثـي الـولادة" مـن أجـل جعـل التركيـب الجينـي الجمعـي فـي وضـع مسـتحب علـى صعيـد تحسـين النسـل. ومـن المعـروف أن هـذه الأفـكار قـد اسـتخدمت فـي عهـد النازيـة فـي سـبيل إضفـاء مشـروعية علميـة علـى السياسـة الصحيـة. أمـا اليـوم، فـإن هـذا الفعـل أصبـح يتـم فـي مرحلـة متقدمـة وبطريقـة متكتمـة وفعالـة -أي فـي أقـدم مراحـل وجـود الإنسـان الـذي يفتـرض أن يكـون لـه كيـان فـي المسـتقبل- وذلـك بالتخلـص مـن الجنيـن فـي رحـم الأم

أو حتـى قبـل غرسـه فـي الرحـم. إن الدافـع وراء كلا الفعليـن يختلـف بصـورة أساسـية؛ ففـي الفعـل الأول يتعلـق الدافـع بالتركيـب الجينـي لشـعبٍ مـا أمـا فـي الفعـل الثانـي فالدافـع يتعلـق بالسـعادة الحياتيـة لأسـرةٍ مـا. إلا أن عواقـب الفعليـن تظـل واحـدة؛ فمقتـرح "بلوتـس" بتهيئـة "قتـل رحيـم" لـ"الطفـل الضعيـف أو المشـوه"؛ "فلنقـل أن يتـم هـذا بجرعـة صغيـرة مـن المورفيـن"[209] وكذلـك أيضًـا التقنيـات المتبعـة مـا قبـل الـولادة أو التقنيـات الوراثيـة السـابقة علـى إجـراء عمليـة زرع الأجنـة ينصـان علـى أنـه ينبغـي التخلـص مـن حيـاة الإنسـان التـي يتسـبب التركيـب الجينـي فـي أضـرار تلحـق بهـا.

فـي العقـود الأخيـرة، تغيـرت مواضـع التدخـلات التـي تحـدث فـي نهايـة حيـاة الإنسـان بطريقـة مشـابهة للقواعـد التنظيميـة التـي جـرت فـي بدايتهـا. ففـي الوقـت نفسـه تقريبًـا، الـذي ترسـخت فيـه دعائـم "النظافـة العرقيـة" فـي ألمانيـا، دارت أيضًا مناقشـة عن "إطـلاق العنـان لتدمير الحياة عديمـة القيمـة" وهـو مـا أصبح للمـرة الأولـى عـام 1920 عنوان كتـاب ألفه "كارل بيندينـج" و"ألفريـد هوخـه". حيـث أوصـى رجـل القانـون "بيندينـج" والطبيـب النفسـي "هوخـه" فـي الكتـاب بالقتـل المنهجـي لأولئـك الذيـن يعرفـون بــ"ذوي الوجـود الثقيـل" والذين كانوا يـرون أنهم المرضـى بأمراض مسـتعصية وفاقـدي الوعـي بصفـة مسـتمرة و"الحمقـى"[210] وهـو مـا كان

209- Ploetz (1895) S. 144.

210- Binding /Hoche (1920), S. 55, S. 51.

يرجع لأسباب تتعلق بالاقتصاد القومي والسياسة السكانية. إنه أحد أعمال "القتل الرحيم" الذي نفذه النازيون آنذاك دونما أي قيد أو شرط. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أصبحت صلة الربط هذه بين قتل المرضى بمساعدة طبية والحرص على الشعب عديمة المصداقية. ومع ذلك فقد عاد في ربع القرن الأخير من جديد في ألمانيا الاستعداد لتهيئة الموت الرحيم للناس في ظل ظروف محددة، وهو ما خضع لحظر مطلق بين الخمسينيات والستينيات. إلا أن المصطلح الرئيس "إرادة المريض" لا يتعلق سوى بمصير بعض المرضى مثلما لا تعبأ إجراءات التشخيص قبل الولادة والتشخيص الوراثي السابق على إجراء عملية زرع الأجنة سوى بالأسرة المعنية بتلك الإجراءات. وفي عام 2009، أصبح القانون ينص على الإلزام بوجود "تعهد كتابي من المريض بالسماح باتخاذ الإجراءات الطبية المناسبة إن كان في حالة لا تسمح له باتخاذ قرار محدد". ومنذ ذلك الحين، أصبح الموت الرحيم السلبي –أي إيقاف الإجراءات التي تبقي المريض على قيد الحياة وذلك في حالة المرضى الذين لم يعد من الممكن الحديث معهم– مسموحًا به. ومنذ ما يزيد على عَقد، تتم مرارًا وتكرارًا في مسودات القانون الألماني المتعلق بالموت الرحيم مناقشة الأشكال الأكثر إيجابية للمساعدة على الانتحار. لقد ساق مؤيدو تحرير القانون من أي قيود برهانًا يتمثل في الحق الفردي في الموت "بكرامة" وبصورة يقررها الفرد بنفسه ودون أن يضطر إلى مكابدة الحياة وهو محتاج لتلقي الرعاية وفي حالة

ارتباك. أي أن سلطة الدولة السابقة التي كانت تتيح إنهاء حياة من لا يمثلون قيمة للاقتصاد القومي قد تنحت جانبًا أمام سلطة الفرد التي تتيح له إنهاء حياته بمساعدة طبية. لكن يبقى السؤال إلى أي مدى يعد هذا التطور تحولًا قاطعًا وإلى أي مدى يمكن أن يتواصل هذا التطور، حيث إن كلا النموذجين ينص على إلغاء الحياة التي لا تستحق أن يحياها الفرد.

إن ما يتجلى في علوم الأحياء باعتباره تحولًا من التدخلات المتعلقة بالسياسات السكانية إلى حرية اختيار الفرد ينطبق بالمثل على التقنيات الذاتية للثقافة الرقمية والتي تم وصفها هنا. (وقد اتبع الاتجاه الجديد لعلم الوراثة في النصف الثاني من القرن العشرين أيضًا هذه النزعة حينما تحوَّل من كونه علمًا يتجه إلى الشعوب إلى كونه علمًا يتجه إلى الأفراد). حيث كان إنتاج بيانات الأفراد –عن طريق سيرتهم الذاتية وتحديد موقعهم في الفضاء المكاني وحالتهم الجسدية- مقتصرًا حتى أواخر القرن العشرين على سلطات الشرطة والسلطات العلمية وذلك في حالة التعرض لموقف استثنائي وهو ما كان يرجع إلى التكلفة التقنية الباهظة ومشاكل شرعية ذلك. ولم يكن الفرد يتحول ليصبح موضوعًا لعملية تسجيل البيانات إلا عندما كان البحث الجنائي أو التحقيق أو تاريخ الحالة المرضية يجعلون من بذل الجهد القانوني وتحمل النفقات أمرًا ضروريًا. وقد وقعت مقاومة الإجراءات الجماعية الأولى لعملية تسجيل البيانات في عصر الكمبيوتر –ومنها على

سبيل المثال مقاومة التعدادات السكانية عامي 1983 و-1987 بسبب الشعور بالقلق من أن يصبح التخزين الإلكتروني للبيانات الشخصية مرادفًا بالفعل لإنتاج ما يستوجب العقاب القانوني.

واليوم، في ظل ظروف تقنية الوسائط الإلكترونية الراهنة، لم تعد عملية حصر البيانات الشخصية وإعادة نقلها مرتبطة بمواقف الأزمات. فمن ناحية، يخلف الناس في كل مرة يستخدمون فيها بطاقة ائتمانية أو في كل مرة، يقومون ببحثٍ ما عن طريق شبكة الإنترنت، آثارًا عن هوياتهم ومحل إقامتهم بصورة عابرة. ومن ناحية أخرى، فقد تطوَّر شعورٌ عام بالتوق إلى إجراء تسجيل ذاتي للبيانات وتحديد الفرد لمكانه تقنيًّا وإجراء قياسات ذاتية للجسد تقنيًّا وهو الشعور الذي تقارب مع الاتجاه البيوسياسي نحو أن يقوم الأفراد بأنفسهم بعملية تحسين النسل. لكن بم تبوح هذه الميول عن الاستعدادات الداخلية للأفراد في الوقت الحاضر؟ ما هي أدوار وتأثيرات القيام طوعًا بمثل تلك العمليات التنظيمية؟ عندما نتتبع من يعتبرون على الأرجح أهم واضعي نظريات تقنيات السلطة الحديثة، نجد أن هناك حقبتين كبيرتين قد تشكلتا في تاريخها. حيث تحدث "ميشيل فوكو" عن "السلطة التأديبية" والتي أصبحت تحاصر الأفراد في الفضاءات المكانية للمؤسسات حديثة النشأة وتقدم لهم أوامر تنظيمية؛ أي في المدارس والثكنات العسكرية والمصانع والمستشفيات والسجون. وقد تبددت حقبة السلطة التأديبية بصورة متزايدة

علـى مـدار القـرن العشـرين وهـو مـا أكـد عليـه "جيـل دولـوز" فـي مقالـه الشـهير "هوامـش علـى مجتمعات السـيطرة " الصادر عـام 1990. "نحن نمر بأزمـة فـي كل الأوسـاط الاجتماعيـة التـي تحاصرنـا" هكـذا كتـب "دولـوز" ووضـع "أشـكال السـيطرة السـريعة للغايـة ذات المظهـر التحـرري" محـل الفضـاءات المكانيـة السـابقة لضبـط النظـام؛ فوضـع "الشـركات" المرنـة والمنفتحـة محـل المصنـع ووضـع "التدريـب المسـتمر طـوال العمـر" محل المدرسـة. إلا أن هـذا المقـال ذا الرؤيـة الثاقبـة للغايـة أيضًـا –والـذي مـرَّ عليـه فـي تلـك الأثنـاء مـا يزيـد على خمسـة وعشـرين عامًـا- قد تـم تأليفه فـي عهـد، لـم تكـن صـورة الإنسـان الجديـدة فـي الثقافـة الرقميـة وعلـوم الأحيـاء وعلـوم الأعصـاب قد تشـكلت فيه بعـد. عندمـا كتب "دولـوز" قائلًا: "إن الإنسـان ليـس فـي حاجـة إلـى الخيـال العلمـي لكـي يتصور وجـود آلية للسـيطرة والتـي تعلـن فـي كل لحظـة عـن موقـع أحـد العناصـر فـي محيط اجتماعـي منفتـح أو موقـع حيـوان فـي محميـة طبيعيـة أو موقع شـخص ما فـي إحـدى الشـركات (قـلادة إلكترونيـة)"[211] فـإن هـذا السـيناريو مـا زال يتحـدد عـن طريق إشـارة سـلطوية تـرد من أعلى إلى أسـفل. فعلـى الأرجح، لـم تعـد هنـاك حاجـة فـي أواخـر القـرن العشـرين لوجـود سـجون ومصانع بهـا بطاقـات تسـجل عـدد سـاعات التواجـد وهدفها ووضـع قواعـد تنظيمية للأشـخاص المنحرفيـن والاتكالييـن. إلا أن آليـات السـيطرة المتحركـة أيضًا –

211- Deleuze (1990 /1993), S. 55, S. 257, S. 261.

وهـو مـا أوضحتـه علـى سـبيل المثـال أجهـزة التعقـب وقيـود القـدم الإلكترونيـة- تثبـت وجـود القهـر والسـلطوية.

وعلـى العكـس مـن ذلك، فـإن القـلادة الإلكترونية الموجـودة في الوقت الحاضـر تعـد أحـد منتجـات صناعـة الأجهـزة التـي يمكـن ارتداؤهـا؛ ومنهـا علـى سـبيل المثـال أسـاور اليـد أو السـاعات الذكيـة التـي تنتجهـا شـركة "فيتبيـت". وقـد اتخـذت الشـركة لنفسـها شـعارًا علـى موقعهـا الإلكترونـي: "نحـن نـرى أن النـاس يصبحـون أقـرب إلـى بلـوغ أهدافهـم عندمـا يكونـون فـي حالـة اسـتمتاع ويبتسـمون ويملكـون زمـام أمـور حياتهـم". كمـا يصـف البرنامـج الجديـد "فيتالتـي" التابـع لشـركة تأميـن "جنرالـي" -والـذي يعمـل عـن طريـق تسـجيل البيانـات عبـر إحـدى أسـاور اللياقـة البدنيـة التـي تنتجهـا شـركة "فيتبيـت"- "فلسـفته" بالعبـارات: "إن مـن المهـم بالنسـبة لنا أن نكـون شـركاء لكـم وأن نحمسـكم علـى أن تحيـوا حياتكـم بصـورة أكثـر نشـاطًا وأن تتناولـوا طعامًـا بوعـيٍ أكبـر. دونمـا أي ضغـط تمامًـا وببسـاطة؛ لأنكـم تريـدون هـذا"[212]. أي أنـه فـي فتـرة التحـول إلـى القـرن الحـادي والعشـرين يبـدو أن الطريـق مـن السـلطة التأديبيـة التـي كانـت موجـودة فـي القرنيـن الثامـن عشـر والتاسـع عشـر إلـى سـلطة السـيطرة الموجـودة فـي القـرن العشـرين قـد أدى إلـى ظهـور شـكلٍ ثالث، ربمـا يمكـن تسـميته

212- fitbit.com /at /about, facebook.com /generali.badhomburg /posts /1171630396222749.

بالسـلطة الوقائيـة أو السـلطة الاسـتبطانية. وتهتـم هذه السـلطة بـألا يصبح مـن الضـروري مرة أخرى أن تتعرض أرشـيفات تسـجيل البيانات أو التصورات المعياريـة للحيـاة للفـرض مـن قبـل مرجعيـة خارجيـة وإنمـا يتم اسـتبطانها بصـورة جماعيـة بالفعـل. فلتنشـئ ملفًّـا شـخصيًّا! ولتقـدم خبـرًا عـن المكان الـذي تتواجـد فيـه! ولتصبح شـفافًا! ولتتخلص من الأطفـال ذوي الإعاقة! إنها صيـغ أمـر، يتأتـى فهمهـا فـي الوقت الحاضـر من تلقاء نفسـها، وقـد تحولت مـن كونهـا توجيهات لتصبـح رغبات.

فردية تنافسية:

لقـد أسـفر الاسـتعداد العـام لأن تكـون ظاهـرًا للعيـان وقابـلًا لإجـراء القيـاس الكمـي فـي كل وقـت عـن ظهـور أشـكال تقديـم صـورة الـذات، تسـتند إلـى مدح المنتجـات. فقد أوضـح تاريخ مصطلح "الملف الشـخصي" أن التسـويق قـد تطـرق إلـى نظريـات تسـجيل البيانـات فـي علـم البحـث الجنائـي؛ حيـث أصبـح اليـوم يتم اسـتخدام الطـرق المنهجيـة لتحديد هوية المجرميـن، والتـي أعدهـا مكتـب التحقيقـات الفيدرالي الأمريكـي في نهاية السـبعينيات، فـي تحديـد هويـة المسـتهلكين، إلا أن عـدم تطبيـق هـذه الإجـراءات مـن قبل الشـركات أو الـوكالات وحدهـا على العمـلاء المحتملين يعـد مـن العلامـات المميـزة للثقافـة الرقمية. فعلـى الأرجح يوجد اسـتعداد خـاص لـدى الأفراد للقيام بالتسـويق الذاتي. حيث كتـب "زيجمونت باومان"

أن مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي يعتبرون "قائمين بالدعاية ومنتجات مطلوبة في الوقت نفسه"[213] مثلما يتداخل معًا من يقوم بإنشاء الملف الشخصي وموضوعه في الملف الشخصي. وحتى خمسة وعشرين عامًا مضت، كان من الممكن بالكاد أن تتواجد هذه الازدواجية. فالغالبية العظمى من البشر –كما سبق ذكره في البداية- لم يكن لديها ببساطة منصة لتقدم صورة نفسها على الملأ. كما أن أولئك الذين كانوا يريدون، على سبيل المثال، أن يقدموا أنفسهم للرأي العام باعتبارهم مبدعين أصليين لمنتجات ثقافية، كانوا يستعينون بمصادر خارجية في سبيل القيام بالدعاية لأنفسهم وللأشياء التي ينتجونها. لقد انتهى هذا الانفصال في إطار نظام الوسائط الجديد. فجميع المؤلفين وصناع الأفلام والموسيقيين تقريبًا، والذين ينشرون اليوم شيئًا ما، يؤسسون في ملفاتهم الشخصية وكالة تسويق صغيرة لذواتهم ويزودون أصدقاءهم ومتابعيهم في أسابيع تاريخ إصدار أعمالهم بمجموعة وفيرة من الإرشادات المتعلقة بمنتجاتهم. وأصبح التخلي عن هذا كله –أي الإبقاء على الانفصال بين الإبداع الأصلي والقيام بأعمال العلاقات العامة- بمثابة موقف غريب في الوقت الحاضر.

إن نفاذ الشخص إلى داخل ذاته بالاستعانة باستراتيجيات التسويق لم يعد يسفر عن حدوث شرخ في صورة الإنسان

213- Baumann /Lyon (2013), S. 47.

المعاصرة. وقد أصبح تحليل "جورج لوكاش" التشخيصي عن "تشيؤ"[214] الظروف الاجتماعية –والذي كان يعد محوريًّا بالنسبة للنقد الاقتصادي السياسي في النصف الثاني من القرن العشرين- بمثابة أمر مبهم في ظل هذه الظروف. فحتى في الأحكام، التي أصدرتها المحكمة الدستورية الاتحادية الألمانية بشأن التعداد السكاني، كان من الممكن إدراك وجود أثر للمصطلح الذي صاغه "لوكاش" وذلك بالحظر الواضح لـ"تسجيل بيانات الإنسان المتعلقة بشخصيته في مجملها بصورة جبرية [...] ومعاملته من ثمَّ كأنه شيء ما" وكذلك في التعليمات الدستورية التي تفيد بأنه "يجب أن تظل هناك "مساحة داخلية" للإنسان في سبيل تنمية شخصيته بصورة حرة ومسؤولة"[215]. ولم تعد هذه الصلة بين "تنمية الشخصية بحرية" و"المساحة الداخلية"، التي تنعم بالحماية، لها أي وجود في الثقافة الرقمية؛ فتطوير الذات أصبح بالأحرى مرتبطًا بشكلٍ مستمر بتمثيل الذات عن طريق الوسائط الإلكترونية، حيث يتم اعتبار الشخص بمثابة صورة يتم تداولها علنًا والتي يجب أن يتم التأكيد على جاذبيتها وقيمتها في عملية متواصلة.

214- Lukács, Georg (1923 /1968), S. 257.

215- وهو ما حدث في حكم المحكمة الدستورية الاتحادية الألمانية بشأن إجراء تعداد سكاني جزئي في عام 1969.

telemedicus.info /urteile /Allgemeines-Persoenlichkeitsrecht /420BverfG-AZ-1-BvL-1963-Mikrozensus.html.

تتمثـل العلامـة المميـزة لهـذا التصـرف فـي البديهيـة التـي تتضمنهـا أشـكال التقديـر والتقييـم في طـرق التواصـل الراهنة. ففي موقـع "يوتيوب"، اسـتبطن اللاعبـون الأصغـر سـنًّا الممارسـة العمليـة بـأن ينهـوا كل مقطـع فيديـو، صممـوه بأنفسـهم، بملحوظـة يقولونهـا للمشـاهدين ومفادهـا: "فلتضغطـوا علـى علامـة "أعجبنـي"" للقنـاة "وذلك فـي حالـة إن كان مقطع الفيديـو قـد حـاز علـى إعجابكـم". ومـن المعـروف أن الأمل يدفع الشـخص بعـد أن يقـوم بنشـر منشـورٍ مـا فـي وسـائل التواصـل الاجتماعـي إلـى أن يراقـب كل بضـع دقائـق الرقـم المجاور لرمـز القلب الرمـادي أو الدائرة التي تحمـل رمـز إصبـع الإبهـام أزرق اللـون، إلا أن تأثيـر الضـرورة العامـة لإجـراء تقييـم لا يقتصـر علـى طـرق الحديـث والتصـرف فحسـب؛ فهـذه الضـرورة مدمجـة بالفعـل فـي البرامـج والخدمـات وذلـك بوصفهـا جـزءًا حتميًّـا مـن التعامـلات التـي يتـم إجراؤهـا. ففـي تطبيـق "أوبـر" علـى سـبيل المثـال لا يمكـن إتمـام تسـجيل حجـز الرحلة على الإطـلاق دون وضع التقييـم النهائي للسـائق بنظـام الخمـس نجـوم. أي أن تقييـم الشـخص الآخـر لـم يعـد يتـم بقـرارٍ شـخصي وإنمـا بنـاءً علـى إعـدادات الضبـط التقنيـة الأولـى.

لقـد تحـدث عالـم الاجتمـاع "أوليفـر ناختفـي" فـي كتابـه المؤثـر والمقنـع "مجتمـع الهبـوط" مؤخـرًا عـن "الفرديـة التنافسـية" فـي العصـر الحاضـر؛ حيـث " طبـق الإنسـان آليـات السـوق والمنافسـة فـي كل مجـالات المجتمـع تقريبًـا؛ هـذه هـي العلامـة المميـزة لوقتنـا

الحاضـر"[216]. وتعـد لحظـات التقييم المسـتمرة في عمليات تبـادل الخبرات الاجتماعيـة مثـالًا واضحًـا علـى ذلـك. حيـث إن فعاليتهـا تتجلى فـي البرامج التلفزيونيـة للكشـف عـن المواهـب مثلمـا يحـدث عنـد إعـادة التفسـير الهزليـة للمخـاوف مـن التعرض لعمليات تسـجيل البيانات أيضًـا. فمنذ ظهور برنامجـي "الأخ الأكبـر" و"نجـوم البـوب" فـي عـام 2000 وبرنامـج "ألمانيـا تبحـث عـن نجـم النجـوم" في عـام 2002، تعـد القـرارات الاحتفاليـة -والتي تسـتغرق وقتًـا طويـلًا بصـورة فنيـة مـن أجـل تحديـد مـن المتسـابق الـذي يجـب أن يغـادر الحلقـة- بمثابـة طقـس مألـوف. حيـث تسـتمتع مقدمـة البرامـج "هيـدي كلـوم" بإرجـاء هـذا الاختيـار فـي برنامجهـا "أفضـل عارضـة أزيـاء فـي ألمانيـا فـي الفتـرة المقبلـة" مـرارًا وتكـرارًا –كمـا هـو معلـوم- وذلـك بالاسـتعانة بحيـل وتفسـيرات خاطئـة. وتتمثـل ذروة كل فقـرة فـي البرنامـج فـي دمـوع الفتيـات المسـتبعدات مـن البرنامـج والتـي يتـم تصويرهـا عـن قـرب. وهـي المشـاهد المبتذلـة المعتـاد أن تـرد فـي نمـط برامـج الكشـف عـن المواهـب. واليـوم تعـد هـذه القـرارات جـزءًا لا يتجـزأ مـن برامـج تليفزيـون الواقـع التـي لا حصـر لعددهـا. إن الشـعور بالملـل مـن المعالجـة الدراميـة المتشـابهة للأبـد يطغـى علـى فكـرة أن إخـراج هذا المشـهد التنافسـي مـا زال ظاهـرة حديثـة للغايـة. فحتى نهاية التسـعينيات، لـم يكـن هنـاك وجـود لمثـل تلـك المنافسـات فـي التلفزيـون. ويعـد تزامن

216- Nachtwey (2016), S. 108, S. 11.

ظهورها بالضبط مع نشأة برامج المراقبة في تلفزيون الواقع من العلامات المميزة لها. إن برنامجي "البعثة الاستكشافية روبنسون" و"الأخ الأكبر" يعدان أول برنامجين تتم فيهما مراقبة مجموعة من المتسابقين بصورة متواصلة كما يتم بشكلٍ تدريجي فيهما اختيار المرشحين عن طريق تصويت لجنة التحكيم. إنه تسجيل كامل للبيانات ومنافسة داخلية، واللذان كانا في البداية صنفين مختلفين بالأساس، واندمجا في لحظة مكثفة من تاريخ التلفزيون كأنهما كانا يتبعان بعضهما بعضًا بالفعل دومًا، إلا أن تركيبتهما تلفت الانتباه بطريقة مزدوجة إلى أن منبع التهديد الذي يشعر به مجموع الناس قد تزحزح في فترة التحول إلى القرن الحادي والعشرين، فلم تعد هناك مرجعية خارجية تقوم بالمراقبة وتنشر الشعور بالخوف، كما أن المتسابقين لا يتفاعلون مع المجموعة الوفيرة من الكاميرات والميكروفونات المخفية دونما اكتراث فحسب وإنما بأكبر قدر من الثقة. أما ما يثير الشعور بالذعر فهو تصور أن يتعرض المتسابق للهزيمة في المسابقة وألا يصمد أمام التقييمات وأن يتم "استبعاده من الاختيار". وفي هذا الصدد، تقوم برامج الكشف عن المواهب بعملية محاكاة لإجراءات التصفية التي يتم تطبيقها اليوم في مراكز تقييم الأداء في العمل.

ولذلك فإن الرغبة في القيام بالتسويق الذاتي لا تعد مجرد إحدى نتائج التقنية الجديدة للوسائط الإلكترونية فحسب. صحيح

أن أشـكال هـذه التقنيـة قـد عـززت مـن هـذه الرغبـة إلا أن حتميـة إخضـاع الـذات لمواقـف تقييميـة بصـورة متواصلـة قـد ارتبطـت فـي ربـع القـرن الأخيـر بأسـباب اقتصاديـة وكذلـك بالتحـولات الهائلـة فـي بنيـة الشـركات وفـي سـوق العمـل وهـو مـا حـدث منـذ الثمانينيـات، علـى أقصـى تقديـر، فـي غـرب أوربـا والولايـات المتحـدة الأمريكيـة. لقـد أخضـع "أوليفـر ناختفـي" تراجـع السـير الذاتيـة المهنيـة الثابتـة أمـام سلسـلة هشـة مـن العقـود المؤقتـة والمعتمـدة علـى حجـم مـا يتـم أداؤه مـن عمـل -تطبيقًـا علـى مثـال جمهوريـة ألمانيـا الاتحاديـة- لتحليـلٍ دقيـق. وحـدد فـي دراسـته شـخصية "رائـد الأعمـال" المتواجـدة وسـط "كيـان منظـم مـن الشـركات يشـبه الشـبكة ويعتمـد علـى المشـروعات" باعتبارهـا "مثـلاً أعلـى تحتـذي بـه الذاتيـة فـي العصـر الحديـث" وهـو يشـبه مـا فعلـه "نيكـولاس روزه" و"أولريـش بروكلينـج" قبـل بعـض الوقـت عندمـا حـددا مصطلـح "الـذات رائـدة الأعمـال". وفـي مواقـف الاختبـار المتكـررة بانتظـام –والتـي يتعـرض لهـا موظفـو المشـروعات- تعـد أسـاليب تقديـم صـورة للـذات والتقييـم مـن ضمـن الإجـراءات الأساسـية. حيـث كتـب "ناختفـي" قائـلاً: "إن الرأسـمالية الحديثـة لا تتـم بصـورة جيـدة إلا بمعاونـة الأفـراد وبمشـاركتهم الطوعيـة". ويجـب فـي هـذا السـياق أن نفهـم بدقـة أن الكتـب الاسترشـادية الخاصـة بالدعايـة أصبحـت تركـز منـذ التسـعينيات علـى "الملفـات الشـخصية" لمـن يبحثـون عـن عمـل؛ وهـو مـا تـم وصفـه فـي الفصـل الأول مـن الكتـاب. فـ"الملـف

الشـخصي" يعـد نقطـة الالتقـاء "الفرديـة التنافسـية"[217]. وبقـدر مـا يتـم اسـتبدال الوظائـف المسـتقرة للموظفيـن بمشـروعات ذات مـدد محـددة والتـي يتـم البـدء فيهـا كل مـرة مـن جديـد، بقـدر مـا تـزداد ضـرورة وجـود "ملـف شـخصي" يتـم الاعتنـاء بـه بدقـة حيـث يصبح حاسـمًا في أقـرب مرة يتـم التقـدم فيهـا لشـغل وظيفة وفـي أقرب منافسـة. (ففي الوقـت الحاضر، يمكـن فـي المجـال الجامعـي، علـى سـبيل المثـال، الشـعور بوجـود هـذه العقليـة علـى نطـاقٍ واسـع. فمنـذ أن أصبـح العمـل فـي درجـة الأسـتاذية مـدى الحيـاة أو فـي درجـة أسـتاذ مسـاعد لوقـتٍ طويـل يعتبـران حالتيـن اسـتثنائيتين فـي العمـل الأكاديمـي، انطلقـت الطاقـة الهائلـة لمـن يعملـون لفتـرات مؤقتـة فـي بذلهم مجهـودًا كبيرًا من أجـل إضفاء صبغـة مثالية على "ملفاتهـم الشـخصية بوصفهـم باحثيـن" وذلـك عندمـا يقدمـون أي طلبـات عمـل أو طلبـات توظيـف. إن تسـجيل بيانـات ما يتـم أداؤه مـن عمل –وهو مـا كان يعـد بالنسـبة للجيـل الأكاديمـي قبـل ذلـك بمثابـة أمر مـؤذٍ ومزعج يتحقـق بصـورة سـيئة أكثـر من كونهـا محققة– يعد الشـغل الشـاغل لمن يتم تقييمهـم وكتابـة تقاريـر عنهـم بصـورة مسـتمرة. ويجـب أن يحظـى التأثيـر الجـذاب لـ"الملف الشـخصي" –لأسـباب اسـتراتيجية جيدة متعلقة بالمسـار المهنـي- باهتمـام يـكاد يزيـد علـى الاهتمـام بـأي أعمـال يصورهـا الملـف الشخصي).

217- نفس المرجع السابق، ص 84، 86، 78، 108.

إمكانية التحكم في الذات في الثقافة الرقمية:

أي أن آليات الاستبطان تنتشر في كل مكان، يُثبِّت فيه الناس تصوراتٍ معيارية لحياتهم عن طريق قيامهم بالتتبع الذاتي ويقومون من تلقاء أنفسهم بعمليات تسجيل خارجية عن طريق الاعتناء بـ"ملفاتهم الشخصية". يمكن لهذه الإجراءات أن تعزز من استقلالية الفرد؛ حيث إنها تحرره من أي قوى وسيطة. إلا أنها تساهم، من ناحية أخرى، في تنفيذ الإجراءات التنظيمية على الفرد بتعجل. هناك مجموعتان من التصورات تعتبران مفيدتين في المقام الأول في هذا التنفيذ للإجراءات التنظيمية وهما المجموعتان اللتان تتحركان على العتبة الفاصلة بين الحاضر والماضي؛ ألا وهما "المخاطرة" و"الوقاية". إن السبب في أن الكثير جدًّا من الناس يرتدون في الوقت الحاضر أسورة لياقة بدنية أو يختبرون ذبذبات أجسادهم بالاستعانة بالهاتف الذكي أو يقومون بالتأمين على الحياة "المستند إلى سلوكياتهم" أو يأمرون بتحليل الجينات الخاصة بهم لمعرفة هل هناك أمراض وراثية محتملة، يتمثل في السعي إلى خفض المخاطر الصحية عن طريق الوقاية. وفي الوقت الحاضر، أصبح هناك توافق اجتماعي بشأن الضرورة الملحة لاتخاذ تدابير وقائية تتعلق بالأمن والحالة الصحية الجيدة. وهذا يتعارض بصورة ملحوظة مع التقبل المتزايد دائمًا لوجود بعض الانحرافات في المظهر الجمالي، فلم تعد الأنظار تلتفت لمن يذهب إلى المكتب بقصة

شعر "موهوك" حمراء اللون أو بجسد عليه وشوم، لكن القيام بنزهة بالدراجة دون ارتداء خوذة أو استهلاك السجائر بانتظام أو عدم الاكتراث بالوقاية من مرض سرطان الأمعاء في عمر الخامسة والأربعين يدفع الناس المتواجدين في البيئة المحيطة إلى هز رؤوسهم في استنكار ويثير انتقادهم الصريح، وربما كان هذا سيثير قبل ربع قرن أصداء معاكسة لذلك.

تندرج ضمن العلوم الرائدة للمعرفة الوقائية في العلوم الإنسانية على وجه التحديد تلك العلوم التي تلعب دورًا ما في سياق تاريخ نظريات القياس. حيث كتب "هوجو مونستربرج" في مطلع القرن العشرين أن فكرة "الوقاية" تعد فكرة محورية بالنسبة لعلم النفس التقني؛ فقد ورد في المحاضرة الافتتاحية لـ"جون واطسون" التي ألقاها عام 1925: "إن مهمة علم النفس السلوكي تتمثل في القدرة على التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه". وأضاف أن هذا الأمر يتعلق بالاستعانة بالتجارب في التكهن مع الأشخاص الخاضعين للتجربة بشأن "أي رد فعل سوف يطرأ على أي مؤثر موجود"؛ إنه تحليل عملت سبرانية "نوربرت فينر" على صقله منذ بداية الأربعينيات –وذلك بالاتحاد المنتظم مع علم النفس السلوكي- ووضعه في خدمة الجيش الأمريكي. كما أن بدايات عملية معالجة البيانات الإلكترونية في علم البحث الجنائي كانت متواجدة في إطار الوقاية؛ فقد وصف "هورست هيرولد" "منع الجريمة" في عام 1968 بالفعل بأنها "أهم شكل

مـن أشـكال مكافحـة الجريمـة حقًّـا ولكنهـا تعد اليـوم أكثـر أشـكالها تعرضًا للإهمـال" وكان مـن المفتـرض أن تهـدف "عملية معالجة البيانـات" التي كان ينشـدها "والتـي لـم تكـن تقـوم بعمليـة التنقيـب والمقارنـة فحسـب وإنما البحـث أيضًـا" فـي المقـام الأول إلـى المنـع المنهجـي لارتـكاب جرائـم فـي المستقبل[218].

كانـت هـذه الأشـكال السـبرانية والشـرطية للوقايـة معروفـة فـي الثقافـة الرقميـة فـي إطـار الكلمـات الرئيسـة "تنميـط مصغـر" و"تحليـلات تنبؤيـة". فعلـى سـبيل المثـال، ينبغـي علـى المعالجـة والتقييـم الشـديد لأكبـر كميـات مـن البيانـات إلكترونيًّـا أن تتيـح التنبـؤ بطريقـة موثـوق بهـا بالجرائـم التـي تقـع فـي الأحيـاء المتأزمـة أو فـي داخـل إحـدى التجمعـات السـكانية المشـتبه بها وكذلـك أن يرتب التدابير الوقائيـة مثل درجة الحماية الشـرطية العاليـة وعمليـات البحـث الجنائـي ذات الأهـداف المحـددة. وفي هـذا الصـدد، تفيـد المعرفـة الوقائيـة فـي التحكـم فـي الأفـراد والسـيطرة عليهـم عـن طريـق سـلطات عليـا وهـو مـا احتـاط لـه "مونسـتربرج" و"واطسـون" و"هيرولـد". غيـر أن اسـتخدام الأفـراد لهـذه التدابيـر

218- Münsterberg (1914 /1920), S. 441; Watson (1925 /1930), S. 33.

وللاطلاع على السبرانية انظر: (Wiener (1943 /2002) وHerold (1968), S. 253, S. 254 . كما تم التأكيد في المرجع الأساسي لـ"بورهوس فريدريك سكينر" وهو كتاب "المذهب السلوكي" على أهمية "التنبؤ" بالنسبة للعلم الذي أصبح يتمتع بالتأثير عن طريق "سكينر". انظر:(Skinner (1974 /1978), S. 16 /17

الوقائيـة علـى وجـه التحديـد طواعيـة، مـن أجـل التحكـم فـي ذواتهـم والسـيطرة عليهـا، يعـد أمـرًا محوريًّـا للوضـع الراهـن للذاتيـة. حيـث انعكـس "التنميـط العنصـري" الـذي تجريـه الشـرطة فـي محطـات القطـار ووسـائل المواصـلات العامـة -والـذي يخضـع الأشـخاص ذوو السـمات العرقيـة المحـددة لمراقبـة مسـتمرة وذلـك بنـاءً علـى الشـك التنبـؤي- فـي الملفـات الشـخصية التـي أنشـأها أصحـاب شـبكة "لينكـد إن" لأنفسـهم وفـي جهـاز الإرسـال الـذي يعمـل بنظـام "جـي بـي إس" ويتـم تثبيتـه فـي قـدم "مـن يمثـل خطـورة مـا" وفـي أسـاور اللياقـة البدنيـة التـي يرتديهـا مـن يقومـون بالتتبـع الذاتـي. أي أن ذلـك "التأثيـر المتبـادل بيـن تقنيـات السـلطة وتقنيـات الـذات" -والـذي أبـرزه "ميشـيل فوكـو" فـي تأملاتـه الفكريـة عـن فـن الحكـم- يتمتـع بحضـورٍ خـاص فـي الثقافـة الرقميـة. حيـث كتـب "فوكـو" قائـلًا: "يمكـن فـي رأيـي أن نطلـق علـى نقطـة الاتصـال، التـي يرتبـط فيهـا شـكل توجيـه الأفـراد عـن طريـق آخريـن بطريقـة إدارتهـم لذواتهـم، اسـم الحكـم". وهـو مـا يعنـي بالنسـبة لـ"الحكوماتيـة" فـي العصـر الحاضـر مـا قالـه "تومـاس ليمكـه": "إن الحكـم لا يشـير بالدرجـة الأولـى إلـى قهـر الذاتيـة وإنمـا إلـى إنتاجهـا (الذاتـي) فـي المقـام الأول أو بشـكلٍ أدق إلـى اختـراع ودعـم تقنيـات ذاتيـة يمكـن أن تقتـرن بأهـداف الحكـم"[219].

219- Focault (1993), S. 203 .

وقد تم نقل الاستشهادات عن الترجمة التي قام بها Bröckling /Krasmann /Lemke (2000), S. 29.

إن الملفات الشخصية وخدمات تحديد المكان تقنيًّا والممارسات العملية لقياسات الجسم تعد عناصر نموذجية لهذا الدعم للتقنيات الذاتية. فهي تعمل على استقرار وضع سياسي، انتقلت إليه -وفقًا لمعايير "أورويل" وقرائه في السبعينيات والثمانينيات- إجراءات شمولية لتسجيل البيانات. إلا أنه وضع قد أصبح أكثر تعقيدًا بكثير؛ فما زال من الممكن أن نجد مكانًا خارجًا عن نطاقه والذي يعد موقعًا صريحًا لممارسة النقد. إن العزاء -أو التناقض- الذي قدمته رواية "1984" يتمثل في أنها سمحت بوجود خط فاصل واضح بين الاستبداد والحرية وبين الكذب والحقيقة وذلك سواءً انطلاقًا من الأشخاص الذين ظهروا في الرواية أو من منظور الحكي التقليدي، فالراوي من الخارج يصف البنى التحتية لسلطة الدولة من مسافة بعيدة ولا ينسحب إلى داخل متاهتها ولا يقيم ملاذًا للعقل والنقد إلا عن طريق هذا التوجه. وعلاوةً على ذلك، فإن طبقة البروليتاريا، التي ليس لها حقوق وليس عليها واجبات والتي تشكل خمسًا وثمانين بالمئة من الشعب في دولة "أوشينيا"، تُبيِّن أن الجانب الأكبر من الناس في رواية "1984" -وهو ما ينساه الناس ببساطة- قد خرجت عن قبضة أي سيطرة؛ حتى إن مساكنهم لم يكن بها أي شاشات عرض. فديستوبيا "أورويل" قد أقرت لهؤلاء الأشخاص عديمي الأهمية بالحصول على البقية المتبقية من الإنسانية التي تمنحهم قدرًا من الشجاعة: "لقد ظل البروليتاريون يتمتعون بالإنسانية

[...] إذا كان ثمَّة أمل، فإنه كان معقودًا على البروليتاريين"[220]. كيف حال هذه الأماكن والتجمعات في الثقافة الرقمية في العصر الحاضر؟ من الجلي أن تحديد مواضع ملاذات الثقافة الرقمية -التي هيأت تصورًا مستقبليًّا مفزعًا ذا تأثير قوي مثل التأثير القوي لرواية "جورج أورويل"- وكذلك إضفاء صفة شخصية عليها يعدان اليوم أمرين أقل وضوحًا. فمن ناحية تقنية الوسائط الإلكترونية، اختفى الجانب الآخر لتسجيل البيانات بالقدر الذي تزداد به الرغبة العامة في تجميع بيانات الذات. كما أن فئة "الطبقة" أصبحت تلعب دورًا متواضعًا في المناقشات السياسية الاجتماعية والسياسية الاقتصادية منذ عام 1989 على أقصى تقدير؛ لأن الخطابات المهمة، التي تدور عن استعداد الفرد لأداء الأعمال وعن "حماسه" و"شغفه" بتنفيذ سيرته الذاتية الناجحة والواضحة أمام الجميع، قد قللت الاهتمام بالتشكيل الطبقي والتضامن الطبقي[221]. إن دولة المراقبة الاستبدادية، التي رأى الكثير من الناس قبل خمسة وثلاثين عامًا أنها مقبلة على التحقق في جمهورية ألمانيا الاتحادية، لم تنشأ. إلا أن وضع النقد في موضع معين وتحديد هدف ما لهذا النقد قد أصبحا بلا شك

220- Orwell (1949 /2011), S. 201, S. 264.

221- إن النجاح الكبير لكتاب "العودة إلى ريمس" -والذي يحكي فيه عالم الاجتماع "ديديه إيريبون" عن إنكاره طوال حياته أن أصوله ترجع إلى أسرة تنتمي لطبقة العمال ويربط هذا الصمت النموذجي مع انعكاسها على مكانة "الطبقة" في السياسة في الوقت الحاضر- يشير بالطبع إلى أن الاهتمام بهذه الفئة المُهمَلة قد ازداد مرة أخرى. انظر: (Eribon 2009 /2016).

أمريـن عسـيرين في ظل "الحداثة السـائلة". لقد ارتكـب مناهضو التعدادين السـكانيين -اللذيـن كان مـن المزمـع إجراؤهمـا فـي عامـي 1983 و-1987 اعتـداءات علـى مكاتـب تسـجيل السـكان والتي رجحـوا أن اسـتبيانات حصر البيانـات كانـت موجـودة فيها، لكن ليـس من الممكن قصف وسـيط تخزين البيانـات "كلاود" بالقنابل.

مـا هـي القـوى التـي حرصـت فـي مطلـع القـرن العشـرين علـى عمليـة الاسـتبطان هـذه والخاصـة بتلـك العمليـات التنظيميـة؟ عندما رسـم "ميشـيل فوكـو" فـي مطلـع الثمانينيـات الخطـوط العريضـة لمصطلـح "الحكوماتيـة" متأثـرًا بـ"السياسـات الاقتصاديـة الجديـدة" لـ"ريجان" و"تاتشـر"، بـدأ تصوران مبدئيـان يترسـخان فـي العالـم الغربـي ويتقاربـان بعضهمـا مـن بعـض وهما التصـوران اللـذان يشـكلان صـورة الإنسـان ويرتبطـان اليـوم بعضهمـا ببعـض ارتباطًـا لا مفـر منـه. ينحـدر أحـد هذيـن التصوريـن مـن مجـال الاقتصـاد السياسـي؛ بينمـا ينحـدر التصور الآخـر من مجال تقنيـة الوسـائط الإلكترونية. فقـد أدى التحـرر الاقتصـادي الجديـد -والـذي دمج أيضًا في ما سـبق قطاعات بعيـدة عـن السـوق، ومنهـا على سـبيل المثال الجانـب الاجتماعـي في منطق الجانـب الاقتصـادي- إلـى الحد من إدارة المنافسـة وأوجد خطابًـا بلاغيًّا خاصًّا بـالأداء ومنطلقًـا مـن دوافـع داخليـة كامنـة وحـرص فـي دول مثـل إنجلتـرا، وبعدهـا بقليـل ألمانيـا، علـى تقليـص مـا يسـمى بدولـة الرفاهيـة. إن قصـة نجـاح الثقافـة الرقميـة فـي شـمال "كاليفورنيـا" تـرى بدورهـا –حسـبما أظهـر "فريـد تيرنـر"- فـي اسـتخدام أجهـزة الكمبيوتـر الشـخصية وفـي الاندمـاج

فـي "المجتمعـات الافتراضيـة" أحـد دعائـم الاسـتقلالية الشـخصية وتمكيـن الـذات. أي أن هنـاك جانبيـن مختلفيـن كانـا يمنحـان الفـرد فـي أواخـر القرن العشـرين القـوة ليتحـرر مـن قيـود مؤسسـات الدولـة؛ فالعقليـة الاقتصاديـة الجديـدة وكذلـك الفضـاءات المثاليـة الإلكترونيـة يعـولان علـى التحكـم فـي الـذات بـدلاً من التحكـم في الآخرين وعلى المنافسـة الحرة بـدلاً من القواعد المبالـغ فيهـا والتـي تضعهـا الدولـة. كمـا أن المفـردات اللغويـة، التـي وردت فـي البدايـة قرابـة عـام 1968 من جانبٍ سياسـي يسـاري –ومنها "المسـؤولية الذاتيـة" و"تقريـر المصيـر" و"التدرجـات الهرميـة السـطحية"- قـد تأقلمـت فـي الشـركات، التـي تقـدم الخدمـات الخاصـة بشـبكة الإنترنـت أو شـركات بـدء التشـغيل والمتعلقـة بشـبكة الإنترنـت منـذ منتصـف التسـعينيات علـى نظريـات الاقتصـاد الجديـد، أمـا اليـوم فيـكاد يكـون مـن الصعـب ملاحظـة حـالات التصـدع الناتجـة عـن هـذا الاندمـاج، حيـث دخـل اقتصـاد السـوق والالتـزام النقـدي والسـعي لتحقيـق ربـح والأخلاقيـات المثاليـة فـي تحالـفٍ مثيـر للإعجـاب. وتمثلـت أيقونـة هذا التحالف فـي "رائد الأعمال في شـبكات التواصـل الاجتماعـي" والـذي ينضـوي اسـمه بالفعل علـى الربط بيـن الجانب الاجتماعـي والجانـب الاقتصـادي. وتتحقـق ممارسـته العمليـة فـي "الاقتصـاد التشـاركي" والـذي تحولـت فيـه المجـالات الحياتيـة الأخيـرة علـى الأرجـح – بعـد خروجهـا عـن نطـاق الحافـز الباعـث علـى تحقيـق الربـح ومنهـا علـى سـبيل المثـال السـرير الخاص بالفـرد ودولاب الملابس الخـاص بالفرد والمقعد المجـاور للسـائق فـي السـيارة الخاصـة بالفـرد- لتصبـح مصـدرًا للدخـل يـدر

ربحًا.[222]

وفـي أحـد أشـهر الأفـلام الدعائيـة القصيـرة فـي التاريـخ، والـذي أذيـع للمـرة الأولـى فـي يـوم الثانـي والعشـرين مـن ينايـر عـام 1984 أثنـاء إقامة المبـاراة النهائيـة فـي دوري كـرة القـدم الأمريكيـة، عرضـت شـركة "آبـل" علـى الجمهـور جهـاز كمبيوتـر "ماكنتـوش" الجديـد الخـاص بهـا. حيـث عـرض هـذا الفيلـم الدعائـي القصيـر عالـم روايـة "أورويل"؛ فظهرت حشـود مـن أعضـاء الحـزب ذوي الجسـد الهزيـل والذيـن يرتـدون زيًّـا موحـدًا فـي الطريـق، الـذي أحاطـت بـه شاشـات العـرض، وهـم متجهـون لسـماع خطـاب "الأخ الأكبـر". ودوَّت العبـارات المنبعثـة مـن شاشـة عـرض الفيديـو الضخمـة قائلـةً: "إن توحيـد أفكارنـا يعـد سـلاحًا أقـوى مـن أي أسـطول أو جيـش علـى سـطح الأرض". وأخـذت الكاميـرات تتحـرك متجهـة إلـى سـيدة شـابة ترتـدي سـروالًا رياضيًّـا أحمـر اللـون –وهـي بقعـة اللـون الوحيدة في

222- أي أنه إذا كان من الخصائص المميزة للثقافة الرقمية أن موضع النقد في مجتمع ما قد أصبح إشكاليًّا بسبب وجود أشخاص متشابكين معًا ويسجلون بياناتهم بأنفسهم ويقومون بعمليات تنظيم لذواتهم، فإن السؤال يطرح فسه إلى أي مدى ارتبطت التطورات السياسية في السنوات الماضية بأشكال التقنية الجديدة للوسائط الإلكترونية؟ وما مدي مساهمة وضع رأي عام ما –والذي يمكن أن يصل فيه أي ادعاء وأي معلومة يرسلها مرسل ما إلى المرسل إليهم دون الخضوع لرقابة المؤسسات المترابطة- في ارتفاع مقدار الشعبوية؟ مثلما بحث "والتر بنيامين" في مقاله "العمل الفني في عصر إمكانية إعادة إنتاجه تقنيًّا" العلاقة بين الفاشية والوسائط الحديثة، ومنها على سبيل المثال الفيلم والصور الفوتوغرافية، فربما يكون من الضروري الربط بين رئاسة "دونالد ترامب" والمعارك الانتخابية للأحزاب الشعبوية الجديدة وبين تأثير طرق التواصل والتمثيل في الوقت الحاضر. إلا أن هذا يتطلب تحليلًا مستقلًّا بذاته.

الفيلـم- والتـي توجهـت نحـو شاشـة العـرض وهي تحمـل مطرقة فـي يدها، بينمـا يتعقبهـا بلطجية الشـرطة السـرية. وبمجرد أن ينتهـي "الأخ الأكبر" من إلقـاء خطابـه، تقـذف السـيدة بالمطرقة في اتجاه الشاشـة وتجعلهـا تنفجر. وأعلـن أحـد المتحدثيـن عـن الجمـل التـي تـم عرضهـا علـى شاشـة العـرض فـي الوقـت نفسـه: "فـي الرابع والعشـرين من ينايـر عام 1984 سـوف تقدم شـركة "آبـل" جهـاز كمبيوتـر "ماكنتوش". وسـوف ترون لماذا لـن يكون العام 1984 مثـل روايـة "1984"". ومـن منظـور الثقافـة الرقميـة اليـوم –أي بعـد قرابـة ثلاثيـن عامًـا- أصبـح النقـاش يـدور حـول هـل تحقـق هـذا الاختـلاف حقًّـا؟ ففـي كل بقعـة من العالـم ذي الصبغة الغربية، ينظـر الناس إلى نفس الشاشـات ذات الإطـار الفضـي الرمـادي ويتتبعون نفس الخطوط المتشـابكة التـي تقـدم الجوانـب الخاصـة بالأفـراد، حيـث يتولـون بأنفسـهم القيـام بعمليـات وضـع القواعـد التنظيميـة لأنفسـهم وينفذونهـا بذلـك بطريقـة لم يكـن مـن الممكـن التنبـؤ بفعاليتهـا المؤقتـة. إن الوعـد بتنميـة ذواتنـا يعـد سـلاحًا أقـوى مـن أي توحيـد للأفكار.

Verwendete Literatur

- Ackermann, Judith (2014), Location Based Mobile Gaming in der Stadt – Spielerische Eroberung des urbanen Raums und Hybrid Reality Theatre, in: Bächle, Thomas Christian/Thimm, Caja (Hg.), Mobile Medien – Mobiles Leben. Neue Technologien, Mobilität und die mediastisierte Gesellschaft, Bonn, S. 143-167

- Aly, Götz (1987), Die restlose Erfassung im Nationalsozialismus; in: Anonym (Hg.), Volkszählungs-Boykott. Bilder, Plakate, Flugschriften, Kassel, S. 12-16

- Aly, Götz/Roth, Karl Heinz (1984), Die restlose Erfassung. Volkszählen, Identifizieren, Aussondern im Nationalsozialismus. Berlin

- Anonym (1984), Art. "Tätowierungen"; in: Kriminalistik Lexikon. Heidelberg, S. 221

- Anonym (1987a), Datenschrott für eine Milliarde?; in: Der Spiegel 12, S. 30-53

- Anonym (1987b), Teufel an der Wand; in: Der Spiegel 16, S. 46-51

- Anonym (2012), The Mystery of Aurora Suspect's Missing Facebook Account,cnet.com/news/the-mytery-of-aurora-suspects-missing-facebook-account/

- Apprich, Clemens (2015), Vernetzt. Zur Entstehung der Netzwerkgesellschaft.Bielefeld
- Ault, Richard jr./Reese, James (1980), A Psychological Assessment of Crime. Profiling; in: FBI Law Enforcement Bulletin Jg. 49, S. 22-25
- Barlow, John Perry (1996), Declaration of the Independence of Cyberspace,eff.org/de/cyberspace-independence
- Bartsch, Karl (1922/1926), Das psychologische Profil und seine Auswertung für die Heilpädagogik. Ein Beitrag zur Erforschung der psychischen Funktionen des normalen und anormanlen Kindes, Halle a. S., 2. Auflage
- Baumann, Zygmunt/Lyon, David (2013), Daten, Drohnen, Disziplin. Ein Gespräch über flüchtige Überwachung. Berlin
- Bélanger, Richard u.a. (2011) U-Shaped Association Between Intensity of Internet Use and Adolescent Health; in: Perdiatrics Jg. 127, S. 330-335
- Bergmann, Sven (2007) , Die elektronische Fußfessel. Eine kritische Betrachtung über eine nicht mehr ganz so neue Straftechnik; in: Forum Strafvollzug Jg. 56, S. 262-266
- Bernett, Brigitte (2009), Der Fall der psychologischen Formulars; in: Zum Fall machen , zum Fall werden: Wissensproduktion und Patientenerfahrung in Medizin und Psychiatrie des 19. und 20. Jahrhunderts. Frankfurt am Main. S. 62-91

- Bertillon, Alphonse (1890), Das anthropometrische Signalement. Neue Methoden zu Identitäts-Feststellungen. Berlin

- Bertillon, Alphonse (1895), Die Gerichtliche Photographie. Mit einem Anhange über die anthropometrische Classification und Identificirung. Halle a. S.

- Beukers, John (1995), The Unfolding Future of the Global Navigation Satellite Sytem. Part I. From the Past to the Present; in: GPS Solutions Jg. I, S. 23-27

- Binding, Karl/Hoche, Alfred (1920), Die Freigabe der Vernichtung unwerten Lebens: Ihr Mass und ihre Form. Leipzig

- Bölsche, Jochen (1979/1983), Der Weg in den Überwachungsstaat. Reinbek bei Hamburg.

- Boltanski, Luc (2012/2015), Rätsel und Komplotte. Kriminalliteratur, Paranoia, moderne Gesellschaft. Frankfurt am Main

- Boltanski, Luc/ Chiapello, Ève (1999/2006), Der neue Geist des Kapitalismus.Konstanz

- Boyd, Danah (2004), Friendster ans Publicily Articulated Social Networks,danah.org/papers/CHI2004Friendster.PDF

- Boyd, Danah/Donath, Judith (2004), Public Displays od Connection; in: BT Techmology Journal Jg. 22, S. 71-82

- Boyd, Danah/Heer, Jeffrey (2006), Profiles as Conversation: Networkes Identity Performance on Friendster, danah/org/papers/HICSS2006.PDF

- Brauneisen, Achim (2011), Die elektronische Überwachung des Aufenthaltsortes als neues Instrument der Führungsaufsicht; in: Strafverteidiger Jg. 31 S. 311-316

- Bröckling, Ulrich (2004), Prävention; in : Ders./Krasmann, Susanne/Lemke, Thomas, Glossar der Gegenwart. Frankfurt am Main, S. 210-215

- Bröckling, Ulrich (2007), Das unternehmerische Selbst. Soziologie einer Subjektivierungsform. Frankfurt am Main

- Bröckling, Ulrich/Krasmann, Susanne/Lemke, Thomas (2000), Gouvernementalität, Neoliberalismus und Selbsttechnologien. Eine Einleitung; in: dies. (Hg.), Gouvernementalität der Gegenwart. Studien zur Ökonomisierung des Sozialen. Farnkfurt am Main, S. 7-40

- Brunton, Finn/Nissenbaum, Helen (2015), Obfuscation. A User's Guide for Privacy and Protest. Cambridge/London

- Brussel, James (1968/1971), Das ungezähmte Böse. Die berühmtesten Fälle des Sherlock Holmes unter den Psychiatern. Bern

- Burnett, John/Bush, Alan (1986), Profiling the Yuppies; in: Journal of Advertising Research Jg. 26, S. 27-35

- Buschauer, Regine/Willis, Katharine (2014), Locative Media. Medialität und Räumlichkeit – Multidisziplinäre Perspektiven zur Verortung der Medien. Bielefeld

- Buschauer, Regine (2014), (Very) Nervous Systems. Big Mobile Data; in: Reichert, Ràmon (Hg.), Big Data. Analysen zum digitalen Wandel von Wissen, Macht und Ökonomie. Bielefeld, S. 405-436

- Chun, Wendy Hui Kyong(2006), Control and Freedom. Power and Paranoia in the age of Fiber Optics. Cambridge/London

- Crawford, Kate (2014), When Fitbit is the Expert Witness, the atlantic.com/technology/archive/2014/11/when-fitbit-is-the-expert-witness/382936/

- Crawford, Kate/Lingel, Jesse/Karppi, Tero (2015), Our Metrics Ourselves: A Hundred Years of Self-Tracking From the Weight Scale to the Wrist Wearable Device; in: European Journal of Cultural Studies Jg. 18, S. 479-496

- Crawford, Leslie (1996), Geek Love; in: San Francisco Focus, Oktober, S. 20

- Dahs, Hans (1999), Im Banne der elektronischen Fußfessel; in: Neue juristische Wochenschrift Jg. 52, S. 3469-3471

- Dao, Diep/Rizos, Chris/Wang, Jinling (2002), Location-based Services: Technical and Business Issues; in: GPS Solutions Jg. 6, S. 169-178

- *Datenschutz-Grundverordnung* (2016), datenschutz-grundverordnung.eu/wp-content/uploads/2016/05/CELEX_32016R0679_DE_TXT.PDF

- Deleuze, Gilles (1990/1993), Postkriptum über die Kontrollgesellschaften; in: Ders., Unterhandlungen. 1972-1990. Frankfurt am Main, S. 254-262

- Döblin, Alfred (1911/2013), Die Ermordung einer Butterblume; in: Ders. Die Ermordung einer Butterblume. Gesammelte Erzählungen. Frankfurt am Main, S. 59-71

- Doering, R. D. (1974), Vehicle Locator Feasiblity Study. Final Report Submitted to Governor's Conference on Criminal Justice. Florida

- Donath, Julius (1918), Über Arithmomanie; in: Zeitschrift für die gesamte Neurologie und Psychiatrie Jg. 43, S. 56-64

- Doyle, Arthur Conan (1904/1985), Die Abtei-Schule; in: Ders., Die Rückkehr des Sherlock Holmes. Zürich, S. 125-163

- Duve, Freimut (1983), Katalysator gegn den Orwell-Staat; in: Taeger, Jürgen, Die Volkszählung. Reinbek bei Hamburg, S. 25-30

- Duytschaever, John (1973), Eine Pionierleistung des Expressionismus. Alfred Döblins Erzählung *Die Ermordung einer Butterblume*; in: Amsterdamer Beiträge zur neueren Germanistik Bd. 2, S. 27-43

- Eggers, Dave (2014), Der Circle. Köln

- Eribon, Didier (2009/2016), Rückkehr nach Reims. Berlin
- Ernst, D. (1978), NAVSTAR/GPS (Global Positioning System) und elektronische Störmaßnahmen; in: Ortung und Navigation, S. 409-426
- Ewald, François (1986/1993), Der Vorsorgestaat. Frankfurt am Main
- Eylert, Bernd (1982), Standortbestimmung von Einsatzfahrzeugen; in: Die Polizei Jg. 73, S. B13-B19
- Feltes, Thomas (1988), Kriminalität und soziale Kontrolle im 21. Jahrhundert. Ein futuristisches Szenario vor dem Hintergrund aktueller Entwicklungen; in: Bewährungshilfe Jg. 35, S. 90-102
- Fogy, W. (1978), Positionbestimmung von Einsatzfahrzeugen im urbanen Gelände; in: Ortung und Navigation, S. 500-519
- Folkers, Andreas/Lemke, Thomas (Hg.) (2014), Biopolitik. Ein Reader. Frankfurt am Main
- Foucault, Michel (1982/2005), Subjekt und Macht; in: Ders. Dits et Ecrits. Schriften. Vierter Band. Frankfurt am Main. S. 269-294
- Foucault, Michel (1993), About the Beginning of the Hermeneutics of the Self; in: Political Theory Jg. 21, S. 198-227

- Fox, Richard (1987), Dr. Schwirtgebel's Machine Revisited: Electronic Monitoring of Offenders; in: Australian and New Zealand Journal of Criminology Jg. 20, S. 131-147
- Freiesleben, H. C. (1978), Das Satelliten-System NAVSTAR/GPS; in: Ortung und Navigation, S. 63-79
- Freud, Sigmund (1894/1952), Die Abwehr-Neuropsychosen; in: Ders., Gesammelte Werke chronologisch geordnet, I. Band, Werke aus den Jahren 1892-1899. London, S. 379-403
- Frith, Jordan (2015), Smartphones as Locative Media. Cambridge/ Malden
- Galloway, Alexander (2012), The Interface Effect. Cambridge/Malden
- Galton, Francis (1883), Inquiries into Human Faculty. London
- Giese, Fritz (1923), Psychotechnisches Praktikum, Halle a. S.
- Ginzburg, Carlo (1979/1988), Spurensicherung. Der Jäger entziffert die Fährte, Sherlock Holmes nimmt die Lupe, Freud liest Morelli – die Wissenschaft auf der Suche nach sich selbst; in: Ders., Suprensicherungen. Über verborgene Geschichte, Kunst und soziales Gedächtnis. München, S. 78-125

- Gold, Louis (1962), The Psychiatric Profile of the Firesetter; in: Journal of Forensic Sciences Jg. 7, S. 404-417
- Gould, Stephan Jay (1981/1994), Der falsch vermessene Mensch. Frankfurt am Main
- Grassegger, Hannes/Krogerus, Mikael (2016), "Ich habe nur gezeigt, dass es die Bombe gibt", dasmagazin.ch/2016/1203/ich-habe-nur-gezeigt-dass-es-die-bombe-gibt
- Griesinger, Wilhelm (1868/69), Über einen wenig bekannten psychopathischen Zustand, in: Archiv für Psychiatrie und Nerven krankheiten Jg. 1, S. 626-635 u. 753-754
- Gross, Hans (1893/1914), Handbuch für Untersuchungsrichter als System der Kriminalistik. Sechste, umgearbeitete Auflage. München u.a.
- Hall, John (1985), Electronic Tracking Devices. Following the Fourth Amendment; in: FBI Law Enforcement Journal. Jg. 54, Heft 2, S. 26-31, und Heft 3, S. 26-31
- Hansen, G. R./Leflang, W.G. (1979), Application of Automatic Vehicle Location in Law Enforcement. An introductory Planing Guide. Washington, D.C.
- Herold, Horst (1968), Orgamisatorische Grundzüge der elektronischen Datenverarbeitung der Polizei. Versuch eines Zukunftsmodells; in: Taschenbuch für Kriminalisten Bd. 18, S. 240-254

- Herold, Horst (1985), "Rasterfahndung" - eine computergestützte Fahndungsform der Polizei; in: Recht und Politik Jg. 21, S. 84-97
- Hess, Volker (2010), Formalisierte Beobachtung. Die Genese der modernen Krankenakte am Beispiel der Berliner und Pariser Medizin; in: Medizinhistorisches Journal Jg. 45, S. 293-340
- Hubert, Eva (1983), Politiker fragen – Bürger antworten nicht! Die Boykottbewegung gegen die Volkszählung ; in: Taeger, Jürgen, Die Volkszählung. Reinbek bei Hamburg, S. 254-266
- Illouz, Eva (2011), Warum Liebe weh tut. Eine soziologische Erklärung. Frankfurt am Main
- *Institute of Public Administration* (1968), Public Urban Locator Service (PULSE) – Background and Conference Proceedings. Springfield
- Ipektschi, Ali-Reza (1983), Ärtzliche Aufzeichnungen über Patienten im Allgemeinen Krankenhaus in Hamburg in der Zeit von 1823-1888. Diss. Hamburg
- Jacobson, Len (1995), GPS – The World's New Utility; in: GPS Solutions Jg. 1, S. 81
- Jahrreiß, Walter (1926), Über Zwangsvorstellungen im Verlauf der Schizophrenie; in: Archiv für Psychiatrie und NervenkrankheitenJg. 77, S. 740-788
- Joachim, Georg (1892), Ueber Zwangsvorstellungen. Diss. Berlin

- Johnson, Carrie (2012), FBI Still Struggling with Supreme Court's GPS Ruling, npr.org/2012/03/21149011887/fbi-still-struggling-with-supremecourts-gps-ruling
- Jolin, Annette/Rogers, Robert (1990), Elektronisch überwachter Hausarrest: Darstellung einer Strafvollzugsalternative in den Vereinigten Staaten; in: Monatsschrift für Kriminologie und Strafrechtreform Jg. 73, S. 201-209
- Kirkpatrick, David (2010), The Facebook Effect. New York
- Kittler, Friedrich (1986), Grammophon Film Typewriter. Berlin
- Kob, Janpeter u.a. (1973), Profil der Benutzer öffentlicher Bibliotheken. Berlin
- Köhntopp, Kristian (2016), Ingress – die Kunst, Umwege zugehen,doc.google.com/document/d/18wdwC7VU_T_jBmodnUamWFI9LwRmdP38AO17Zp58TE0/edit?pli=I
- Koppenstedt, Franz (1983), Keine unzumutbaren Fragen bei der Volkszählung; in: Frankfurter Allgemeine Zeitung 12. 4., S. 7
- Kosinski, Michal u.a. (2011), Our Twitter Profiles, Our Selves: Predicting Personality with Twitter, https://www.cl.cam.ac.uk/~dq209/publications/quercia11twitter.pdf

- Kosinski, Michal/Stilwell, David/Graepel, Thore (2013), Private Traits and Attributes are Predictable from Digital Records of Human Behavior; in: Proceedings of the National Academy of Sciences Jg. 110, S. 5802-5805

- Krafft-Ebing (1867), Richard, Beiträge zur Erkennung und richtigen forensichen Beurtheilung krankhafter Gemütszustände füe Aertze, Richter und Vertheidiger. Erlangen

- Krause, Marcus (2008), Einleitung Sektion 5: Messen; in: Ders. u.a. (Hg.), Menschenversuche. Eine Anthologie 1750-2000. Frankfurt am Main, S. 355-390

- Krüger (1978), Zweckmäßiger Einsatz und Betrieb von Radaranlagen für Satelliten-Navigation; in: Ortung und Navigation, S. 105-120

- Kunze, Torsten (2008), Die elektronishe Fußfessel in Hessen. Eine positive Betrachtung über Haftvermeidung mit Hilfe zur Selbsthilfe; in: Forum Strafvollzug Jg. 57, S. 33-35

- Kurella, Hans (1892), Cesare Lombroso und die Naturgeschichte des Verbrechers. Hamburg

- Lachapelle, Gerard/Wang, Jingling (2002), Letter from the Guest Editors: The GPS Wireless Special Issue; in: GPS Solutions Jg. 6, S. 137

- Larkin, Paul (2013), The Fourth Amendment and New Technology; in: Legal Memorandum Jg. 102, S. 1-9

- Lavater, Johann Caspar (1772/1991), Von der Physiognomik. Frankfurt am Main
- Lavrakas, John/Marshall, Glenn (1995), Where is it and Where is it going? A Comprehensive Look at GPS Asset Location; in: GPS Solution Jg. 1, S. 13-22
- Ledebur, Sophie (2011), Schreiben und Beschreiben. Zur epistemischen Funktion von psychiatrischen Krankenakten, ihrer Archivierung und deren Übersetzung in Fallgeschichten; in: Berichte zur Wissenschaftegeschichte Jg. 34, S. 102-124
- Lemke, Thomas (2004), Test; in: Ders./Bröckling, Ulrich/Krasmann, Susanne, Glossar der Gegenwart. Frankfurt am Main. S. 263-270
- Lichtenberg, Georg Christoph (1778/1972), Über Physiognomik; wider die Physiognomen. Zu Beförderung der Menschenliebe und Menschenkenntnis; in: Ders. Schriften und Briefe. Herausgegeben von Wolfgang Promies. Dritter Band. München, S. 256-295
- Lovink, Geert (1997), Von der spekulativen Medientheorie zur Netzkritik, heise.de/tp/features/Von-der-spekulativen-Medientheorie-zur-Netzkritik-3411000.html
- Löwenfeld, Leopold (1904), Die psychischen Zwangserscheinungen. Wiesbaden

- Lukács, Georg (1923/1968), Die Verdinglichung und das Bewußtsein des Proletariats; in: Ders., Geschichte und Klassenbewußtsein. Werke, Band 2, Frühschriften II. Neuwied und Berlin, S. 257-397
- Lupton, Deborah (2016), The Quantified Self. A Sociology of Self-Tracking. Cmabrdige/Malden
- MacManus Richard (2014), Health Trackers. How Technology is Helping us Monitor and improve Our Health. Auckland
- Marshall, Gary (2016), The story of Fitbit. How a Wooden Box Became a $4 Billion Company, wareable.com/fitbit/youre-fitbit-and-you-know-it-how-a-wooden-became-a-4-dollar-billion-company
- Martin-Jung, Helmut (2007), Verhaltensforschung; in: Süddeutsche Zeitung 15. Mai, S. 1
- Marx, Reiner (1997), Literatur und Zwangsneurose. Eine Gegenübertragungs-Improvisation zu Alfred Döblins früher Erzählung *Die Ermordung einer Butterblume*; in: Sander, Gabriele (Hg.), Internationales Alfred-Döblin-Kolloquium Leiden 1995. Bern u.a., S. 49-60
- Münsterberg, Hugo (1908/1923), On the Witness Stand. Essays on Psychology and Crime. New York
- Münsterberg, Hugo (1914/1920), Gründzüge der Psychotechnik. 2. Auflage. Lepizig

- Musolff, Cornelia (2006), Täterprofile und Fallanalyse. Eine Bestandsaufnahme; in: Dies./Hoffmann, Jens (Hg.), Täterprofile bei Gewaltverbrechen. Mythos, Theorie und Praxis des Profilings. Heidelberg, S. 1-23

- Nachtwey, Oliver (2016), Die Abstiegsgesellschaft. Über das Aufbegehren in der regressiven Moderne. Berlin

- Neff, Gina/Nafus, Dawn (2016), Self-Tracking. Cambridge

- Negroponte, Nicholas (1996/1997), Total Digital. Die Welt zwischen 0 und 1 oder die Zukunft der Kommunikation. München

- Nogala, Detlef/Sack, Fritz (1995), Folgerungen für die polizeiliche Arbeit aus der Technikausstattung; in: Bundeskriminalamt (Hg.), Aktuelle Methoden der Kriminaltechnik und Kriminalistik. Vorträge und Diskussionen der Arbeitstagung des Bundeskriminalamtes vom 8. bis 11. November 1994, Wiesbaden, S. 115-168

- Nogala, Detlef/Haverkmap, Rita (2000), Elektronische Bewachung. Stichworte zur punitiven Aufenthaltskontrolle von Personen; in: Datenschutz und Datensicherheit, Jg. 24, S. 31-338

- Olsen, Parmy (2014), Fitbit Now Being Used in the Courtroom, forbes.com/sites/parmyolson/2014/11/16/fitbit-data-court-room-personal-injury-claim/#74adb8a4209f

- Önel, Günes (2012), Verfassungsmäßigkeit und Effektivität der "elektronischen Fußfessel"; in: Jahrbuch des kriminalwissenschaftlichen Instituts der Leibniz Universität Hannoverm https://www.jura-uni-hannover.de/fileadmin/fakultaet/Institute/KI/Jahrbuecher/2012_-_Band_I_-_GOE_-_Endfassung.Pdf
- Orwell, George (1949/2011), 1984. Berlin
- Peitz, Konrad (1987), Bedeutung moderner Ortungs- und Navigationstechnologien für die Gewährleistung der öffentlichen Sicherheit und Ordnung; in: Die Polizei Jg. 78, Beilage 3, S. 361-363
- Penzel, Thomas (2014), Schlafforschung heute: Entwicklungen, Techniken und Motivationen der Praxis; in: Ahlheim, Hannah (Hg.), Kontrollgewinn – Kontrollverlust. Die Geschichte des Schlafs in der Moderne. Frankfurt am Main/New York, S. 209-226
- Piorkowski, Christoph David (2012), Spurlos im Netz. Wer sich Facebook verweigert, macht sich verdächtig; in: Süddeutsche Zeitung 21.12, S. 13
- Ploetz, Alfred (1895), Die Tüchtigkeit unserer Rasse und der Schutz der Schwachen. Ein Versuch über Rassenhygiene und ihr Verhältnis zu den humanen Idealen, besonders zum Socialismus. Berlin
- Püttjer, Christian/Schnierda, Uwe (1999), Anschreiben und Lebensläufe für Hochschulabsolventen. Felde am Westensee
- Püttjer, Christian/Schnierda, Uwe (2001), Die gelungene Online-Bewerbung. Frankfurt am Main/New York

- Püttjer, Christian/Schnierda, Uwe (2006), Das große werbungshandbuch. Zweite Auflage. Frankfurt am Main/New York
- Raulff, Ulrich (1985), Münsterbergs Erfindung oder der elektrifizierte Zeuge; in: Freibeuter 24, S. 33-42
- Rechtschaffen, Allen/Kales, Anthony (Hg,) (1968), A Manual of Standarized Terminology, Techniques and Scoring for Sleep Stages of Human Subjects, Washington D. C.
- Redlich, Manja (2005), Die elektronische Überwachung. Entwicklung, Bestandsaufnahme und Perspektiven. Frankfurt am Main u. .a
- Rheingold, Howard (1993/2000), The Virtual Community. Homesteading on the Electronic Frontier. Cambridge
- Rider, Anthony (1980), The Firesetter. A Psychological Profile; in: FBI Law Enforcement Bulletin, Jg. 49, Juni, S. 7-13 und Juli, S. 7-17
- Riordan, Teresa (2003), Idea for Online Networking Brings Two Entrepreneurs Together; in: New York Times, ntimes.com/2003/12/01/technology/technology-media-patents-idea-for-online-networking-brings-two-entrepreneurs.html
- Rose, Nikolas (1989), Governing the Soul. The shaping of the Private Self. London

- Rossolimo, Grigorij (1910/1926), Das Psychologische Profil und andere experimentell-psychologische, individuale und kollektiven Methoden zur Prüfung der Psychomechanik bei Erwachsenen und Kindern. Halle a. d. Saale
- Rottmann, Verena/Strohm, Holger (1986), Was Sie gegn Mikrozensus und Volkszählung tun können. Frankfurt am Main
- Schäffner, Wolfgang (1995). Die Ordnung des Wahns. Zur Poetologie psychiatrischen Wissens bei Alfred Döblin. München
- Schnabel, Christoph (2009), Datenschutz bei Profilbasierten Location Based Services. Die datenschutzadäquate Gestaltung von Service-Plattformen für Mobilkommunikation. Diss. Kassel
- Schneider, Manfred (1986), Die erkaltete Herzensschrift. Der autobiographische Text im 20. Jahrhundert. München
- Schneider, Manfred (1992), Liebe und Betrug. Die Sprachen des Verlangens. München
- Schwartz, Hillel (1986), Never Satisfied. A Cultural History of Diets, Fantasies & Fat. New York u.a.
- Schwitzgebel, Ralph (1968), Survey of Electromechanical Devices for Behavior Modification; in: Psychological Bulletin Jg. 70, S. 444-459

- Schwitzgebel, Ralph (1969), Development of an Electronic Rehabilitation System or Parolees; in: Law and Computer Technology Jg. 2, Heft 3, S. 9-12
- Schwitzgebel, Ralph (1971), Development and Legal Regulation of Coercive Behavior Modification Techniques with Offenders. Washington, D. C.
- Schwitzgebel, Ralph u.a. (1964), A Program of Research in Behavioral Electronics; in: Behavioral Science Jg. 9, S. 233-238
- Schwitzgebel, Ralph/Hurd, William (1969), Patent No. 3478344: Behavioral Supervision System with Wrist Carried Transceiver, google.com/patents/US3478344
- Sender, F. (1978), von TRANSIT zu NAVSTAR – Entwicklungstendenzen der Satellitennavigation; in: Ortung und Navigation, S. 318-338
- Skinner, Burhus Frederic (1974/1978), Was ist Behaviorismus? Reinbek bei Hamburg
- Specht, Louise (2012), Konsequenzen der Ökonomisierung informationeller Selbstbestimmung: Die zivilrechtliche Erfassung des Datenhandels. Köln
- Stingelin, Martin (1988), En face et en profil. Der identifizierende Blick von Polizei und Psychiatrie; in: FOTOVISION. Austellungskatalog
- Süskind, Martin E. (1983), Warten auf Orwells Jahr; in: Süddeutsche Zeitung 14.4, S. 3

- Timko, Francis (1986), Electronic Monitoring – How it all Began: Conversations with Love and Goss; in: Journal of Probation and Parole Jg. 17, S. 15-16
- Tjardts, Jan Peter (1982), NAVSTAR GPS. Entwicklungsstand und weitere Zukunft dieses globalen Navigationssystems; in: Ortung und Navigation, S. 148-158
- Turkle, Sherry (1994), Constructions and Reconstructions of Self in Virtual Reality: Playing in the MUDs; in: Mind, culture and Activity Jg. 1 (1994), S. 158-167
- Turkle, Sherry (1995), Life on the Screen. Identity in the Age of the Internet. New York u.a.
- Turner, Fred (2006), From Counterculture to Cyberculture. Stewart Brand, the Whole Earth Network, and the Rise of Digital Utopianism. Chicago
- *United States v. Jones* (2012), supremecourt.gov/opinions/11pdf/10-1259.pdf
- *Universität Duisburg Gesamtschule* (Hg.) (1988), Dossier Volkszählung '87. Duisburg
- Vec, Milos (2009), Sichtbar/Unsichtbar. Entstehung und Scheitern von Kriminologie und Kriminalistik als semiotische Disziplin; in: Habermas, Rebekka/Schwerhoff, Gerd (Hg.), Verbrechen im Blick. Perspektiven der neuzeitlichen Kriminalitätsgeschichte. Frankfurt am Main/New York, S. 383-414

- Vogl, Joseph (1998), Grinsen ohne Katze. Vom Wissen virtueller Objekte; in: Herrmann, Hans-Christian v./Middell, Matthias (Hg.), Ort der Kulturwissenschaft. 5 Vorträge. Leipzig, S. 41-53
- Vorpagel, Russell (1982), Painting Psychological Profiles: Charlatanism, Coincidence, Charisma, Chance or a New Science; in: The Police Chief, S. 156-159
- Watson, John (1913/1968), Psychologie, wie sie der Behaviorist sieht; in: Ders. Behviorismus. Köln. S. 13-28
- Watson, John (1925/1930), Der Behaviorismus. Berlin/Leipzig
- *Webster Universal Dictionary* (1968), Art. "Profile". New York, S. 1163
- Weich, Andreas (2017), Sich Profilieren und profiliert werden – über zwei Seiten einer Medaille; in: Ders./Degeling, Martin/Othmer, Julius/Westermann, Bianca (Hg.), Profile, Interdisziplinäre Beiträge. Lüneburg
- Weinreich, Andrew (1997), Method and Apparatus for Constructing a Networking Database and System. United States Patent No. US 6175831,google.com/patents/US6175831
- Wenzlau, Andreas u.a. (2003) KundenProfiling. Die Methode zur Neukundenakquise.Erlangen
- Wermann, Claus Fokke (1987), Schöne neue Kabelwelt; in: Anonym (Hg.), Volkszählungs-Boykott. Bilder, Plakate, Flugschriften. Kassel, S. 37-39

- Westphal, Carl (1877/1892), Eigenthümliche mit Einschlafen verbundene Anfälle; in: Carl Westphal's gesammelte Abhandlungen. Berlin, S. 393-407

- Wiener, Norbert (1943/2002), Verhalten, Absicht und Teleologie; in: Ders., Futurum Exactum. Ausgewählte Schriften zur Kybernetik und Kommunikationstheorie. Wien, S. 61-69

- Wittig, Petra (2000), Die datenschutzrechtliche Problematik der Anfertigung von Persönlichkeitsprofilen; in: Recht der Datenverarbeitung Jg. 16, S. 59-62

- Wolf, Gary (2010), The Data-Driven Life; in: New York Times Magazine, nytimes.com/2010/05/02/magazine/02self-measurement-t.html

- Zogg, Jean Marie (2011), GPS und GNSS. Grundlagen der Ortung und Navigation mit Satelliten, zogg-jm.ch/Dateien/Update_Zogg_Deutsche_Version_Jan_09_Version_Z4x.pdf